

ميشال زيفاكو

رواية
بشارك ليان

نور المعوري
Intellectualrevolution

ترجمة : طانيوس عبده

المحرر الثاني

الكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

بارداليان

- ١ -

شارع لاهاش

حدثت حوادث حالت دون تنفيذ ما نواه هنري في تلك الليلة .
وبما يستغرب ان هذا الرجل حين خرج من غرفة حنة ، وجسد نفسه
سليماً بما استنبطه من قوله لها انه لم يخطئها إلا لانقاذها مع ابنتها من خطر
مصدق بها .

وقد قال في نفسه انها بدأت بشئني ولعني ولكنها سئلتني بأنت تصفي
إلى ما أقوله لها دون غضب .

وقد حمل على إبعادها عن قصره ، خوفاً من أخيه حين علم أنه جاء
إلى باريس .

ولبت في قصره إلى أن هجم الظلام ، فانشق بوشاح كبير وتقدم خنجراً
عريض النصل ، وذهب إلى شارع لاهاش .

ورفقت عند باب ذلك التزل الذي رأينا ليس دي اليكس جاسوسة الملكة
كاثري مقبلة فيه .

وقد نظر حين وصوله نظرة سريعة ليري إذا كان يوجد من يقتنيه ، فلم
يجد أحدا ، وأدخل في قفل الباب مفتاحا كان معه فلم يفتح .

فقال في نفسه : يظهر أنها غيرت القفل لحرص من الأغراض ، أو أنها
تخشى وصولي فجاءة إليها .

وعند ذلك فرح باب فلم يجبه أحد ، ولكنه رأى ان نور الصباح قد
انطلق ، فقال في نفسه : إنهم يجردون ، ولا شك أنها في التزل ، ولكن لا بد
أن يفتشوا .

ثم طرق الباب أيضا بعنف ، وبعد هنيهة سمع امرأة من وراء الباب
تقول : من الطارق ؟

فعرف هنري صاحبة الصوت وقال لها : إفتحي يا لورا

فتفتحت لورا الباب وهي تقول : أهذا أنت يا مولاي .

- نعم ، وأي شيء أذهلك من حضورى .

- أذهشتني اني منذ عام لم أرك .

- الأجل هذا الغياب تقابليني بهذا البرود ، أم ساءت لي آت
لشاعدة اليس .

- إنها ليست في باريس .

- كيف ذلك أيتها العزيزة ، ولم يكن حديث شناس أمس في اللوفر إلا
بموتها .

- هو ذلك ، ولكنها سافرت .

- إذا سأقم عندك في انتظارها ولو اضطرتت أن أقم عاما .

فأجابه عند ذلك صوت من الداخل يقول : تفضل يا سيدي المارشال

بالدخول .

وكان هذا الصوت صوت ليس .

فدخل هنري وقد عرف صوت ليس .

فاستقبلت ليس وقالت له بعد أن تركتها لورا .

- تفضل يا سيدي المارشال وقل ما تريد قوله فإني قد تدخل إلى منزلي عنوة
وتكفني بلهجة التهكم ، وتريد أن تشعلن مستولي ، وكل ذلك لأنى كنت
خيلتك . . تفضل يا سيدي وقل ما تشاء فاني مصفيا إليك .

وكان وجهها مصفرا وصوتها يضطرب تدل تيراته عن الحزن ، ورفع هنري
صوته وقال لها : أول ما أبدأ به يا سيدي انى أمالك الصقح عن المساعي
بالدخول إلى منزلك فاني أخشى أن أكون قد أوت غضبك ، وأنا أقدم
لأنتمس منك مساعدتي في شأن خاص .

- قل يا سيدي فاني غير مفضية عليك .

وقد قالت له هذا القول بلهجة رضى صادقة .

فلما حين عفت انه لا يزورها زيارة عاشق ، وأنه قادم إليها في شأن
خاص لم تعد تكثرت لقدمه .

أما هنري فإنه نظر إلى العرفة التي كان فيها نظرة الفاحص وقال : لم
يشعر شيء في هذه العرفة ما خلا أمرين .
- ما هما يا سيدي ؟

- أولها أنت ، فقد زاد جمالك ونأى حتى بات يبهر الأبصار ، لا تخافي
فاني لا أطارسك القرام ، ولكنى أثبت ما رأيت
والثاني ؟

فاجبتم هنري وقال : هذا السكان ، فقد كان فيه صورة من قبيل لم
أرعا الآن .

- إنها صورتك يا سيدي المرنان ، وأخبرك عن السبب في إخراجها من
الفرقة ، وعن السبب في فأخرها عن فتح الساب ، ولذا سأنتك عن السبب
في زيارتك ، ولذا أخيراً سأنتك ان نفسني اني في هذا الوجود ، وان هذا
القول موجود ..

كل ذلك يا سيدي افصح عنه بكلمة ، وهي اني عاشقة
- لقد استبدتني بسواي كما يظهر وجهتي سعيداً ، وذلك لأن ما اقيت
اسألك المساعدة فيه يقتضي ان يكون بيننا هذا القرائ .

فانظرت اليه ليس نظرة المتداول فقال لها :
- اني موضح لك يا سيدي ، ما قد تحسبته من باب الأفتاز بدليل ما أراه
من انفعالك

وفي تلك اللحظة اصغرت ليس فجأة فأسرعت إلى هدي فأحدث بيده
وأدخلته إلى غرفة واقفلتها .

وقد دخلت عند ذلك أيضاً ثورا فقالت لها ليس :
- اسكتي فقد سمعت .

وكان ذلك اها سمعت صوت وقع أقدام عند الباب الخارجي ، ثم سمعت
صوت مفتاح في قفل ذلك الباب ، وعلمت ان هذا الاقدام كان خطيبها الكولت
دي ماريلياك .

أما الكولت فانه أسرع إلى دخول المنزل والولوج إلى الفرقة التي كانت
فيها ليس ، فرأها جالسة على كرسي وهي شديدة الاضطراب

فراعه اضطرابها وقال لها : ما بالك يا ليس مضطربة مصفرة ، لعلك
مريضة ؟

أجابت : كلا ، ولكني سمعت صوت خطواتك فأترني الفرح بقدمك
هذا لتأثير .

ورقفت دودات باعناً مملحاً ، فانه كان يزورها كل يوم جمعة ، ولكنه

زارها هذه المرة ليلة الخميس
وكانت ليس وراقبه ، وتقرأ ما كان يجول في نفسه ، وخشيت ان يدخلها
الربب فيها وقالت له وهي تنقسم :

- ما هذا الضعف الذي تولاني ؟
أبوز بي الفرح لقدومك في غير اليوم المعين لهذا التأثير ؟ ولكنك لا
تستطيع انكار لذة هذه التقاءها أياها الحبيب ، وليس لي سواك في هذا الوجود
ولا افكر إلا بك ولا لذة لي إلا بروياك .

فضمها دودات إلى صدره وقبل جبينها وهو يقول :
- وأنا أيضاً أيتها الحبيبة ، ليس لي سواك في هذا العالم . وأنا أيضاً حين
أدبر من هذا المنزل المبارك ، أشعر أن قلبي ينبض حتى يكاد يخرج من
صدرى .

فأطلعت ليس وقالت في نفسها : لا بد اذاً للارشال ان ينتظرنى ، ولا
أباني فانه لا يستطيع أن يرى دودات .

وعاد دودات إلى الحديث فقال على اني سأنتك المعذرة لقدومي في غير
اليوم المعين للزيارة .

- كيف سأنتي المعذرة اها الحبيب ، وقد جعلتني بهذه الزيارة من
أبعد الناس .

- أة السعيد بها أيتها الحبيبة ، ولكنها معادة لا تطول وأسفاه : فاني
لا استطيع غداً أن احرف معك تلك الساعات التي قر بنا عن الثواني .

- كيف ذلك ، ألا تحضر غداً حسب العادة .

- كلا يا ليس ، واسفي اني فاني سأحضر اليوم مجتمعاً بحيث يمنع فيه فريق
من كبار القوم المناوئة في أمور خطيرة ... ولكنني ، لا أحب ان استعم
ذلك شيئاً

وعلمت ليس لغورها انه سيشظم عن أمور سيامية ، وادركت ان هنرى
الهنشىء في الفرقة الجواررة ، لا بد أن يسمع الحديث ، ولكن كيف تستطيع
منع خطيبها عن الكلام .

ومضى ديوذات في حديثه فقال :

- وكيف اكرم عنك ايها الحبيب اسرار قلبي وانت مقبلة في ذلك القلب
فاعلمي اذا أنت في هذه الليلة .

فقاطعت ليس قائلة :

- ايه فائدة ايها الحبيب عن الاباحة في بأسرار .. كلا اني لا اريد ان
اسمع منك غير اسرار خرامك .

فايقم ديوذات وقال :

- انت تتركيني في حياتي يا ليس فأنا احبك بالقلب والعضل وبكل
الجوارح فلا بد لك ان تعرفي من امرى كل ما اعرفه .

- اتخض صوتك ايها الحبيب .. الوصل اليك ان تخفض صوتك .

لورا .. لورا .. فان عمي يا ديوذات كجميع امثالها من المعسائر كثيرة
الفضول والكلام .

فضحك ديوذات وقال ، لقد اجبت يا ليس قائلي لم اظن لها .

وعند ذلك فتح الباب ، ودخلت لورا فقالت لها : ايني مضطرة إلى
التعب هنيئة عن التزل يا ليس ، وقد اغتصمت فرصة وجوه الكونث عندك
كي لا ادعك وحدك .

فكادت ليس تصيح صيحة بأس ، فان هذه المعجوز ذكرت جلياً لفظلة
الكونث ، وقررت ذلك فإلها التحدث وجودها في التزل حجة كي تمنع ديوذات
عن الأباحة بأسرارها فيسمعها هنرى .

وقد ظهر عليها الرعب فقالت للمعجوز بلهجة المدعج : كلا لا ذهبي وايقي
في هذه العرفة .

فقال لها ديوذات ألا تتعنين يا ليس ؟ ..

ومارت ليس في أمرها ، ولم تجد مخرجاً من هذا التوقف المرحج . فظنرت
إلى لورا وقالت لها : ذهبي يا عمي ، ولكن لا تطيبي القباب

فقال لورا : ايني أذهب آمنة مطمئنة ، وما زال الكونث مملك فلا اخاف
عليك متكرهاً

وبعد هنيئة سمع ديوذات صوت اقفال الباب الخارجى ، فظنر إلى ليس
تظرة حنو وقال لها : هوذا قد بتنا وحدنا الآن يا ليس ، ولم يبق خوف من أن
ايوح لك بأسراري .

فيلع قلب ليس خوفاً ، وخشيت أن يتدفع بالكلام ، فاجلخت بيد ديوذات
وقالت له : هم ايها الحبيب نقي في الشرفة فان الهواء عليل .

- بل نقي هنا يا ليس ، فلم يبق لي غير بضع دقائق ثم اتصرف ، فان
ملك الناقار وكوليبي والبريس دي كوندوبه ينتظرونى وهم مجتمعون في
شارع بيتري .

فقال في نفسها . ويلاه لاه باح سره .

ومضى ديوذات في حديثه فقال : واننا ننتظر أيضاً للارتثال فرنسوا
هي مونوردانسي .

فارتعشت ليس ارتعاشاً ظاهراً لولا انهاك ديوذات فيه ، لسمع حركا في
الشرفة الجواررة .

ولكنه شغل باليس لئلا لها ماذا اصابك يا ليس ؟ وما هذا
الاصرار ؟

- لا ادري ايها الحبيب ، ولكني اشعر بأني متعرفة الصحة .

- لا يا من يا ملاكي المحبوب فمأجعتك من اسعد النساء .

- نعم نعم لتتكلم عن المستقبل .

- يجب ان افارقك يا ليس ، فانك تملين من ينتظرنى ، وسيكون

اجتماعنا اليوم لشأن خطير جداً إذا لمحضنا فيه ، بطقت ذلك الحروب وتصعبون
لمرأتي فلا تفرق لحظة .

ليس ، اتنا عازمون على اختلاف شارل التاسع والزاعم بقول شروطنا .
فصاحت ليس عند ذلك صبيحة اشبهت الأنين ، وأسرعت إلى الباب وهي
تقول : اسكت فان همي انت واظنهم لم تنعب
وفتحت الباب فظهرت لورا ودخلت إلى الغرفة .

فقال يودات كأنه يتم حديثه مع ليس : إذا لا تجتمع غداً حسب العادة ،
فقد طفت ليس إني مضطر إلى السفر .

— إنعب يا سيدي الكونت ولبحرك الله .

فلعب الكونت وخرجت ليس لوداهه إلى الباب الخارجي حسب العادة
ورقيت لورا في المنزل .

فتبادل العاشقان عند ذلك الباب قلبي حرام

وقالت ليس لطيفياً : ان السبب في مسأ رأيتك من اضطرالي اليه لم يكن
لاخراف صحي كما قلت لك ، بل لأنني لم منذ اسبوع أحلاماً هائلة ، أصبحت
بهدا على ما يراي من الأندلس .

— إنها أضغاث أحلام أيتها الحبيبة لا يكثر هذا الملقون .

— فتظرت اليه نظرات ثلثت فيها كل نفسها وقالت له : الصبي
يا يودات ؟

— كيف تسأليني هذا السؤال أيتها الحبيبة .

— إذا فأعلم انه إذا كان قلبك وحياتك في حقيقة فإني أؤسرك ليلتك
ان تحذر لتفصك يا يودات في كل حين ، ولا سيما في هذه الأيام فاحذر
كل انسان ولو كان أبوك ملك لقلت لك أحذره ، بل أقول لك
احذرنى الا خطيبتك .

فمن يعلم فقد ابوح بأسرارك والبالغة لا ادري ما أقول . . .

اقسم لي يا يودات انك ستحذر كل الحذر فتتخص المساء قبل شربه ،
والطعام قبل أكله ، وتنتظر إلى ما وراء الجدران قبل أن تتكلم . اخطف .

— إني اقسم لك يا ليس ان احذر كل الحذر ، ولكنك تحببيني بما تقولين
فهل عرفت شيئاً تكتمينه عني ؟

— كلا . كلا ، ولكن قلبي يرحي إلى هذه الحوافر ، ولم يخطئ ، حديث
قلبي إلى الآن . . .

يودات انك قسمت لي فلا تحتج بيديك ، واحذر لتفصك كأنك عاظم
باله الأعداء .

— سيكون ما يريدن أيتها الحبيبة فاطماني ولا تحزني فان هناكما قريب
بذن الله .

ثم عانقها مودعاً وانصرف .

فبقيت ليس واقفة تشبه بالنظر حتى توارى .

• • •

وقد كان موقفها هائلاً ، فانها ثلثت حبيبها بين أيدي الجنود يدفعونه
إلى يد الجلاد .

وذلك لأنها كانت والثقة ان هنري دي مونغورانسى قد سمع كل الحديث فهو
يعلم ان الكونت دي ماريلياك يأتمر على ملك فرنسا مع ملك النافار ولورنس

كونديه وكوليني وفرانسوا دي مونغورانسى .

ولما كان هنري اتصال بالبرق دي كيز ، فقد بات من فائده الوشاية
بالموكبتوت .

فلوئ ذلك فان هذا الرجل يكره أخاه كرها عظيماً ، فله خطر له
كثبان مؤامرة الموكبتوت فهو لا يكتفم مؤامرة أخيه ، فان ليس كانت

عارفة بعداء الأخوين ، كما إنها كانت عارفة بما كان من الصلات بين هنري وبين
الدوق دي كيز .

وقد قالت في نفسها :

ان هنري حين يخرج من هنا يذهب أولاً إلى الملك ، فيبشي بأخيه وببقية
المؤثرين .

وسيد اسم يودات بين اسماهم ، فلا يبشي بعد ذلك غير القتل .

وقد تجسم المظفر لما حق قتلت حبيبها بين برائن الموت ، ورأت ان لا
نجاة له إلا بكتيانه هذه الواسرة .

وهي لا تتكلم إلا بكتيانه الفاس الراشي ، فتسكن منها اليأس وعزمت
عزماً أكيداً على قتل هنري اتفاقاً لحبيبها من القتل .

ولما عزمت هذا العزم عادت الى القزل فدخلت إلى الغرفة التي كان فيها
يودات ، فأخذت شجراً دقيق النصل فسكت قبضته بيديها وجعلت تضل
داخل كنها بحيث لا يرى .

ثم قصت باب الغرفة التي كان فيها هنري ، ودخلت إليها غير حياء وهي
تتمتع انه سينكر ما سمعه كل الانكار .

ولكن فراستها اخطأت ، فانها حين دخلت استقبلها هنري قائلاً :
الخير يا سيدتي إلى سمعت كل مسا دار بيتكما من الحديث وعرفت
على شيء .

فوقفت ليس بجمدة حائرة لانها لم تكن تتوقع هذه المباينة بالتصريح ،
وذعرت فحركت يدها حركة ظهر منها الخجل الهبوب في كنها .

فدنا منها هنري خطوة وقال لها بل ، المكينة .

ثم أخبرك يا سيدتي اني متدرب بمرح من الزود فبلا يصل خضجرك إلى
صدرى ، ولا فائدة لك من محاولة قتلي .

فرجعت ليس إلى الباب فالفطنه واستندت إلى ذلك الباب وقالت :

يدوسني انك عرفت قضتي لأن ذلك يدعونا إلى مراك عفيف قد يكون
التأدية فيه ، ولكنني مضطرة إلى قتلك ، على اني اؤثر ان تقتلني على ان
ادعك تخرج من هنا حياً .

وعند ذلك أشهرت خنجرها فظهر إليها هنري في البدء نظر العجاب ، ثم
رأى ان من الحكمة ان يمتاط لنفسه ، فترابع مسرعاً ووقف وراء مائدة
كانت في وسط الغرفة بحيث يمت تلك المائدة حائلاً بينها .

ولما أمن على نفسه من هجومها قال لها بلهجة النضوح : ان نتيجة هذه
العراك بيني وبينك لا تحتل الشك يا ليس .

- وأما لا أشك بها فافتني أو أقتلك إذ لا يسد أن يقتل أحدهما في
هذه الغرفة .

-- كلا .. فلا اقتلك ولا تقتليني ، فإني لو أردت الخروج من هذه
الغرفة ، لقيضت على يدك ووزعت منها الخنجر وخرجت ، دون ان
أصيبك بضرر ...

وفي كل حال فلا تطعمني ان اقتلك .

فارتعشت ليس لوقوفها من ان الارشال قد عرف بأمرها .

وعاد هنري إلى الحديث بعد صمت قصير فقال :

غير انك إذا أكرهتني على استعمال العنف فان لي الحق بعصه خروجي من
هذه الغرفة ان استفيد من تلك الأضرار التي سببتها .

فاهزت عينها ليس من القهر ، وأنت أين الموضع دون ان تجيب .

فقال لها هنري :

وأما إذا أمكن اتفاقنا فلي في أنسى كل ما سمعت ، والي اتعهد لك
بذلك ، فففي في ممالك دون أن تتقدمي ، وأما أليس في ملائي دون أن
أقدم ، ثم تتخاير إلى أن تلتقي .

وقد قلت لك يا ليس إلى اتعهد ببنيان مسا سمعت إذا اتفقتا قبل

فاجابته بصوت يتهدج من اليأس : إني لا اتق بكلامك ولو بسيط إليك
وحياً من لسانه .

فصفر وجه هنري وقد داخل قلبه شيء من الرعب أمام هذه المرأة التي
تأبى إلا ان تقتل أو توت .

ولكنه تنهد تنهداً طويلاً وقال لها : وإذا أعطيتك رهينة على تمهدي ،
رهينة حية يا اليس اتقبلين ؟

أسفني إني ولتبايحت مباحة صديقين ، فقد اتيتك مائماً مساعدتك في
شأن خاص ، وسأوضح لك كل ما يحول في خاطري ، ولكنتك تصفين إني ،
ليس كذلك ؟

نعم إني أقرأ رضاك في عينيك إذن فاعطيني .

إني أراك قاطعة قنوط غرام ، فقد عرفتك بعد طول مسامتة حق
المرغان ، فما رأيتك مرة مندفة في مجال المعاطف هذا الاندفاع
قبل الآن .

وفي ذلك أعظم شامس على أنك تحبين حياً صادقاً ، ليس وراءه
غاية مستترية .

التحسين يا اليس إني أريد الاستفادة بما سمعت ؟

أنت لا تريدين انقاذ ملكة النظار ، ولا كوليفي ولا البرنس دي كوتيه
ولا .. أخي ، ولكنتك تريدين انقاذ الكونت دي ماريلياك .

إني لا أعرف هذا الرجل ، ولم أعرف منه إلا أنك تحبينه أصغر
من حياتك ، وقد بينت بجيانتك وان كل جوارحك قد استعالت في هواء
إلى غرام قتال .

وكانت ليس تنظر إليه وهو يتكلم نظرات وحشية وراقبه كي لا تبدر منه
بادرة أو يحاول الفرار .

أما هنري فإنه صحت عينيه ، راجعاً ان تحببه ، ولكنته رأها ساكنة
فانثفت حديثه وقال :

ليس أرى انه لابد من ان تحبيني ، فهل أخضعت فيها قلبه أو أنك
تحبين على ما وصفت .

قلت نعم إني أحب وأحب هذه الرجل الذي ذكرته ، وقد رأيت في
هواء كما وصفت ، فلم يبق لي غير القتل أو الموت .
فقال لها هنري :

أرى ان اتفاقنا بات قريباً ، فهل لك يا اليس ان تطردني حينها عسفاً
اليأس وتنطري نظرة ثمة إن هذا الرجل الواقف أمامك .

الييس ، أريد ان تعلمي كيف اني صيرت هذا الصبر وأنا الجندي الذي
لا يعرف ان يصبر ، بل أنا الرئيس الذي تعود أن يرى بواحد الرجال وتلجف
أمام ارادته ؟

أريد ان تعلمي لماذا احتجت إلى اقتناعك بالطف والملاينة على اشتهازي
بالترق والحدة ، وعلى اني لم اتدفعت مع طبايعي لافيتك من هذه المناقشة ؟ .

واشيراً الزيدين أن تعلمي يا اليس لماذا أنا أحتاج إليك ، وكيف عرفت
بأهلك وغرامك ؟ .

فانثفت عينها اليس يبارق ، ولعله كان يبارق الرجاء .

فرأى هنري انقاد عينها وقال لها :

أرى ان كلامي بدأ يؤثر عليك ، وسيكون تأثيره أشد متى أوضحت لك
الأسئلة المتقدمة .

ان ذلك ينطعم قلبي ، ولكني لا أجد بدأ من قوله ليس لاقتناعك يا اليس
لأنه لا خوف على حبيبك مني ، بل لأقل مساعدتك اني لا بد لي منها ، وما
أنا شارح لك اسئلتني فأقول :

إني لم أصبر ذلك الصبر الذي لم أتعوده ولم أقوم معنى غرامك على مسا

عرفت به من استنار الغرام إلا أنني أحب كما تحبني يا ليس
إن حسي يعمال حبك شدة ويزيده بأساً ، فإن الرجل الذي تحبته يجيبك
ولكن المرأة التي أحبها تكرمني وتحتفني .

انت تحزين عن حب مجب ، وأنا أجزى عن الحب بالاحتقار .
وهنا توقف هنري من الكلام ، وقد اضطرب اضطراباً شديداً إلى
ليس حتى إذا أرغبت قراءتها وسقط الحتجر من بعدها على الأرض .
ولو كان هنري أراد خداع هذه الفتاة بتمثيل يأسه إلى حد حل تلك
الفتاة على الاشفاق عليه ، وهي كانت تريد قلبه لا يتسم اليأس المنتصر وكان
فوزه عظيماً .

ولكنه لم يكن مثل ثعلب ، بل كان صادقاً في كل ما قاله ، وكانت
علامته الصدق بديهياً بين عبيده ، وهي التي جردت ليس من سلاحها ، فإنا حين
وثقت من صدق غرام هذا الرجل أيقنت من إمكان الاتفاق معه ، لاتفاق
القلبين واليأس والغرام .

وهذه تلك دنت منه ومدت له بعدها ، فصاح هنري تلك اليد وبجال
الدمع في عينيه ، فبكى وبكت لكلك فكان كلاماً ضحياً غرام .

فأثقت له ليس :

اجلس يا صدي المرشال وثق أن سر غرامك لا يخرج من فمي ، وأني
أعلم في صدري ما حبيت .

فشكرها هنري وبعد هنيهة عاد إلى الحديث فقال :

- اني لو لم أعرف سررك ، ولو لم أرك مصممة على الموت أو على القتل لما
أشبهتك بحرف عن غرامي الذي يكاد يتعجب بصدري .
وقد اتفق الآن ان الهمة التي أرجوك قضاءها ستكون هامة لك كان
سررك سيكون هامة لي وأنا موضح لك ذلك قاصحني .

- إنك إمراة ذكية الفواد لا يجد العاقل بأساً من أن يخبرك بكل امره .

وأنت كنت عشيقاً لك يا ليس ولكذلك كنت تملين اني لا احبك فلا احلم
حبيب الذي دعاك إلى القبول في .

أما طابقي في ذلك العهد فلم تكن إلا قتلتي بك عن ذلك الغرام القاتل
الذي يقطع قلبي منذ سنة عشر عاماً .

عزراً يا ليس واعتبرني هذه القهجة المسجبة التي أكفك بها . فاني لا أجد
بداً من الجلاء .

وأظهرت ليس إشارة دلت على عسدم الاكتراث ، ومضى هنري في
حديثه فقال :

- واحمي الآن يا ليس ما حدث ، فاني قبضت على هذه المرأة التي أحبها
وهي الآن أسيرة في قصري مع ابنتها .

ولكنه ، يجب ان نضع هذه المرأة خارج منزلي نسويها على الأقل ،
على أن أكون والثقة من انها لا تستطيع الفرار مني وألا أسألك
مساعدتي الآن

فأثقت له ليس - وماذا تريد مني ؟ الملك يريد أن تجعلني حارسة عليها ؟
- نعم . .

فأظفرت اليه ليس نظرة منكورة وقد أهدت من قلبها آثار تلك الشفقة
على هنري . .

ورأى هنري ما بدا من نظراتها ، فعلم ما يجوز في نفسها وقال لها : اني لو
لم أتف على سررك يا ليس لسألك هذه المساعدة دون ان اخبرك الحقيقة ،
وكنت لفتت حديثاً بقتلك .

ولكني رأيت بعد الوقوف على سررك ، ان لا فائدة من اللوابة ، وانت
سراً بسر ، فأنت تساعدني في غرامي وأنا اساعدك في غرامك ، وانت
تبعين المرأة التي أحبها عندك ، فتحفظين حبيبتي وأنا اكنم سر تلك المؤامرة
فأصون حبيبك .

وانت تري اني اعطيك على تعهدي رهينة حياة كما تقدم لي قوله ، فاذا
خنتك ووشيت بداشتوك تنتقمين مني اقطع انتقامي ولعمري اني رحيل في
المللكة ، وذلك بأن تقولي لأخي فرنسوا مونورانسي ، ان حسنة دي
بيانس مقيمة عندك وانها بريئة من التهمة التي اتهمها بها اخوك ، وانها لا
تزال تحبك .

وقد قال هذا القول بلهجة الوت لأثراً عظيماً على ليس وعرفت تلك
التكزية المثلثة التي اصببت بها امرأة مونورانسي وبعثت رعباً شديداً حين
الفتكرت انها ستمثل في هذه الفاجعة هذا الدور المكروه .
وقال لها هنري اراك تعجبين كيف اتى اصببت امرأة اتى ، وصحيف
تتحدث من التعريف بينها وبين زوجها ، وكيف اني لا ازال مولماً بها بعد
هذا القرائ الطويل .

لا تعجب يا ليس فاني انا نفسي اعجب لهذا الاتفاق ، ولكنه حدث ولم
يتق سبيل الى الرجوع .

والآن فهذا ما أطالبه اليك ، وهو ان تحفظني عندك حسنة دي بيانس
بأمانة فتكونين الممارسة عليها السؤورة عنها ، وإلا ..

- وإلا ماذا تفعل ؟
- وإلا خرجت من هنا وتبعيت تراً إلى الملك ووشيت ببارلياك فيحسبك
عليه بالشتق .

وعلى ذلك فان كلا منا متعلق بالأخر فأنا اعطيك من احب رهينة على
تعهدي . وتكون حياة من تحيين بيدي رهينة على وفائك .

فتعني في الأمر ووازي بين حبيك لبارلياك ، وبين هذا العمل الشاق
الذي سأعهد به اليك ، فإذا رفضت اقتراحي كان رفضك دليلاً على انك
لا تحيينه .

- اذا لا احب ؟ اني احرق باريس من اجله .

- انا ستقبلين .. دعي خبرك فلا فائدة منه وإنما كنت لا تتسقين
فانظري ..

ثم قانح لوجه فانكشف عن درع من الزرد الضيق الخالي يبلغ الى عنقه .

فوفقت ليس ثمض يدها حسرة وتقول - سأنزل من اجلك إلى بيوتات إلى
اتر دركات العار ، ولم يبق بعد عار الجاسوسية خير هذا العار .

فانضى هنري لاحترام لا يبينه امام الملك وقال لها غداً سأحضر في الليل
فانتمدي لاستقبال الأسيرتين

ثم ركبا وانصرف فوفقت تلك التكدوة حائرة مضطربة تفضل الموت
على ما هي فيه وجهات تبكي وتقول رفاه من يتقندي من هذا العار .

فأجابها صوت قاتلاً بلهجة خطيرة : اذا !
فالتفتت ليس وراجمت متدهرة لقول من هذا .. الراهب .

رفد كان هذا الراهب الركيذ مانينكارولا ، اول عشاق ليس ، فإنه كان
مخنياً وراء الباب الذي خرج منه هنري دي مونورانسي .

الاب والابن

في نفس تلك الساعة التي خرج فيها هنري ، من منزل ابليس ، عاكفاً
الى قصره ، ابي عند الساعة التاسعة مساءً ، كان رجل يسير مسرعاً في شارع
سانت دينيس .

وكانت المازن تقفل في ذلك العهد عند الغروب ، فإذا غابت الشمس
أطلقت الطرقات إذ لا يضمنون نوراً فيها .

وفيما كان هذا الرجل سالماً ارتطم رجل آخر كان يمر في نفس الشارع
فتشم بعض الشئام وواصل سيره لأنه كان مسرعاً .

حتى إذا وصل إلى فندق دينير وقف عند بابه يتسائل ذلك الفندق
تأمل العاشق .

ثم هز رأسه وواصل سيره وهو يقول : يجب ان اتج مناهج الحكمة فان
الوقت فسيح لدي وسأراه .

واستمر في سيره حتى وصل الى قصر هنري دي مونغورانسى ، فطرق
بأبه افصح ، ففتح رجاج ذلك الباب وظهر منه رأس رجل فقال للطائر
من انت ؟

- قل سيدى المارشال ان الرجل الذى التقى به في فندق وندكويه قد
الى رانه يطلب مقابلاته .

ففتح الباب في الحال واذن للطائر بالدخول .

وكانت بيوت كبار قبلاة في ذلك العهد مثل مونغورانسى وكيز ، تشيه
الدفور ، فقد كان مثل المارشال دي مونغورانسى بلاط كيبلاط الدفور ، وله
مديسة من الأشراف وحراس وضباط ، فهو ملك في قصره كما كان شارل
التاسع ملكاً في الدفور .

واستمرت هذه العادات إلى عصر لويس الثالث عشر ، حين أبطلها
الكردينال ريشليه ، ذلك السياسي العظيم ، فدك عروش اولئك الملوك وقتل
سلطة النبلاء ، فها ورث لويس الرابع عشر الملك عن ابيه ورث ملكاً مستقلاً
وسلطاً مطلقة بفضل ذلك الوزير الكبير .

فها دخل الطائر إلى عند القصر استقبله ضابط وقال له : أنت قائم
من وندكويه ؟

- نعم ..

- إذن انت بارداليان .

- بل لي الشرف ان ادعى لقباً لبيده دي بارداليان ... وأنت
من تكون ؟

- إذا كان سادك ، انى لم ادعك بألفابك ، فاني مستعد لتسيان
اسمك ..

- وألا يصرنى انى لم اعرف اسمك فلا احتاج إلى تسيانك .

- بل تعفه ولا تلساه ، فاني ادعى اورتيس ، وانا الليكونت اميرمون
للتعد لحديثك ، فنى تشاه ان يكون المقام ؟

- اود ان يكون الآن ، فلا احب إلى من الاسراع في الأعمال .

وكان ضابط يسمع حديثها قرأى انها سينتازان . وقد اخل بينهما .

فقط اورتيس لم بارداليان وقال له : سالتني يا مسيو بارداليان وكنت
اودعاً تود من سرعة هذا اللقاء ، ولكن المارشال لا يسمح بالبارزة في

تصيرها ، فانتظر كما أنتظر وافضل الآن بالدفور ، فقد عهد إلي ان أوصفك إلى
الفرقة الخاصة بك .

فالتفتي إمامه بالردليان وقال : لي الشرف في ذلك .

ثم تبعد وسار به اورتييس إلى عرفة عالية ودخل به إليها وقال له : أريد
ان تتمشي ؟

- أشكرك لقد تشييت حين وصولي إلى باريس .

- إذ أم يبق علي غير الدعاء لك بأن تمام يوماً سعيداً .

- أشكرك أيضاً لهذا الدعاء لأنني في أشد الاحتياج إلى النوم ولكن قل
لي : ليس انذارك موجوداً في القصر .

- كلا ولكن كان يلتفرك وهو يرسو ان تحضر اليوم أو غداً وفق بيانه
تجربة بقدومك .

وعندما حياه اورتييس والتصرف - ولا يخرج من الفرقة افضل بابها من
المخرج بالفتح .

ومع ارداليان صرير المفاتيح ، فارتمش وقال : لماذا اقول لك ؟ ..
الذي سيجي ؟

فأسرع إلى الباب ووجد انه مقفل لا يمكن فتحه ، ونهب إلى النافذة
وفتحها فقرأى انها عالية علواً شاهقاً عن الأرض بحيث لا يمكن الوثوب منها ،
وما الحرب من الموت بها إلا إلى الموت .

وعلى الحدة فقد وجد انه لا سبيل له إلى الخروج من هذه الغرفة التي كانت
يوجد فيها سجيناً ، فرس قسمته على السرير مفضياً وقال :

- لقد خدعت الخداع الشبهاء ، ولم يكن صبير هنري مونجوراني في
ذلك القندق وملاحظته لي ، وإحسانه إلي ، غير خدعة كادها لي لتوصل

إلى سجنتي

وقد خافني هناك ، ففتنت له الحوف هذه الحيلة ، وتظاهر بنسيان

إسماقي فيه .

نعم لقد فهمت كل شيء ، والآن أريدك بزيادة هذا الضابط وعمدونه علي
لأن هنري حاقق علي ولم يستطع الانتقام مني في القندق ، فأراد الانتقام
واسطة التبايع .

هذا أول ما خطر لباردليان حين رأى نفسه سجيناً ، ولكنه خطر له
خاطر بعد التبعين ارجعه عن هذا الاعتقاد .

وهو ان هنري اخبره جلياً انه يأقر على ذلك ، فقال في نفسه :
إنه سر هائل ... اذا اتصل باللك قطع رأس ذلك اللرشال ، معها ارتفع
ذلك الرأس .

فقبل كان هنري صادقاً فيما قاله ، او انه اختلق حديث هذه المؤامرة كي
يحملي على الوثوق به والركون إليه .

ولكنني لا اطنه بتجاسر علي مثل هذا الأختلاق الخطر ، اما الاغصان اسير
في الخالق واشد ما عاني من هذا الأسر التي اكاد اسقط من التماس ولا استطيع
الرقاد حذراً من ان الأخذ غيبة حين رقادي

فجعل عندنا بسر في الغرفة مسرعاً كي يداوم التماس وكل ما وصل إلى
السرير تنهد تنهد الحزين .

رأيت على ذلك ساعة ، حتى لم بعد يستطيع فتح عيني ، فجعل يواصل اسير
وهو مغمض العينين إلى ان انهك التماس قواه ولم يطق الصبر عليه ، فذهب إلى
السرير وجرد حسامه الطويل ، وانطرح فوق السرير بشيابه وقبضة حسامه
بيده ، وقد تنهد تنهد الراجعة وقال :

- لا بد لي من النوم لأن الموت تعاساً والموت بطعنة خنجر واحد ، ثم ان
الموت والنوم مثلشاهيان فلأم ولبيض الله ما يريد .

ويعد هدنياً خلاصت قطيعة حتى كاد يطبق اركان الغرفة .
وكان السبب في عدم تمكنه من الصبر على فرط اضطرابه الى الخدرااته

قطع في ذلك اليوم عشرين مرحلة كي يصل الى قصر مونغورانسى في الوقت المعين
 فأبكته التعب .
 وفي الصباح صعدا من رفاده فرأى ان اشعة الشمس قد ملأت الكون فكان
 اول ما قاله ، ابنى لم اعد بعد بحمد الله .
 وعندها مع صبر مفتاح في قفل الباب ، قويت من سريره وفتح الباب
 فدخل منه هنرى دى مونغورانسى .
 وكان اصفر الوجه تبدو عليه علامات التعب مما يدل على انه قضى ليلة كانت
 شراً من ليلة اسيرة .
 فدنا من بارداليان وقال له : يسنرى يا بارداليان ، ان اراك حريصاً
 على الواعيد .
 فأجابته بارداليان : وانا بسوءنى يا مولاي ، انى اتيت وحرصت
 على الموعد .
 - والذا ؟ انهم سينوك في هذه الفرقة ؟ ان الذى امرتهم ان يفعلوا ما
 فعلوه واسألك المذرة عن ذلك ، لقد اضطرت اليه من قبيل الحرس لثوبى
 ان ترى في هذا القصر من لا ارد ان رآه ، بل من اخشى اذا رأته ان يرجع
 عما اتفقا عليه .
 - لا اهم شيئاً مما تقوله يا مولاي
 - يجب ان لا تفهم لأن المهم عندي وجودك هنا وانا الآن اريد ان اسألك
 قضاء امرين ايها العزيز .
 فقال بارداليان في نفسه : اراه يا بقى نفس القرب هنا وهناك ، وفيه ما
 يدعو الى الاطمئنان .
 ومضى هنرى في حديثه . فقال :
 - اما الامر الاول فهو رجائي ان تبقى سجيناً في هذه الفرقة اليوم ايضا
 واقسم لك انى لا اريد به الاساءة ، وان مدة امرك تنتهي في الساعة العاشرة

من هذا المساء .

ورأى هنرى ان بارداليان قد تأفف فقال له : تعهد لي ان لا تخرج من هذه
 الفرقة اليوم الى ان ادعوك ، ابنى اكنفى بكلامك .
 - لقد رضيت وانا تعهد لك لأنه خيراً من ان أسجن كالجحيم وقد بقي
 يا سيدي الأمر لثاني ، ما هو ؟
 - هو انه يوجد لدي كتر لا يقدر بثمن ، واني خائف عليه في هذا
 القصر أودتة الى محل امين ، وسأنتقل في الساعة العاشرة من هذه القيلة ، فهل
 أعتمد عليك ؟
 - دون ريب قولي الآن في خدمتك ، وقد وجب علي لقاء الأخطار في
 هذا السبيل فأعتمد على يا سيدي في هذه المهمة وغيرها ، ولكن هل تعتقد انهم
 سيهاجون هذا الكنز في الطريق .
 - هذا الذي أخشاه ، ولا تفتد في إلا بك وبضابط باطل من ضباطي يدعى
 الفيكونت اسبرمونت .
 واسمع الآن ما عزمت عليه ، فإنت المركبة تخرج القصر في الساعة
 العاشرة .
 - أين يكون الكنز فيها ؟
 - نعم ، فان اسبرمونت يتوقدها ، وانا أكون في مقدمتها فوق جواي ،
 وأنت تسير في مؤخرتها ماشياً ، تحمل سيفاً في إحدى يديك وقدرته
 في اليد الأخرى ، فتنقل دون إلتفاتك ، كل من يحسر على البتو من
 المرحضة .
 وعليه لا يعرف احد ذلك المنزل الذي اودع فيه كنزي ، إلا الأ والت
 واسبرمونت .

- أسع لي يا سيدي ان اسألك سؤالاً وهو هل لهذه المهمة علاقة بما تباستنا
 في القندق ، وبسبارة أرواح هل يتنوي هذا الكنز على متناديق من القصة

والذهب أم على جسم من لحم ودم .

فأصفر وجه هنري ونظر إلى إردالياق نظر الفاحص وقال له : ماذا تعني
الملك قهمت المصود .

- كلا يا سيدي لم أفهم شيئاً .

ثم خفض صوته وقال : ولكني خشيت ان يكون هذا الكنز هو التاج وفي
مثل هذه الحالة يجب الحزم الشديد .

فأشرفت أميرة هنري بتسور للبشر ، وقال في نفسه : يجب اننا
نختطف الملك .

ثم نظر إلى إردالياق وقال له : لا استطيع ان أفوك لك إذا كنت محطاً او
مصيباً في ذلك ، ولكن يجب ان تمنح كما لو كنت مصيباً وتحرس المرصبة
كأنك تحرس التاج .

فقال إردالياق في نفسه : إنهم اختطفوا الملك لا بحالة ، فإذا كان ذلك
أكيداً في هذه السكينة السائدة في باريس .

ثم قال لهنري : إذا لقد امرت بسجنني في هذه الغرفة يا سيدي خوفاً من
ان أرى الكنز الذي في القصر .

هو ذلك .

- إذا سألتني في الغرفة فلا أخرج منها وفي الساعة العاشرة تجيئني متأهباً
لكال ما تريد .

وعندها انصرف هنري وبقي إردالياق وحده ، فجعل يقول في نفسه :

إذا كان لا يريد ان أعرف ذلك الأسير في القصر ، فكيف أخبرني عنه ؟
وإذا كنت قد عرفته الآن ، ففماذا يريد ان أسجن نفسي في الغرفة
طول النهار ؟

كلا ليس الملك الأسير ولكني هل يوجد أسير ؟

لا ريب انهم يكتمون علي امر أي يجب ان أجهل الى المماد ، ولكني أحب

ان أعرفه الآن .

فما أقرني ذلك بدأ يفحص الغرفة ، فوثق انهم لم يفتسلوا إليها ،
ورأى ان هذا الساب يشرف على رواق طويل ، يشبه عند سلم ردهة

القصر .

وعاد إلى غرفته ومشى في الرواق من الجهة المقابلة ، وانتهى منه الى باب
فتدبه ووجدته يشرف على سلم آخر تدور درجاته على محور فقال في نفسه :

إن هذا السلم أقل خطراً من ذلك

وعاد إلى غرفته وهو مسرور بهذا الاكتشاف .

ومضى لتسم الأول من النهار دون ان يحدث حادث . فكان إردالياق
يشي في الغرفة والرواق ثرة يفكر وطوراً يتقي .

إلى ان حان الظهر ، فجاء خادم بطعام شهى ، فجلس يأكل ويشبهه
ان عشرين .

وقد تركه الخادم وانصرف ثم عاد إليه بكيس نقود

فأبتم إردالياق وقال له : ما هذا .

- راتب اول شهر وقد أمرني وكيل مولاي المارشال ان أحضره اليك
فقد خشى ان يكون المال قد فقد منك .

- لقد أصاب حضرة الوكيل ، وانني له من الشاكرين فقل لي أتعمل كم يحتوي
هذا الكيس ؟

- سيالة ريال .

- ولكن راتبى خمسة .

- هو ذلك يا سيدي الضابط ، غير ان الوكيل أضاف إلى الراتب
نفقات السفر .

- أرحس ان تشكروه بالنيابة علي وان تقمح الكيس .

فامثال الخادم وقمحه فأمره ان يأخذ خمسة ريالات وقال له : اشرب هذا

وشكره الخادم وقال له : سأشرب خدأ يا سيدي ، انى ان اتفق منها
آخر فليس .

- لا تبق يا بني إلى الفد ما تقرر أن تفعله اليوم ، وبعد أن تعلم ما يحرم
به الفد .

- لقد أصاب سيدي في حكاية ، ولكني مضطر ان أبقى في خدمته حتى
هذا اليوم .

فقال في نفسه : لا أجد غيراً من شراء هذا الرجل وإخوانه بالمال فإني غني
الآن بفضل الأرشال .

ثم التفت إلى الخادم ، وقال له . خذ أيضاً حبة ريلات من هذا
فكيس .

- لقد اخذت .

- إتعب بها في الحال إلى خاتمة البقرة الحلوب ، أنعمها ؟

- نعم فهي قرب الوفور .

- هو ذلك فانصب في الحماك وادفع لصاحب الخاتمة اثني عشر فرنكاً نبيت
ان ادفعها امس وخذ أنت الباقي .

إتعب الآن وامش الهوياء حين عودتك كي لا استيقظ لأنني تأرقت في
الليلة الماضية .

فلم ينتقل الخادم من مكانه .

فقال له بإرداليان : ما بالك لا تذهب ؟

- أذهب خدأ يا سيدي فاضابط .

- ولكنني تركت جوارى هناك وسأحتاج اليه الليلة .

- يوجد في اصطبل الأرشال كثير من الجياد ، يأخذ منها سيدي
ما يشاء .

فانظر بإرداليان إلى ما جوايه ، بحثاً عن عصا يكسرها على ظهر
ذاك الوقح .

ولكن خطر له خاطر سريع أعاد اليه السكينة في الحال .

فجعل يضعك ضعكاً شديداً ، وصب في كأسه من زجاجة الخمر فشرّب
ثم قال للخادم :

- ماذا تدعى يا بني .

- ودييه خادم سيدي المطيب .

- إذا خذ يا ودييه واشرب هذه الكأس ما زال قد قضى عليك ان
لا تقارني طول النهار .

فبرديه رأسه وقال له بلهجة حزينة : أريد منفي سيدي الوكيل
عن الشراب ، وتوعدني بقطع رأسي إذا قلت كأساً منك ، وربما عاقبتني
عقاباً أشد .

- يسرني ان أراك يا بني مبتلاً مطيعاً لأوامر رؤسائك فأنت متغيب
مباشرة إلى القردوس دون ان تر يظهر .

وعندها نهض بإرداليان وجعل يمشي في العرقة ، بينما كان الخادم
ينظف اللادة .

ثم أسرع إلى الباب منتصباً قرصة انتشاك الخادم بالادة ، وأحكم إقفاله
وعاد إلى ديبية ووضع يده فوق كتفه وقال :

- إذا . . . لقد سمعت على أنت تبغى كل هذا اليوم معي ، فتمتعني
عن الرقاد .

- كلا ، يا سيدي ، يسألني أمرت ان أقم في الزواق ، قرب
باب العرقة .

- وأنا خطر لي ، ان أخرج من هذه العرقة . . . أنتبيني وتلازمي
ملازمة ظلي ؟

- كلا يا سيدي ، ولكنني أذهب في الحال وأخبر الوكيل .
- ويديده . أجا الصديق .. ماذا تقول لو خطر في ان أشتكك
- لا أقول شيئاً يا سيدي الضابط سوى إنني أصرخ واستغيث .
- كلا لا تصرخ فإني لا أدم لك وقتاً للصرخ .

ثم انقض عليه انقضاض العقاب على القريضة فالقاه على الأرض ، ووضع
في فمه منديلاً وجرد خنجره فوضعه على عنقه وهو يقول : احذر انت قفوه
بحرف أو تقدر من المالكين .
فلم يده ذلك الخادم النكود بكلفة ، وجعل ينظر اليه نظرات تشف عن
العرب والتوسل والامتنال

فقال له يارديان حسناً ، اقد رأيت منك مسا يدار على الامتنال ، فاعلم
الآن إنني أزد ان تلبس ملابس ، وأن اليبس ملاسك فإني أحب ان أقبل
سيدك الوكيل بلباس الخدم .
فم واخلع ثيابه واعلم ان خنجري يكون اسبق إلى صدرك من فك إلى
الاستقامة ، فإذا أحببت الحياة فامتنل .

فقام الخادم وهو يرتجف من الرعب ، وجعل يخلع ثيابه مبتذلاً لأمر
يارديان .

وفعل يارديان قهقهة فلم تقضي دقيقة حتى ليس كل منها ملابس الأخر .
وعند ذلك قال له يارديان وهو يده صوته .. والآن تعضل يا سيدي
الضابط واضطجع فوق هذا السرير .

فصعد الخادم إلى السرير واضطجع فأحك يارديان رباط فم كي لا يستطيع
التصباح وقال له : إذا سمعت البواب يفتح تبدأ بالقطيط كي يعلم الداخل انك
تالم فيصرف ، وإذا خالفت أمري قطعت اذنك .
ثم تركه على هذه الحالة وخرج من الغرفة إلى الرواق فذهب إلى السلم ذى
الدرجات المنحدرة .

ولكنه قبل أن يصل اليه رأى رجلاً فتح الباب الكودي إلى السلم ورأى
يارديان بلباس الخدم فلم يعرفه . اهدم نفسه اللور إلى الرواق وقال له وهو
يحب الخادم
ماذا يفعل يارديان الآن ؟

فقد يارديان صوت الخادم وقال له : انه قائم يا سيدي .
- حسناً ، فلا تخرج موقفك هذا ، ومتى صجنا من رقصاه ، اصرخ
إلي وأخبرني .

ثم تركه وانصرف إلى الجهة الثانية من الرواق فتزل من السلم التكبير .
فتهد يارديان وقال : لقد أمنت الخطر والحمد لله وسأبقى حراً ساهين لا
يعلمون بخروجي من هذا السجن .

وسار وهو لا يرى شيئاً لاشتداد الظلام حتى انتهى من السلم إلى باب
اللور الأول من القصر .

فحاول أن يتجاوزوه ويستمر في لؤله ولكنه سمع اصواتاً بشرية
من ورائه .



فوضع أذنه على قفل الباب وجعل يصغي إلى الأصوات أتم الاصداء فسمع
اسمه يلفظ عدة مرار .

في تلك الساعة التي كان يارديان الأكبر يربط فم الخادم بيديه كانت
مركبة قد وقفت عند باب قصر مسج أي قصر هنري دي مونبورنسي فخرج
رجل منها ومخل سراً إلى القصر .

ولا شك انه كان من كبار القوم ، انه حين وصوله ادخل حالاً إلى غرفة
المارشال .

فما رأي هنري خلف لاستقباله وقال له بلهجة المضطرب : كيف أتيت ،
ومآذا حدث .

فقال له الرجل : لم أجد بداً من القدوم ، فان زيارتك أقل خطر من زيارة
الدوق دي كيز .

وقد اغتنمت فرصة المروج من الباستيل حين أن ثبته إلى الأنظار ،
فانت الأمر خطير ، يجب أن يعلمه الدوق دي كيز اليوم ، وعليه تتكفل
حياتنا جميعاً .

فقال له هنري : أظنك تباليح يا كيتلان .

ولكن هنري نفسه لم يستطع إخفاء اضطرابه لما رأي من رعب حاكم الباستيل
فقال له : قل ، ماذا جرى ؟

فسأله حاكم الباستيل قائلاً : ألعننا وحدة ؟ أنت واثق من ان لا
بسمنا أحد .

- كل الثلاثة ، ولكن شمال معي ان غرفة في داخل غرفتي من قبيل البائنة
في الحذر فاني اراك ستحدثني بأمر خطير .

فدخل هنري واياه إلى تلك الغرفة وكان فيها باب آخر فقال له : اننا
نكون آمنين في هذه الغرفة لأنها منفصلة عن سكان القصر ، وأما هذا السبب
فانه يشرف على سلم خلفي لا يمر به إلا أنا ووكيلي وهو يعرف كل اسرارنا ،
فلو ضح لي الان السبب في خنازقك .

فجلس حاكم الباستيل على كرسي وقال : حدث انه وجد في باريس رجل
وقف على سر مؤامرتنا وبانت رؤوسنا في قبضة يده .

فارتدى هنري وقال : ماذا تقول ؟

- أقول الحقيقة ، فان هذا الرجل قد حضر اجتماعنا الأخير في لندن
دليين ووقف على سرنا إذ سمع كل ما قلناه بالتفصيل .

- ماذا يدعى هذا الرجل .

- بارديان .

- بارديان ؟ أهو رجل يبلغ الحسین من العمر طويل القامة ؟

- كلا ، بل أن بارديان الذي اكفك عنه في مقبيل الشباب لا يتجاوز

العشرين ، وهو طويل القامة قوي البنية ، قليل الاكثارات للموت ، وبه
مستعدة دائماً لتجريد الحسام .

- إذا فهو ابن بارديان وقد كفني عنه .

فذهل الحاكم وقال : ابن من ؟

- ابن رجل أعرفه ... والآن ، أتم حديثك ، لقد قلت ان هذا
الرجل عرف سرنا فهل أنت واثق من أن هذا الرجل وحده قد عرف

سر المؤامرة .

- هذا الذي أظنه .

- إذا كان هذا السر لم يتجاوز إلى سواء فلاخوف علينا ، إذ لحي

طريقة الاستيلاء على هذا الرجل وحده على السكوت .. ولكن كيف
عرفت ؟

- إنه كان في سجن الباستيل فأقام فيه بضعة أيام ، وقد أمرت بالتفتيش
عليه بسفلي حاكم الباستيل .

- ولكنني أرى الأمر بسيطاً جداً ..

- كيف ذلك ؟

- بأن نضعه في أحد سجون الباستيل العميقة ، وأن لا ندعه
يكلم أحداً ..

- ولكنه خرج من السجن وهو الآن مطلق السراح ، بل أذا الذي أطلقت
سراحه وفتحت له أبواب السجن بيدي .

وجعل هنري ينظر إلى حاكم السجن نظرات التفهؤل وهو يحسب أن عقد
قد اضطلت .

وقال له الحاكم : لا تعجب مما تسمع ، فإن حياتي كانت في قبضة هذا الرجل فاستطرت إلى إطلاق سراحه .

- سكن روجك أيها الصديق وأرو لي ما التفتي بالتفصيل فإذا كان هذا الرجل الذي أظنه فلا خطر علينا منه ولا خوف .

- هذا ما أظنه فإني لم أتم منذ خروجه من السجن إلى الآن .

ثم قص عليه جميع ما حدث بينه وبين بارداليان بطل هسة الرواية في الباستيل بما عرفة القراء في حينه .

ولما قرع من حديثه قال له : ماذا تقول .

- يجب أن يكون هذا الفتى منا ، لأنه يفيدنا خير فائدة .

- إذا أنت تعرفه .

- كلا ... ولكي أعرف رجلاً يعرفه وهذا كاف ، فانهب أيها

الصديق وأطمن ، فإنا أول أخبار الدوق مي كيز عن هذا المخطر ،

ولكن لا تخف ، فإن القية أو غداً ، يكون بارداليان الأصغر في قبضة يدي .

- إن اطمئنتك برحمتي ، وإذا قبضت على هذا الفتى ، رده إلي ،

لأنني إذا أمنت المشتقة ، ولا أعدم العزم من مناصبي وإطلاق سراح هذا الرجل .

- هو ذلك ، وغداً سأرسل اليك مقبلة اليدين والرجلين ، إلا إن كان لنا

فائدة من حريته .

فانصرف حاكم السجن مطمئناً وعاد بركبته إلى الباستيل .

وفي ذلك الحين عاد بارداليان الأكبر إلى غرفته ، وأعاد ثياب يديه إليه

ولبس هو ثيابه .

ثم أعطى الخادم مساندة وقال له : اني اعطيتك هذا المال على ان

لا تقول كلمة بما جرى وإذا بحث بحرف أهدمت هذا الخنجر في صدرك ولك

الخبار بين الأمرين .

وأجابته الخادم لغوره : اني اخترت لك علي عهد السكوت .

- لقد أحسنت ، ولأن فانذهب والخير الوكيل اني صحت من الرقاد فقد

رأيت في الرواق وهو يجسدي أنت وأمرني بأن أحضر اليه حين تستيقن ..

إنذهب أيها الأبلة المرتقوم .

- نعم .. لقد فهمت ، لأن العيب جيل حسبي أنت وحسبك فأوهبا أنا

مسرع اليه .

وجلس بارداليان على كرسيه وملاً كأساً من الشراب وجعل يشرب وهو

ينتظر ما يكون من الحوادث ، لأنه سمع ما دار من الحديث بين هنري وحاكم

الباستيل ، حين كان يصغي اليه في السلم .

وقد غير هذا الاكتشاف خطته فلم يعد يبالي بمرقان ذلك السر الذي كتمه

عنه المارشال ، ولم يكثر الأسير المسجون في القصر ، بل كانت كل هذه

قاصراً على انتقال ولده من المخطر الذي يتهدده ، وعلى الأفتكار بطريقة تمكنه

من إبلاغه ما سمع .

وكان أول ما خطر في يله أن يخرج من القصر ويذهب أولاً إلى لندون

دينيير ، وإن اعترضه مريبة أحد قلة .

وكان يجب انته حياً شديداً ، فتجسم فيه هذا الخاطر لاستفحال المخطر

حتى يحرم عليه العزم الأكيد ..

ووضع يده على قبضة حسامه ووقف وقد اتقدت عيناه بمحاول الخروج

من العرفة .

ولكنه قبل أن يسير خطوة دخل هنري إلى الغرفة وقال له هل تحت

مستريحاً يا بارداليان ، وهل أنت مستعد لهذه القية .

وأجابته : أرى يا سيدي أنت خدمتك مخلصون في خدمتك فحبرونك

بكل ما يجري .

- هو ذلك فاني كنت قادمًا لأراك منذ هتبه فأخبروني. إنك أتم ،
وكرهت أن أزعجك ، وأمرتهم أن يخبروني حين تصحو لأني مضطر إلى
مباحثتك .

- إن هذا الاضطراب يشغني يا سيدي ومها يمكن من الأمر فقد امتدحت
من عشاء السفر ، واني أستطيع السهر ثلاث ليال لفا دعيت الخيال
- لا حاجة إلى تجتم هذه الشاف . . فان المهمة تنقضي عند انقضاء
الليل .

- وفي خلافا أكون مطلق الحرية يا سيدي ؟

- بلا ريب ، وانك تستطيع الذهاب إلى حيث تشاء ، وتكون حسنة
الفرقة خاصة بك في جميع مدة هذه المهام التي ستتصنها .
ولا بد لي أن أقول لك انه كلما كنت عدة في سبل علينا فضاؤنا
واذكر أنك أخبرني ان لك ابناً شاباً . . انيس كذلك .
فانقضض بارماليان وقال : نعم . .

- الحسنة كقولاً لفتنا

- انه إذا لم يجد من يعاقبه قاتل في الحلم ، فلا لذة له إلا بالقتال
- إذا جئني به غداً دون تأخير . . أتعلم أين يقع ؟

- في ضواحي جبل سانت جينيف .

- ما دعاه إلى الإقامة بجوار الأديرة ، انه طامع بعيشة الرهبان .

- كلا ، ولكنه يحب الخلاء .

- إنياً أستطيع الأختار عليه .

- فوق ما تعتمد علي يا سيدي

وعندها خرج للارثقال فقال بارماليان في نفسه

- لقد كان الأمر ، فانه ما زال ينتظر أن أجيئه غداً بولدي ، لا يفعل

شيئاً قبل أن يراه

وفي هذه الليلة يطلق سراحي فأذهب إلى فندق قاراء ، وسوى مسا
يكون ، أما الآن ، فلا بد من الصبر والحكمة ، ولا مضيء على الصبر
مثل النوم .

وعندها انطرح فوق سريره ونام نوماً عظيماً إلى ساعة العشاء .

وفي الساعة الماشرة كان هنري قد نأب لكل أمر فأرسل وكيله جيل
إلى شارع هاش ، ليقتف موقف المراقب .
لأن هذا الوكيل وحده كان يعرف المنزل الذي أعده لسجن عنة دورت
سواء من حاشية للارثقال .

وقصد تقرير أن يسوق الفيكونت اسبرمونت ، مركبة الأسبقتين إلى
مدخل شارع هاش .

وأن يسير بارماليان في الو المركبة لعمارة أول الشارع ، بحيث يبقى السر
محصراً بين هنري ووكيله ، ولا يعرف أحداً ماذا يوجد في المركبة .
وبعد ذلك جاء الفيكونت اسبرمونت إلى بارماليان وسأله : هل انت
متأهب

- كل التأهب .

- إذن علم بنا

وزل بارماليان والفيكونت سلم القصر فأخبره الفيكونت وما يتوزلان
بأوامر الارثقال .

فقال له بارماليان : ألم تعرف من يوجد في المركبة أنها الحصم العزيز .

- كلا ، وأنت هل عرفت .

فأجابها سلباً : وخرج الاثنان من باب القصر الكبير ، وكانت الرصاصة
واقفة والاسم لان فيها وهنري تنطق جواده وبشهر حسامة .

فصعد الفيكونت إلى مكان السائق وعاد هنري إلى توصية بارماليان وقال
له : ان المركبة ستسير الحزيناء فكانت بعيداً عنها عشر خطوات ، وإذا رأيت

أحداً يبدو منها فذاته دون تردد ؟ أهت ؟
فم يجبه يارداليان ؟ ولكنه جرد حسابه من عمده وكان ابلغ جواب .
وكان مسلماً أيضاً بمنجز وغدارة ، فأصدر هنري أمره بالرحيل ، وسارت
الركبة يتقدمها هنري وفي مؤخرها يارداليان .
ومسا زالت الركبة سائرة حتى وصلت إلى منعطف ، وسمع فجأة صوت
غدارة اطلقت على سائق الركبة .
فصاح هنري قائلاً : إلى الأمام !

أما الفيكوت فلم يصب رصاص الغدارة غير قيمته ، فدفع الركبة مسرعاً
وسمع عند ذلك صوت يقول : ففرو أيها النصوص الذين يسرقون النساء . ففرو
أيها الجبناء الأذلاء .
أما يارداليان فإنه رأى أثر ذلك الطلق الناري ، وذلك الوجد
شبح رجل يركض في أثر الركبة .

فقال : نفسه : لقد دنت ساعة العمل ، فإن هذا الراكض لا يعلم أنه
يوجد من يركض أكثر من ركضه وأنه في أثره .
ثم هز حسابه في يده ، وجعل يمدو في أثر هذا الرجل الذي كان يمدو
طالباً هنري .

وما زال يركض حتى أدركه بعد دقيقة وطلعه بحسامه طمئة خائبة .
فجر أن هذا الرجل كان سمع صوت الركض وراءه ، فالتفت حين وصول
يارداليان إليه ، واجتنب تلك الطمئة فضلاً منها .
وعندما اشتدك السيفان وكان كلا المتقاتلين ساكناً ، وقد علم أنه يفارح
خصماً شديداً لا يراه إلا تشدد اللطام ، فسلا يرم الخصم موقف خصمه ، إلا
مهتدياً إليه بمسائل السيفين .

غير ان خطة يارداليان الأكبر كانت خطة دفاع واحتياط ، إذ كان القرم
منها مشاغلة خصمه حتى يتيسر للركبة الابتعاد .

وأما خصمه فقد كانت خطته معاكسة لذلك ، إذ كان يريد الإسراع به
لتطاقة كي يدرك الركبة .
وحل على يارداليان حجة منكورة ، وطلعه طمئة فجلاء وهو يقول خذها
الإنيا القاضية ،
غير ان يارداليان الأكبر خلا منها بهارة ، وقال : اقم بيلاطس أنت
اصوت صوتك والظمن طمته .
وعندهما خفض كل من الحصين سلاحه ، وقال أحدهما .. أي ؟ وما
يارداليان الأكبر وقال ولدي ؟

فأخذ يارداليان الأسفر حسابه ، وقد بدت عليه علامة اليأس ، فوقف
عنيبة مصعباً دون أن يكلم الآخر .
ثم قال بلهجة القانطين ، لقد نجنا بها وفقدت الآخر .

أما يارداليان الأكبر فقد استاء لما رأى من تعرض ابنه لما لا يعنيه ، وعدم
أكبراته ، أو صابه به قبل السفر وقال له بلهجة المؤنب :
أسافر هذا السفر الطويل يا بني ، ثم أعود فأجدك ويكون أول مسا أراه
منك إنك خائف لوصالي ؟

لم تنسم في إنك تحافظ على هذه الوصايا وتحترمها احترام العمود ، فكيف
تؤاخذنا الضمف ، وكيف خالفت وصايا أبوك ، وأي شأن لك في الدفاع
عن قوم يتطغفونهم وهم انفسهم لا يستغيثون .

إني أوصيتك ان تحذر الرجال والنساء ، وان تحذر نفسك فاي حذر
هذا وأنت تندفع الدفاح الفارس اللثاق ، وبشتت شجاعة ومرودة لا يكون
لك منها غير الشفاء .

فتعال ممي إلى حجارة فتفتح كل الليل لمن يعرف ان يطرق بابها ..
ما بالك واقفاً . ألا تريد ان تضيقي ؟

فأجاب يارداليان بصوت مضطرب ارتعش له ذلك الأب حنواً ، ان

تداعلك يا أبي في شأني قد نرجي إلى عارية اليأس العائل ، ولكن منها
بلغ بأسي من جبروتي في مهوتي ، فاله أشد وجود كل منا في شأن يتناقض
شأن الآخر .

- وماذا يملك يا بني ان تنضم اليها فيكون لك مائة الف فرنك مضمونة ،
وربما كنت متعباً رقيقاً في الجيش ..

- كفى كفى يا أبي ، ألم تستدل من لهوتي ان اليأس يقطع قلبي .
إنك تسير في نهج ، وأنا أسير في نهج آخر ، فالوداع يا أبي فاني لا أطيعن ان
أراك بين أهدائي

- اتركني ... ولكن لماذا ؟

- أنت تذكرني عن ذلك ... تصور يا أبي ان سلمي قد قارع سيفك اللثة
ولو أصاب هذا السيف الذي اعطيني إياه جسمك وأسال نقطة من دمك
لذعبت فانتفاً والقيت نفسي في النهر ...

إنك اعترضت سبيلي يا أبي ، عملاً بأوامر رؤسائك فتكبتني بكبة
لا تحظر لك في بال دون ان ترد في الشر ..
الوداع الوداع فلا سبيل إلى اللقاء .

ثم تركه وتراجع فوقف بارداليان الأكبر ، وقصد حمل رأسه بين يديه
وقال : ربه ماذا أرى .. ايفارقني ولدي وتكون عدوين ..
وأية قائدة بقيت لي من الحياة بعد هذا الفراق ..

وأى مطعم لي في هذا الوجود ، ولماذا كنت لا أرى ولدي يجاني
وإذا كان ولدي من أهدائي .

وقد سألت دمعتان من عينيه ، وكبر عليه ذلك اليأس حتى أراد الانتحار
فوضع عنقه في يديه وحاول ان يخنق نفسه وهو يقول : لقد قضى الأمر قلتمش
يا بني سعيداً بعدى .

ولكنه قبل ان يشقط على عنقه شعر يده قد لمس كتفه ، فالتفت فرأى

والده وسعه يقول له بصوت ختختي :
كلا ، إنني لا أستطيع ان أفرارك على هذا الشكل ، فارت الحزن
بقلبي حين التكرار إنك من أهدائي .. شمال يا أبي فاني ذاهب معك إلى
حيث شاء .

فكاد والده يطير سروراً وقال له : إذا لا بد يا ابني من معانقتك .
فتدقق الاثنان ثم قال له أبوه - دعني أراك فان الأب لا يحتاج إلى نور
ابنائه ..

ماذا أرى .. إنني أراك قد قويت وارتفعت قامتك وتضخمت عضواك
واشدت ساعدك ...

تعال يا ابني فاني أفاخر بك أهل الأرض
فقال له بارداليان : بل تذهب إلى حيث أقم يا أبي .
- وأين تقيم أي فتدق دقيبير .

- هو ذلك .
- ولكنك لا تعلم ان هذا الفتدق غير آمن للجميع الآن .
- لماذا ؟

- لأن حاكم سجن الياسايل يعلم إنك مقيم فيه ، ويود أن يجعلك من
أضياله . - شمال معي يا ابني .
فسار بارداليان مع أبوه دون مقاومة .

وبعد زمن يسير دخلوا إلى مخارة في شارع فرانس يورجوا .
وكانت هذه المخارة تقفل أبوابها بعد الغروب ، فلا تفتح في الليل إلا
لزملائه أشخاص قيد سجون فيها سراً .

وهناك طرقي بارداليان الأكبر باباً بشكل خاص ، ففتح له ودخل مع
والده فاشقوا في غرفة وقال له
فص على الآب يا ابني جميع ما اتفق لك بعد سفري من كل ما فعلته

- أنت وائق انها هما الاثنان كلتا في المركبة ؟

كل الثلاثة ، فانها احتفظنا منذ أسبوعين ، وكنت مشكوكاً بأن هنري هو المحتطف إلى ان وثقت .. ولكن إلى أين ذهب بها ، ولمن غير لسجن .

- لقد عرفت الآن كل شيء ، وعلقت السبب في مسا الخدع هنري من الاحتياط بسجنني في تلك الغرفة ، فانه كان يخافني ويخشى أن أعرف الأسيرين فأحاول دون انفاذ مساعييه

ولقد أصاب في خوفه فاني لو علمت من أمر الأسيرين ما تعلم ، لكنت فعلت ما فعلته أنت .

- ولكن كيف اتفق يا أبي انك عدت إلى خدمة المارشال ، وحتى كان عهد وخوفك فيها ؟

- منذ أمس وكنت سجيناً في قصره غير ان المارشال وعدني أن أكون مطلق السراح منذ الليلة بعد انصافها ، وكنت عازماً على أن أركب في تلك الساعة .

ثم حكى لابنه جميع مسا التلق له مع هنري في ذلك الفندق وما التفتا عليه .

فحكى له ابنة جميع ما التلق له من الحوادث منذ سفره إلى اليوم .

ولما فرغ الاثنان من حديثها كان الفجر قد أبيض .

فالتقى الاثنان على أن يعود الأب إلى قصر هنري فيواصل خدمته فيما يتعلق بخطة السياسية .

وقد قال الأب لابنه ان في ذلك خير وسيد لمعرفة السكان الذي سيجت فيه المرافق .

وقوى ذلك فان الفيكونت الذي قاد المركبة لا بد أن يكون قد عرف السكان ، وسأكرمه على الأمانة في غاطس يابني فلا بد لنا من معرفة

الحقيقة في أقرب حين .

- أما إذا يا أبي فسأذهب إلى المارشال فرنسوا دي مونغورانسي ، واخبره بما جرى ، ثم أعود إلى فندق دفينير فأنتظر فيك فيه .

- ويصح لك أجا التجسس ، كيف تعود إلى هذا الفندق ، الملك يحب العودة إلى هياستيل .

- لانه أصبت يا أبي فلم يخطر ذلك في بالي .

- إنك ستبقى هنا في هذه الحجرة ، فإني حسن الملائق مع صاحبها وستكون أماناً فيها .

وعلى هذا افترق الأب وابنه ، فذهب الأب إلى قصر هنري مونغورانسي وشبهه ابنه إلى الباب فقال له أرجوك يا أبي ان تر بقفندي دفينير وتحضر في صديقاً تر كنه فيه .

- ما اسم هذا الصديق يا بني ؟

- بيسو ، وهو كفي الأمين .

- ٣ -

في اللوفر

وفي يرد البيان الأصغر بطل هذه الرواية في الحجرة فقام فيها ساعتين .

وفي الساعة التاسعة ذهب ترواً إلى قصر فرنسوا مونغورانسي .

أما فرنسوا فقد أقام ذلك اليوم وتلك الليلة في قصره وهو لا يبدأ له بال

وكان فرد يقول : إن بارديان قد أصاب في قوله ان الحيلة في هذه الهمم
أفقد من القوة ، وباردة يتقدم لامتناعه عن الذهاب إلى أخيه ومخاطبته إمرأته
وربته بالقوة .

ثم خطر له خاطر نفص حبسه ، وهو انه كان متزوجاً بديلة هي
فرنسوا .

وان هذا الزواج وان يكن إسعياً ، فلا سبيل إلى نفضه ، لأن ابنا إذا
كان قد وافق على طلاقه من حنة ، فهو لا يوافق على طلاقه من زوجة تنسب
إلى الأسرة المالكة .

فكيف يستطيع العيش بعيداً عن حنة ومعاقبتها بالطلاق والفرار الدائم
وهي بريئة طاهرة لا قلب لها .

فكان إذا تثلث له هذه المصائب رأى انه عاش أنكدر عيش سبعة عشر
عاماً ، وهي زهرة حياته وربيع عمره .

ثم إذا رأى انه لا سبيل معه كل هذا إلى الهناء والتعويض على تلك
المظالمه بشيء من أسباب السعادة ، خص بنات من الجاسوس وهاج فان
انتقامه ، وود لو طار إلى أخيه ، فالتفت عليه انتقام العتيان ومزقه
شمر مرق .

فلما وصل إليه بارديان وهو على هذه الحالة من الاضطراب لم يسأله شيئاً ،
ولكن عيبيه فلنا تتكلمان .

أما بارديان فإنه بدأ الحديث فقال له : اني لم أكن نخطئاً يا مولاي فقد
كانت في قصر أخيك .

فأجاب فرنسوا بلهجة القاطنين : أتقول انها كانت فيه .

- نعم وقد اخرجتاه مني ولا شك يا سيدي ، إن يد الأقدار تعبت به
الهمة ، فاني كنت أظهر بخلصهما ولكن حدث ما احبط هذا الفوز وانجبت

- أنت خاتمت ٢

- نعم ولكني لم أفر ، فقد يتفق في بعض الهمم انه المرأه والحيلة والقوة
والحكما وكل ما يعين على الفوز يحبط ويخفق .

- أنت لا تقاتل من أسلي فكيف أعرب لك عن امتثالي بعد هذا الجبيل
سوى اني أحسب صدقتك من دلائل شرفي .

أما بارديان فم يسر بهذا الشراء فقد شغل حته بما رآه على وجه محده من
دلائل اليأس والشيل ، حتى انه ود في تلك الساعة لو تمكن من ارفاقه منه في
سبيل خدمته المجرده .

وأما المارشال فإنه خم قبضته شأن التواعد وقال : إذا هو أخي الذي
يريد اقتراسها وهو من أسرتي ومن صمي . اخبرني أيها الصديق بكل ما حدث ،
أرأيت هذا النمر المقتوم وراك ؟
فأجابه بارديان قائلاً :

- سكن روعك يا سيدي ، فإن الانتقام محمود يسفر عن فوز إذا كنت
انت الذي للفوه ، وأما إذا تركته يتولاك واندمعت مع قيار الحقد دون

تصبر كان شراً غير مأمون القيا .
اني لم أر أخاك ولا هو رأيي ولكني دخلت إلى قصره مثل الصيوان ،
وعرفت كل شيء .

وهذا أخيره بكل ما أخبر به أيام دون ان يذكر امر لفتائه بأبيه وختم
كلامه بقوله :

- لقد بقي علينا أن نعرف ابن ذهب المركبة بالأسبرون ، ولكني لا بد
لي ان أعرف مكانها في أقرب حين .

- ولكني لا أطيق التصبر ويجب ان أعرف في الحال .

- على ماذا تحولت يا مولاي ؟

أعتد لها الشفاليه كل ما رزقته لي حتى أمام أخي ولم تغيب خطرا
من ذلك

- دون شك ، وأما الأخطار فقد الفتيا حتى صرت أتوق اليها .
- أتذهب معي إلى الملك ؟

فارتعش بارداليان وقال له : اني أتبعك لك من ظلك .
- إذا ذهبت الآن إلى القوفر ولتصنعا الملك فسؤن ذلك غير طريقة
لاجتباب الضبيعة في أسرتنا ، وإذا لم يتصفي الملك من هذا المنر ..
- ماذا تصنع يا سيدي ؟
- أتولى إنصاف قصي بيدي ولا أكثرث للفنائح ، فالتظوني هنيهة إلى
أن أعوه .

ثم دخل المارشال إلى غرفة ملاسبه وبقي بارداليان وحده ففسال في
نفسه : إنايه ذاهب من إلى الملك ، أي إلى الملكة كلارين ، تلك الملكة التي
امرت بسجنني في الباسكيل ، وهي شعبديني فيه فأني خطر أشد من هذا ؟
لقد قدر علي ، ولا شك ان اعيش في ظلمات الباسكيل .. ولكنني
وعدت المارشال بالذهاب معه إلى القوفر ، ولا سبيل إلى الرجوع فقبضت انه
ما كان مدفوعا .

وبعد ذلك بربع ساعة رجع المارشال وهو يلبس ملاسبه الرسمية ،
وكانت موافقة في ذلك العهد ، لأن كان في رتبة المارشال من سلسلة طوبه ذهبية
تلبس في المنق وقبعة سوداء عليها ريش أبيض وجرايات من الحرير الأسود
ووشاح قصير من الحرير زهراء اللون ومبطن باللحم وحذاء طويل يبلغ
إلى الركب .

وقد نكح حساماً قبضته من الحديد الأسود بشكل صليب بدلاً من حسامه
المرصعة قبضته بالجواهر .
فما دخل إلى الغرفة التي كان فيها بارداليان أشار إليه أن يتبعه .

فأدتل وخرج الاثنان فركبا مركبة يسوقها خائقان بالملايس الرسمية وفي
مؤخرتها أربعة من خدم القصر بالملايس الرسمية .

وقد جلس فرانسوا وفارديان في صدر المركبة ، وجلس نامها
أربعة خلفان من حاشية القصر بالملايس الحورية البيضاء وعلى صدورهم شارة
أسرة ميونخواتسي
وفوق ذلك ، فقد كان يحرس تلك المركبة العظيمة اثنا عشر فارساً يتظنون
الجياذ النطحة .

وسار هذا الموكب الخائل المهيبة فجاءت يستلقت انظار الأثرة وقد علموا
جهيمهم أن المركبة ذاهبة إلى القوفر .

أما فرانسوا فكان ساهي الطرف مشلخت اليأس .

وأما بارداليان فقد دحش لجلال هذا الموكب ، وكان يضطرب حين يفكر
انه سيف أمام جلالة ملك فرنسا الى ان وصلوا الى القوفر ، وهو في ذلك
العهد يشبه المدينة الفخامته واتساعه

وكان الملك قد أذن بالقاءيات .

وقد صعدا وهو مشرح الصدر طلق الهيا .

فكان يدخل بالزائرين إلى غرفة جديدة للسلاج ، أنشأها حديثاً ،
ولها فتحة تطل على نهر السين وهو يجري تحتها مطلق السراج ، لا يعبه
حسر او رصيف .

وكانت هذه النافذة كبيرة وهي مفتوحة فكانت لنوار الشمس تنفذ منها
إلى الغرفة فتملأها شعاعاً .

وقد كان الملك فيها يصعب نحو خمسة عشر نبلاً وهو يقصص بتدقيسة
حديثة الطراز .

ولفيا هو على ذلك والتلاءم وقوف من حوله دخل أحد الخجباب ووقف على
قيد شطونين من الملك .

فقال له الملك : ماذا حدث ؟

فأجاب الخاحب : مولاي ، ان المارشال دي موغورانسى يلتبس شرقى الثول لدى جلالتكم .

فقال الملك بلهجة المنذعل كأنه لا يصدق ما سمع ...

المارشال دي موغورانسى ... ألمه سمع يا نعمة من اسباب السلم العام ، فأراد الخروج إلى السكينة حسناً ليدخل ...

وجلس الملك عند ذلك في كرسىه الكبير ، واضطف البسلاء من حوله صفيين .

وعندها فتح الباب الكبير ودخل عفان المارشال الأريضة اثنين اثنين ، فوقف كل فريق منها في جهة من جهتي الباب .

ثم دخل المارشال يليه بارديليان .

فتقدم فرنسوا إلى ان كان بينه وبين كرسي الملك ثلاث خطوات والحق باحترام عظيم .

ثم وقف ينتظر ان يبدأ الملك بمحادثته .

حمل الملك ينظر إلى هذا الرجل فتعجبه مظاهره نبيذ ، وكذلك جميع الحضور ، ما خلا الدوق دي كيز فاته كان ينظر إليه نظرات تشفق عن الاحقار .

ويعد سكوت قصير قال له الملك .

أهلاً بالmarshال ، فقد هجرت بلاطنا هجرأ طويلاً ، حق حسينا انك هجرت البسلاء ، بل كنا نسائل اقتدنا بعض الأحيان فلا نعم آذنت التي نقلت في معرصة سانت دانيس أم ابوك أمير الجيوش . أما الآن فقد زال الأهم وبسرعة انك لا تزال في قيد الحياة .

والهم ، في كل ذلك ، أنك أتيت اليه أخيراً ، فأكرر عبارة

الترحيب بك

فانحن فرنسوا وقسمال : إني أتيت ، يا مولاي ، لألتبس مقابلة

جلالتكم

وأنت الآن بحضورنا فتكتم

- مولاي ، إني التمس مقابلة خاصة .

- أنتني انك تريد الاختلاء بنا ؟

- نعم يا مولاي إذا أختتم

- ايكن ما تريد أيها المارشال .

فلم يتكلم الملك يقول ما قال حتى انتهى جميع الحضور وفيهم الدوق دانجو والدوق دي كيز وخروجوا من الغرفة .

فأشار الملك إلى بارديليان وقال مخاطباً فرنسوا : ماذا بقي هذا الفتي ولم

يتصرف مع التصرفين ؟

وقد كان موقف بارديليان حرجاً ، لأنه منذ دخل رأى الدوق دانجو وكوايس ومورفر ، فابلسم للاتين الأخيرين ابتسام احتقار وهاجت الأسفاد في صدر مورفر .

فان بارديليان كان قد جرحه في خده حين كان يروح حول منزل حنة مع الدوق كما يذكر القراء .

فدأ منه ، وقال له بصوت منخفض ، وقد ضم قبضته متوعداً ، سوف نلتقي .

فأجاب بارديليان بنفس اللهجة : حين تريد .

وقبل ان يخرجوا من حضرة الملك استمع كوايس ومورفر بالدوق دانجو وكذا هم .

فنظر إليه الدوق حين خروجه نظرة بعيد

قال بارتاليان في نفسه : إنى سميت في الحاصلين ، قلنا لم يرنى أم
الملك فتعديني إلى الاستقبال ، فقد رأيت آخر الملك ، وهو عرسلي إلى
سجين التأميل .

ولما سأل الملك مونتورانسى عن بارتاليان ، اعترف بارتاليان
عن التمكنر بما يكتشفه من الأخطار ، إلى سماع ما يكون بين لارشاى
والملك .

أما فرنسوا فإنه أجاب الملك قائلا : إن هذا الذى يا مولاي ، يدعى
الشفاليه ، منى بارتاليان ، وهو شامدى على ما سأقول ، فأتى من جلاتك
الأذن له بالبقاء معي .
فأرسل الملك برأسه إشارة إلى الواقفة .

وعاد فرنسوا إلى الحديث فقال : لى أطمع بحلم جلاتك ، فأتى
الجانس آخر ، وهو أن يصدر أمره الكورم بإحضار أخى هنرى مارشاى
دالميل .

— إذ أنت تريد عقد مجلس عائلى بمحضرتنا ؟
— هو ذلك يا مولاي لأن الملك والد رحله .

وكان الملك عارفاً بما بين الأخوين من العداه ، ولكنه كان يجهل سبب
هذا العداه .
وكان سيالاً إلى معرفة سبب هذا العقد الذى يكتنه الأخوان منذ
عهد بعيد وقد جرت الناس .

وقد رأى لهجة فرنسوا وقتولته وذلك الشاهد الذى أحضره على ما كان
يتوق إليه من معرفة أسباب العداه ، أحب أن يعلم هذا السر فتخرج على مائدة
بطريقة من الفضا .

فأسرع إليه الحاجب فأمره أن يدعو كورمين رئيس حرمه .
فأجاب الحاجب : لعل مولاي نسي أنه أجناس الزئيس أن يتخيه

هذا أكيد .

— ولكن حرس قلادة والدك هنا قلنا أمر مولاي .

— نعم . . . نعم ادع لى ناسي .

وبعد هنيهة أقبل ناسي رئيس حرس اللقطة كورين .

ولما دخل ناسي لم يبالك ، بالرغم من وجوب احترامه لك ، عن أنت
يظهر انهما عظيماً حين رأى بارتاليان في غرفة الملك وهو الذى قبض عليه
وساقه إلى اليانكيل .

وكان بارتاليان حين دخوله ، ينظر إلى بندقيه معلقة في الجدار ،
على الانتباه .

ولما دخل ناسي أتته إليه بارتاليان ، وراه ينظر إليه منذ هذا كأنه لا
يصدق عينه .

فأتى له بارتاليان وأشار بعينه إشارة ودية ، وناسي واقف شاخص إليه
وقد نسي أنه بمحضرة الملك .

فقطب الملك صاحبه وقال له : ما هذا يا ناسي وما أصابك ؟

فأجاب ناسي قائلا : أسأل مولاي المغولك أصابني دوار فجائي دعا إلى
ما رأيت من فعله .

قال بارتاليان في نفسه : لى لا أرى غير وجوه أعداء ، ولا أعلم بعدهما
كيف يكون عرجي .

وأما الملك فإنه قال لناسي : إنذهب في الحال إلى قصر مسم وقل لمارشاى
هنرى دى مونتورانسى لى أريد أن أراه .

— أياهم جلاله مولاي ، ان أذهب وحيدى ، أو أصعب بعض
الحرس .

— وحيدك . . . وحيدك لى لا أرسلك لتدفع عليه . أذهب لى في غرفة

فالتقى رئيس المجلس وانصرف .
وعندها المحي فرنسوا امام الملك وقال له :

- يجب علي الان يا مولاي ، ان اخبر جلالتيك اني حثت اطلب
عدلاً وانصافاً .

واي اشكو جلالتيك اخي هنري دي مونفورنسي وانتهى بارتساب جرائم
الحياة والكذب والاعتصاف .

أواه يا مولاي ، اني رأيت إشارة بدت من جلالتيك ، فملت مما
يريدون بها .

إنهم يريدون يا مولاي انه يوجد في باريس قضاة عادلون ، وان المحاكم
أولي بالظفر في هذه الشكوى .

ولكنكم يا مولاي قاضي قضاء الملكة .

إني لا أشكو تلك الجرائم لعذالة جلالتيكم ، بل إني أشرفها أيضاً ،
لأن تلك الأمور الهائلة اني سأرويها ، يجب ان تبقى مكتومة ، فلا
تأوكها الأقواء .

مولاي ، إن قضيتنا إذا بلغت المحاكم فضحت أسمة نبيسة ، وكنت إذا
آخر ضحاياً لها لاني أنفذ العذالة بنفسي .

كله يا مولاي تكفي فتملكون حرج الموقف .. ان القضية خاصة بامرأة ،
بل بامرأتين .. بل بشهيدتين ..

إحداهما الميتة ، وقد نكحت يوم مولدها بأشد الشكيات ، لأن
أبداً تملي عنها ... ولثانية وهي الأم ، وقد لقيت من ضرورب لشقاء ما لا
يتمتع إنساناً .

فكانت تحمل على الاثقال بصبرها وكفاتها ، وكانت آية الاعجاب بهذا
الصبر والكتبان .

وأجابه الملك ، وقد بدت عليه علامات التنازع : إننا نرعى ان نكون اشم
في هذه القضية
وان اسطر ابيك وحديثك حولاني على الاعتقاد بان الأمر خطير ، والله
حاشي بعض لا يجب ان يشترى لدى الناس ، قل إذا ما تريد قرله وأنت على ثقة
من عدائي وكفائي .

- لقد غرني مولاي بإحسانه ، ولا أدري كيف أعرب عن
امتاني

ولكن الأترون جلالتيك ان أرجىء بيان التفصيل الى ان يحضر التهم
لأبسط شكواي بحضوره .

- لقد أميت يا مارشال وهو ما يقتضيه العدل ، ولكنك تستطيع ان
تقول لي قبل حضوره من هما هاتان المرأتان ؟
- نعم يا مولاي ، إنهما حاملتان .

فدعك الملك وقال : حاملتان ؟ وبأي شغل تشتغلان ؟

- بالتطريز وهما تشتغلان للارواق
وقد قال فرنسوا هذا القول بلهجة قنوط ظاهر .

فقال له الملك ، وأن تقيان اني اعتمدت بالتطريز وعرفت لغواني يشتغلان
به لأنهن لا يتجاوزن خمس نساء .

- إنهما تقيان في شارع سانت مييس .

- شارع سانت ديس ؟ أوجد فندق تجاه المنزل .

- نعم يا مولاي وهو فندق دغليير .

فصق الملك بيدي وقال - لقد عرفتها ، وهي لارب أمهر مطرزة
في باريس

ثم أبتسم الملك ابتسامة حلو ، وقد ذكر ان حنة كانت تطرز حلقاته
هنري توشيت .

أما فرنسوا فقد بيت وقلق لهذا الحادث الذي لم يكن يتوقعه .

فقال له الملك : أراك يا مارتال قد انتفعت ، وحفك ان تدعش لعرقني مثل هؤلاء الناس .

ولكني أحب التزه في باريس كعامسة فومها وأنا متشكر ، فأجول في شوارعها وقد كاد يقتلني الضجر في البوق ، فأبحث في تلك الشوارع عن بلبسة حلوة وانعطاف طاهر وكلام صادق وقلب نزي دعائه كأنه منظر تحت زجاج شفاني .

وقد اتقي في مرة في طوافي في ذاتي احتجت إلى مطرزة ماهرة فأرشدوني إلى هذه العامة ، والفتيتها من أصدق الجمالات وأمهريه ، وأبعدهن عن الفضول .

وهذه المرأة تقع في المذات التي ذكرتها ، وهي تشتغل بالطربيز ، كما قلت ... وأزبدك على ذلك ، إنهم يلبسونها ، ذات النقب الأسود .

قاصد وجه فرنسوا ومدج صوته ، وفسأل بالهجة مضطربة ، كن يجيش لكاه :

- إنها تلبس القناب الأسود يا مولاي لأن رجلا سفاكا ، وآخر مذبذبا قد حنكا عليها ..

أما سفالك فهو أخي ، وأما المذنب فهو أنا

نعم أنا المذنب ، لقد أخطت القبرة بصبري ، واخترت بالطواغر ، وأقت سبعة عشر عاما أبحث عنها ، ولا أعلم أي حية فترجى أم بيعة فتسكني .

إن ذات القناب الأسود يا سيدي تدعى حنة ، كوتلي هي بيانس ومارجيتي وكانت تدعى دوقا دي مونغورانسني .

وقطب الملك حاجبيه لدى هذا التصريح لأنه كان يعلم عن حنة دي بيانس

ما يعلمه الأكتيون .

وهو أمها تزوجت سرآ فرنسوا دي مونغورانسني ، وأنها عاقت منه بلطاح والده أمير الجيوش على الملك هنري الثاني ، ولوسط هذا الملك لدى البابا بإيامة هذا الطلاق .

وكان يعلم فوق ذلك ان زوجته دينا دي فرانس كانت تعيش مع زوجها للرشال حيشة حرة واقتراف لا عيشة زوجين متقنين .

ووجد هذا الملك نفسه ، في موقف حرج ، لدى قضية عائيلة يصب عليها

وكأنما فرنسوا ، أمرك بالقراءة ، ما كنت يحول في خاطر الملك فقال له :

- ليس المراد يا مولاي ان تبحث الآن في قضية زواج مجدد ، او طلاق يتفق ، بل اني قادم لالتاح العدل من مراسم الملك . أسأل قمعك يا مولاي ، لشفتين متكودتين ، عاشتا زمنا طويلا في أشد تكده وشقاء ، ثم اعتطفنا كما يحتطف أمير الاغنام حين لاح لها في معاء عيشها جازر رجاء .

مولاي اني حين عفت بخلتي المائل الذي ارتكبه وعزمت على إصلاح هذه الخطأ ، علفت في الوقت نفسه ان الأم والبنت قد اختطفنا ، وانني مسا جئت أطلب للعدالة إلا في شأن هذه الاختطاف . . انني أطلب إطلاق سراح الشهدية وابنتها وان تكرها ذلك المختطف لكاسر على ردهما . أما المختطف الكاسر فهذا هو

وقد أشار فرنسوا عندها بقبضة يده إلى الباب وقد فتح ودخل منسبا أخوه هنري

وكان هنري مصفر الوجه وقد زاد اسفاره حين رأى أخاه .
وجعل كل من الاخوين ينظر إلى الآخر نظرات تجسم فيها الخد والفضيحة

وقد وقف هنري عند الباب كأنه لا يجسر ان يتقدم .

ومع ذلك فإذنه حين دعي الى الوفير كان يعلم انه سيلقي أعاءه ، وتأمير
لهذا القدر ، واستعد لتفحص كل ما يقول أخوه ، بل انه تأهب لأمر يسعق
به أخوه سعداً

ولذا ابتسم ابتسام الساهر حين ولج الى قاعة الملك ، غير انه ما لبث ان
رأى أخاه حتى زال الابتسام .

ولم يطل الاضطراب لأنه ما بيده من الملك وقد رجع إلى الابتسام ، ابتسام
المتضرع فاحش أمامه وقال :

— مولاي اني أثبت بأمر جلائك .

وكان بارداليان يرافقه ، وقد أدرك بغطنته ، ان عبقبه اندرارت
بشر عظيم .

وما أخطأت فراسته ، لان هنري لم يكن ينوي الاقتصار على نقض اقوال
أخيه ، بل انه كان يريد ان يضربه ضربة قاضية فيرسل به الى الشنقة او يسجنه
في الباستيل الى الأبد .

ولا يحتاج في ذلك إلا ان يوجه بالمر الذي سمعه عند اليس دي ليكن
فيقول :

إن ملكة النبالجار والبرسي دي كونديسة وكوليني في باريس ، وان
فرنسوا دي مونورانس قد اجتمع بهم ، واتمرو معهم على اختطاف
ذلك فرنسا

وهذا الفكر هو الذي كان يدعو إلى الابتسام .

أما الملك فإنه قال بلهجة الثأر :

— إنني دعوتك بناء على طلب اخيك فاضم الى ما يقول عنك واجيبه
بمعد ذلك .

ثم نظر الى فرنسوا وقال : تكلم

وقال فرنسوا بصوت خافت ،

— التمس من مولاي ان يسأل عما فعلت بحضرة دي بيانم ، وبنوربا
ابنهما وأبنيتي

فسكت هنري ولم يجب الى ان أمره الملك بالكلام .

فنظر هنري الى أخيه ، كما ينظر العقاب إلى فريسته ، ثم التفت الى
الملك وقال :

— وأما التمس من جلالة مولاي الملك ، ان يسأل حضرة المارشال عن
قصر كان فيه ، في شارع بيكيني ، ومن كان يوجد في ذلك القصر ، وماذا
حدث فيه ؟

فاستقر فرنسوا اصفرار الأموث وشعر ان رأسه يتقلقل ، كأنما لمست
يد الجلاء .

وحاول ان يجيب فاشفق صوته وقال له بصوت ضعيف لم يسمعه الملك :

بالك من شفي سائل .

فقال هنري : إن حضرة المارشال لا يريد ان يجيب ، فإذ
أجيب عنه .

وعند ذلك تقدم بارداليان ، حتى اقترب من كرسي الملك ، وقال
لهنري ، بلهجة تحيت الرجاء في قلب فرنسوا : مولاي ... يا سيدي
البرقي .

ثم نظر الى الملك وقال :

— أسأل جلائك المبر عن جرأتي ، ولكنني أثبت شاهداً ولا بد لي
من الكلام . ولذلك أقول ان جواب المارشال على سؤال أخيه لا يفيد
جلائك بشيء .

فابتعض هنري وقال : لماذا ومن أنت ايها الرجل الذي يجسر على مخاطبة
الملك قبل ان يسأله .

فأجاب بردليان : لا فائدة لك يا سيدي الدوق من معرفة اسمي ، لأن
العبرة بسؤلك . . . ثم لا فائدة من سؤلك عما جرى في شارع بيتيهسي إن
كنا لا نذكر قيادها ما جرى في فندق دفينير في شارع سانت ميشيل . . .
الثاعة التي يجتمع فيها الثمراء .

فتكلم هنري بصرة واضطرب اضطراب الريشة في صهب الرياح وفعل الملك
بما سمع ورأى وقال : ما هذه الألفاظ ؟
فقال بردليان : لا شيء يا مولاي سوى أن سؤال سيدي الدوق لا يلائم
له يا اجتماعنا لأجله .

ثم تراجع إلى الوراء ووجهه يشرق بنور المرأة ، وعينه تتنكر . . . وقد
الانتصار حتى إن الملك لم يملك عن الابتسام له والإعجاب به .
واعتدها قال الملك لهنري :

- أعتق يا دوق ما يقول هذا الرجل ، وهو أن سؤلك لا علاقة له بتعبك
مع أخيك
فتنهت هنري تهادياً يشبه الأئين وقال : نعم يا مولاي .

فنظر فرنسوا إلى بردليان نظيرة أعربت عما يخالجه قلبه من الاذعان كأنه
يقول : لا أنسى جميلك ما عانيت .

غير أن الملك لم يلبث بعد إقحامه لباردليان أن قطب جانبيه وخامره
الشك كما سمع لأن قلبه كان يباع خوفاً من المؤامرات عليه وقد رأى من كلام
هنري ما يجعل على الرب بفرنسوا ، ومن كلام بردليان ما يثير الظنون بهنري
فنظر إلى هنري وقال :

- أنت لم تقل ما قلته عتاً وقد ذكرت شارع بيتيهسي فقل لي أي منزل
عانيت بهذا الشارع . . . قل لي أي منزل ان أهل .

وكان الملك يعلم أن منزل الأميرال كوليتي أشد أضراراً فهو كينوت موجود
في هذا الشارع .

أما هنري فقد أترك لهوره حرج موقفه ورأى أنه لا بد له من إلقاء أخيه
إذا أراد أن يسلم من بردليان .

ثم رأى أن حمة أخيه يوسع فيها مجال النقض خلافاً لتهمته لأنها ثابتة بينة
على الجدل .

ثم رأى أنه لا يتجبه من مسبقاً الموقف الكريه ، غير الإسراع في
الجواب ، وبذلك جهداً فوق جهد البشر كي يستجمع قواء العقيلة ويقتلق
حبة بقعة بها عتداً الأحم ، التي لا يريد له قسيع الموت ، فنظر إلى
الملك وقال :

- مولاي اني أردت بذلك الشارع منزل الدوقة هي كيز . . . والحكاية حكاية
سنة كما ترى .
فالتسم شارل التاسع .

وقال هنري : إنني أعترف يا مولاي اني لا أروى هذه الحكاية إلا مكرهاً
لأن الدوق هي كيز من أصحابي .

وقد كان الملك يتكلم بتهنئة هنري هي كيز كرهاً شديداً ويعرف أن امرأته
لا تبيع التبع النسوي ولها حديث مشهور مع الكونت سانت ماجرين فضحك
ضحكاً عالياً وقال :

- أخفض صوتك ، لأن الدوق هي كيز والكونت سانت ماجرين وراء
هذا الباب .

- إننا لقد عرفتم يا مولاي .
فضحك الملك أيضاً وقال : لقد عرفت دون ريب وانك لم أعرف بعد
مسألة فندق دفينير ، وأرى علاقة لها في هذه القضية .

فنظر بردليان إلى هنري نظرة مفادها (انك أنفقتنا وسأفقدك أيضاً)
ثم أجاب الملك قائلًا :

- مولاي ان دفينير فندق طيب ، يجتمع فيه القباضة في الشعر ، فيحضر

هذا الاجتماع بعض السيدات فنيلات وبشركن مع الشعراء في المباحث
الشعرية والسياسية .

غير انه يتفق بعض الأحيان ان الشاعر يلبس ملابس من الحرير فربما يكون
ورشاشاً فوقها بلون البنفسج .

فانتم الملك ، لأن الكونت سانت ماجرين كان يلبس هذه الملابس .
وقال في نفسه : ما كنت أود إلا ان يسمع النبوق دى كيز من
الأقوال .

وقد ايتسم هنري أيضاً لابنتهم الملك واضطر فرنسوا كذلك إلى الاتباع
لتأييد هذا الاختلاق .

ثم مسح فرنسوا العرق عن جبينه ، وانتظر إلى ان قرع الملك من
ضحكته وقال

- إني أتيت التمس من جلالتيك يا مولاي ان تأمروا بإطلاق سراح الأم
وايتها لاتها احتفظنا وسجنتنا بالرغم عنها .
نعم . أوضح شكواك .

- لقد قلت جلالتيك يا مولاي ان حنة كوتس دى بيانس وابنتها لوزيا
احتفظتا بالعرف من مزقها في شارع سانت ميسس وان الذي احتفظها كان
أخي هنري دوق دامبيل .

فقال الملك غامطاً هنري : أحمت يا حق ؟ .. لماذا تجيب عن
هذه التهمة ؟

- إني أنكرها يا مولاي كل الإنكار ، لاني لم أر هاتين الرئيستا
منذ سبعة عشر عاماً ، وهي تهمة باطلة لم يدفع أخي على الأقدام عليها
الحقد الدين .

فقال فرنسوا : إني لا أجسر على تكدير صفو جلالتيك بمرح من مثل هذه
الشكوى إلا ولدي من البراهين ما يثبتها .

وهذا الشكاليه دى بارداليان ، لقد أقام يوماً ونصف ليلة مختبئاً في
تصحر أخي ، فإذا تفضل مولاي فيسأل الشكاليه عما سمع ورآه في
ذلك التصحر .
فقال الملك غامطاً بارداليان : اقترب منا يا شكاليه وتكلم .

فدنا بارداليان ، والحق أمام الملك باحترام عظيم ، فخرج بالكبرياء
وقال له :

- التمس من مولاي ان ياذن لي بمسؤال الحق ، كيف يريد أن
أبدأ قصتي ؟
فأجاب هنري قائلاً : لم أفهم شيئاً .

فقال بارداليان : ان المسألة سهل فهمها ، وان لكل حكاية بداية ونهاية
ووسطاً ، فقل تريد يا سيدي ان أبدأ من النهاية ، أي من المزيكية التي
خرجت من التصحر سرراً في ظلام الليل ؟ أم تريد ان أبدأ من اولها بذكر
وكيليم جيل ؟

أم تتوهم ان يكون البدء من الوسط ، أي بذكر تلك الحادثة التي
جرى فيها الحديث على أمور كثيرة أخصها ما تعلق بخادمك الطيب بارداليان
والرجل الذي جاء خصيصاً من الباستيل للعدالة معك .

فارتعش هنري لكلامه ، وأسأله من الحرف نفس ما أسأله ، حين
كلم يذكر مؤامرة القنوق ، وأيقن انه عارف بكل ما جرى بينه وبين
حاكم السجن .

ولكنه تجمل وقال : إبدأ من حيث شئت .

فقال بارداليان في نفسه : لقد امتعبت لذا التصحر .
إذ وثق ان هنري سيعترف بكل ما يريد ان يعترف به بعد ان لوعده
هذا الوعد الخفي .

وقبما هو يحاول ان يبدأ الحديث فتح باب غرفة الملك ، فتنظر إلى الداخل

واستحق صوته فلم يستطع الكلام .

ذلك ان الذي فتح الباب ، ودخل بدون استئذان ، كان الملك
كثيرين .

وقد دخلت وركبت الباب مفتوحاً ، ورأى يارداليان ورواهما في غرفة
الغائرة النوق دالجو وكاليس ومورفر وناسي رئيس حرس الملكة وعشرة
حراس فقال في نفسه : لقد بدأت العاصفة فلتأهب .

ودنت الملكة من وادعا وهي تبسم : فقال لها الملك بصوت يشهدح
من الغضب :

كيف يكون ذلك .. اني اذنت البارشاك دي مورفر ناسي بمقابلة خاصة
فلا يحق لاحد الدخول حتى انت .

فاجابته الملكة وهي تبسم : اني عارفة بذلك يا بني ، ولولا بقية
من ان دخولي يرضيك ، لا اقدمت عليه بشئ هذه المفاجأة التكررة ، ولكني
أتيت لاجريك انه يوجد بحضورك الآن عدو لملك ، وعدو لانيك ،
وعدو لك .

فتنفس هنري وقد أعلن انه نجح .

ولوقع فرنسوا ان يكون هو المنتم فشمع ياقه مستكبراً .

ولبت يارداليان صافهاً على السكينة .

أما الملك فانه نظر الى ما حواليه كانه يبحث عن هذا العدو وقال لها :
ماذا تعنين يا قولين يا أماء ؟

أجابت : أعني انه يوجد هنا الآن رجل لا أعرف بياقة جرأة دخلت
الى اللوفر ؟

وان هذا الرجل امان أخاك النوق دالجو ونجاسر على إشهار السلاح عليه
وهو قد سكرني أذاً أيضاً .

من هو هذا الرجل .. اذكرني اسمه .

هو هذا الرجل الواقف أمامك الذي يدعوته يارداليان .

ودنى الملك في الحال الحراس خائلاً : تعالوا واقبضوا على هذا الرجل .

فأسرع كاليس ومورفر قبل أن يتم الملك جمله ودخلا إلى غرفة الملك ،
ثم تلاهما ناسي بجراسه .

ووقف فرانسوا منتصباً حائراً وهو لا يعلم كيف يتصرف يارداليان ، وأبدن
هادي انه نجح بفضل الملكة .

وأما يارداليان فانه تأهب عند دخلت الملكة .

وقد نظر نظرة سريعة إلى أولئك الجموع ، فرأى الملك واقفاً بأمر بالقبض
عليه والملكة تصطرب غضباً وتشير بأصبعها اليه وفرنسوا يدنو من الملك كي
يتدخل في أمره ، وهنري يشهد فرحاً كي يفسح المكان للحراس ،

والحراس ، وفي طلبيتهم ناسي وكوليس ومورفر يمدقون به برهوت
المجرم عليه .

رأى كل ذلك بشرة واحدة كما يرى الأشباح في الأحلام فاملتقى حسابه
بسرعة التصور وضرب به أول الحاجين عليه وهو كاليس فأطارت الضربة
حوله فسقطت عند رجلي الملكة .

وعند ذلك ، جردت سيوف الحراس ، وهجموا على يارداليان هجوماً
واحداً .

ولكن يارداليان رجع بخفة النمر إلى تلك الشائفة الكبيرة لتشرق
على نير السين وهو يقول :

— السلام على عدل الملوك ... إلى اللقاء ايها الأسياد .

ثم ولب من تلك الشائفة إلى النهر .

وكان مورفر وناسي قد وصلوا إلى تلك الشائفة حين يبلغ يارداليان إلى
الباب فربما قد سمح في السباح حتى وصل إلى الضفة .

وصاح النوق دالجو أطلقوا عليه الرصاص .

فأمر مورفر إلى بتدقية معلقة في الجدار وأطلقها على يردليان
ولكن يردليان لم يتدان إلى الانقذات ولبت بسير الهوناء كأن
أن يصدوا راجعاً وهذه العيون تنظر إليه .

فأخذ مورفر بتدقية ثانية وأطلقها عليه فأخذها أيضاً .
وكان يردليان قد وصل إلى منطلق وأيقن أنهم لا يروونه فحمل عنه
ذلك برقص جدياً في القرار .

كان للقرار يردليان تأثير عظيم على الملك والملكة وجميع أولئك النبلاء
وسادت القوضى بينهم وجعل كل منهم يرثي بشأنه رأياً .

وكان أشدهم أسفاً للملكة لأنها كانت ذقة عليه .

وقد سر اللوق دي كيز للقراره وشجائه وجعل يتعسر على هذا البطل
ويقول في نفسه أنه بطل معركة الجسر فهو عدو للملكة وعند اللوق دالمجر ،
وقد أبى أن يكون في خدمتي ، فقي خدمة من يريد أن يكون .

وقال مورفر بصوت مرتفع : ليصدر إلي الأمر بالقبض عليه ، فلابيت
الليلة إلا في السجن .

فقالت له الملكة : لند اعطيناك الأمر فافعل .

وقال الملك : وقد وقف مقبضاً ، يجب أن تبصروا عن هذا التمرد في
جميع أنحاء باريس حتى تتقروا به وترسلوه إلى الماسكيل .

ثم التفت إلى فرانسوا وقال له : أعتك هؤلاء الناس الذين تأتي بهم ليلاً
يا حضرة المارشال .

وقالت الملكة : أن حضرة المارشال متقطع عن الوقر ، فهو يختار اصحابه
في غير هذا الشأن .

وابلسم هنري ابتسام المنصر ، فسكت فرانسوا إلى أن تروى العاصفة .

وقال اللوق دي كيز : أنت المعبود دي مونفورنسي لا يصاحبك
أعداء الملك .

فأجابته فرانسوا قائلاً : أصدر أيها اللوق من أن أجيئك ، فما أنت ملك
ولا ملكة .

ثم قال له بصوت منخفض : أو أنك لم تلبس الشاح بحد بلزهم عن
رغبتك فيه .

فذكر اللوق دي كيز وتراجع .

وقالت الملكة لتخاطب الملك : ان تشفاليه يردليان قد اهانتني في حادثة
باروجياك في غير هذا المقام ، وقد تجاسر على أن يتهدد أشاكال اللوق دالمجر ،

ليس كذلك يا هنري ،
- هو ذاك يا أماء .

وعادت الملكة كاترين إلى محادثة الملك وقالت :
ان هذا الرجل يا بني خطر علي وعلى أخيتك .

فقال لها الملك : كفى يا أماء ، فقد أمرنا بالقبض عليه ، وستؤدبه لأديباً
يكون به عبوة لسواء .

ثم ابلسم وقال : وسوف ترون أنني أحب عائلتي أكثر مما تحبني .
وعند ذلك أشار إلى المصور إشارة مفادها أنه يريد أن يبقى وحده .

فخرجت الملكة مع اللوق دالمجر ، وتبعها الجميع ما خلا فرانسوا وهنري
فأبنا بقايا في مكانها .

فنظر الملك إليها متعجباً وقال : اهتني قلت أن الهاربة قد انتهت .

فقال له فرانسوا : وانكسك وعدتوني يا مولاي أن العدل سيجرى بحراه
وأنا انتظر .

- صدقت فقل إننا وأظهر شكواك .

- لما كان يردليان وهو شاهدي قد مضى ، فأنا أقول عند ما سمعته وما
رأته . أنت مركب يا مولاي خرجت ليلة أمس من قصر دي مسج سراً ،

وكان فيها امرأتان ، فسواء أيسطيع الانكار .

فأجاب هنري بلبه السكينة : أهي لا أذكر ما يقول ، وما كان جلال
ذلك يكبرني على قهر ربح ، فإنا أقول الآن بحضوره مسالا أقوله أمام
أحد من الناس .

فاعلم يا مولاي أن دوقه صبية ووسيفتها قد زارتني ، ثم طلبت
إلي أن أوصيها إلى قصرها ، فقبل بأمر مولاي أن أذكر اسم هذه
الدوقة أيضاً . . .

فضحك الملك لاعتقاده أن هذه الزائرة الدوقة هي كيز وقال : كلا ، ولا
حاجة إلى فضيحة المحدرات .

فظهرت على فرنسوا إعلان الياس تزويجه من أنه لا يستطيع اقتناع الملك
لا سياً وأهم لا ينظرون فيه بعين الرضى في البلاط .

وقد زاد يأسه فرار فريدريك فاطرق برأسه إطران القلوب وعلم أنه لا
يبقى له رجاء إلا في الأختاد على نفسه .

فقال له الملك : لقد رأيت يا حضرة البارثال إنك متزوج فساد مع
أخيك وكونا في المنزلة التي وضعتك فيها نينا كما فإنتكنا من أشراف الأسيات
الفرنسية ويسوء أن يستفعل بينكما الخصام .

وخرج الأخوان ، وكان هنري ضاحكاً ساخراً ، وفرنسوا قانطاً
كثيراً

ولما وصل إلى دوقه البلاط حة فرنسوا من أخيه قائلاً : أرى إنك لا تزال
تستخدم دلالاً واحداً ، وهو سلاح الكلب والتميمة .

فأجابه هنري بلهجة الساخر : لي سلاح آخر استخدمه حين تريد .

ونظر فرنسوا إلى أخيه نظرة دعوية ووثق يده على قبضة شنبهه ورفه
ثم أن يقته لقوره ، ولكنه فكر بأمراته وإبنك . وعلم أنه يستحيل عليه أن
يبدعها إذا قلته فارتد عن هذا الحاضر وقال له :

— أفي أمهلك ثلاثة أيام للامعان والتفكير ، ولكنني حين أحضر إلى قصره

تكون المهلة قد انتهت ، فإذا كنت لا تود هاتين التمسيتين في خلال هذه
المهلة فأحذر نفسك في منزلك ، وفي القوم ، وفي الشارع ، لأنني قاتلك
حيث أجعلك .

فأجابه هنري بلبه السكينة : سأنتظر واحداً .

- ٤ -

الحبيب الأول

كان في جبل سانت جتيفان دير مشهور إمتاز عما سواه من الأديرة
بأمرين ، أحدهما وجود طفل فيه ، والآخر وجود راهب غير متقيد بنظام
الدير وقيد الرهبان .

وكان هذا الطفل يناهز الرابعة من العمر واسم جاك كليانت فكان الرهبان
يدعون ثارة جاك وطوراً كهبانت .

ولكنه كان بعيداً عن تشبه بأمثاله من الأطفال ، فإنه كان يحب الوحدة
ويتفر من جميع الرهبان ما خلا راهباً واحداً يدعى دانيكارولا ، فإنه كنت
يأس به ولا يكتم سواه .

وأما الراهب فقد كان دانيكارولا الذي تقدم لنا وصفه في غير هذا الفصل ،
فإنه كان يتيم نازح في الدير ، فإذ أقبل الليل ولم يكن لديه خطبة ياتياها
خرج من الدير فلا يعود إليه إلا في الصباح ، وقد انهكه التعب والسهر ، فلا
يتم أحد أربع ذهب .

فقلت انه قبل الموات التي رويتها في الفصل السابق بيومين ، كان هذا
الراهب جالساً في الحديقة وأمامه ذلك الطفل يفتح القراءة
وكان مشتت البال دائماً في مهامه التفكير إلى أن تباه الطفل من ذهنه ،
فتنهت والتمت إلى الطفل فنظر إليه نظرة حنو وقال له - اقرأ يا بني .
فقرأ الطفل النسطر الأول ، وقد وضع أصبعه على النسطر وجعل يقرأ قراءة
متقطعة ويعرفك - « أيتها ... التي ... في ... السموات » .

ولما قرأ هذه الجملة توقف وقال : من هو هذا الأب ؟

فأجابته الراهب قائلاً : هو الله يا بني ، فإن الله أبو جميع الناس مثل أبينا
الذي نراه في الأرض .
ففكر الولد حينها ثم قال : (إذا لنا أبوان ، واحد في السماء وهو أبو الجميع
وواحد في الأرض لكل ولد مثله .

فسر الراهب لثقة الولد ، ونظر إليه نظرة شفت عن اعترافه به ،
وقال له : امض في قراتك يا بني .

فعاد الولد الجملة الأولى وعاد بعد قراتها إلى الاعتراف وقال :

- إذا أنت لك أب ؟

- موه ريب .

- وكذلك الرهبان والبيستاني واليويا ؟

- نعم فلكل انسان أب .

- إذا كان ذلك فلماذا لا يكون لي أب أيضاً كسائر الناس ؟

فاصفر وجه الراهب وتأم وأجاب الطفل قائلاً :

- من أبائك يا بني أن لا أب لك .

- ذلك شاعر فلو كان لي أب لكنت معه ، فإني أرى جميع الأولاد
يأتون يوم الأحد إلى الكنيسة يصحبهم أبؤهم وامهاتهم ، أما أنا فلا أب
لي ولا أم .

فقلت يا بنيكارولا حائراً مستظرباً يريد أن يتبين الولد فلا يصبر .

ولكن الولد لم يجازم سكوته وتفكيره وقال له : أنت وحيداً في هذا
الوجود ولا أب لي ولا أم .

فأجابته الراهب بصوت مرتجف : وأنا ماذا ؟

- أنت ؟ أنت لست أبي .

فاضطرب الراهب اضطراباً شديداً ودفعه الخنو إلى است يضم ولده إلى
صدره وهو ولد ليس .

ولكنه تراجع عن عزمه واستمر إلى التفكير حتى إذا رأى الولد أبت
لافتة في ذلك اليوم من مباحثته ، استأنفته بالانصراف إلى الحب ، فأذن
له وانفترقا .

أما الراهب فإنه عاد إلى غرفته وهو كئيب فانتظ ، وقد ثقلت له اليس
بني ليس تلك الجاسوسة الحسناء التي عبرت انفسام حياته ودفعت به إلى
مهادي اليأس ، فرأى انه لا يزال يحيا .

وقال في نفسه : لا بد لي أن أراها .. فإني منذ رأيتها أبت الاعتراف
المرت في لزامي مكان ذلك الحب القديم ، وجعلت أحبي الياسي ساعراً
مهبوماً ، فإذا عدت بعد ان اضلكتي الشعب وغفوت ثقلت لي في الحلم ، فكان
الحلم أشد هولاً من الحقيقة علي .

نعم لا بد لي أن أراها .. ولكن ماذا أقول لها .. وأين أجد
ذلك الشجاع القدس فأنفذه إلى نفسها المدسة ، فأجعل لتلك النفس
جمال جسمها ..

ولكن ذلك محال ولا الهالي كيف كانت ، ومهما دنستها آلام الجاسوسية ،
فإني أحبها وربيق لي صبر عنها .

ولما انقضى ذلك اليوم وقبل الظلام خرج من الدبر حسب عادته .
وقد كان يخرج كل ليلة فيسير لها دائماً لا روية له ، حتى إذا برغ الفجر

ولكنه في تلك الليلة ذهب قوياً إلى اللوفر ودخل في منعطف يؤدى إلى شارع لاماش ، فذهب منه إلى ذلك المنزل الذي تلقى فيه ليس ، ووقف غيباً تجاه ذلك الباب .

وكان في كل ليلة يخرج من الدبر فيطوف في الشوارع ، ثم يشعر أن بدأ غيبية تندفعه إلى ذلك المنزل ، فيقف عنده نايه إلى بزوغ النجم فينظر إليه فيسكني .

ثم تهيج أحقادها فتشدد عيناه يبارق من الانتقام ، ثم يعود إلى الكلب والميلان فيرجع إلى الدبر منكس البصر مطرق الرأس .

أما في تلك الليلة فقد ذهب تراً إلى ذلك المنزل ، وكانت تبدو عليه علامة العزم الأكيد ، وفي بيته الولوج إلى ذلك المنزل .

فلما وصل إلى الباب شعر أنه يستحيل عليه إطرافه ، فكان كلامه يده إلى الطريقة واجعت ، فعاد إلى موقفه قائماً متردداً لا يعلم ماذا يفعل .

فما هو واقف في هذا الموقف لا يعلم ، أبطرق الباب أم يقتل الجدار ، سمع صوت قبلة وقع من قلبه وقع الصاعقة ، وهاجت به القدرة حتى كاد يندفع .

ولكنه ضبط نفسه ورأى أن الباب قد فتح وخرج منه رجل .

وكان هذا الرجل ديومات ، تشبهه الراهب بالنظر وهو يقول : انه خرج سعيداً ظافراً مقمداً قلبه بالرجاء ، ولما أنظر إلى هلاله ، وقبته أظلم قلبه باليأس .

وقد صير نحو ساعة وهو يغالب العيرة ويدافعها إلى ارتعاش غلبته ، ولم بالدخول فمشى إلى ذلك الباب .

ولكنه ما خطا خطوة حتى رأى الباب قد فتح أيضاً وخرج منه هدي مني موفورائشي وسار مسرعاً لا يولي عن شيء .

فأسرع الراهب ودخل من ذلك الباب فبسط أن تقفله لورا العجوز ، فعدت لأول وهلة انه المر كيز بانكيكارولا ، ولم تعثره قد دخل الراهب مسرعاً إلى ذلك المنزل الذي خرج منه ديومات وهدي .

ويذكر القراء ان هدي لم يتصرف من منزل ليس إلا بعد اتفاقه معها على ان تسجن عندها حنة وبينها ، وفي مقابل ذلك يكتم سر حبيلها ديومات .

فلما ذهب هدي جلست في مقعدها مفكرة فاطمة وقالت : وياه من يتقدي من هذا العذاب .

فأجابه صوت الراهب من خارج الغرفة قائلاً : أنا .

فوقلت ليس مضطربة مندعة ، ورأت حبيلها الأول فاضطر لها بسرعة التصور انه قد تمن ملياً بعد ذلك الاعتراف ، وان الشفقة عليها قد ادركت قلبه .

فاندفع من اللكة ذلك الكتاب الذي استكتبها ايده ، فكان سلاحاً قائداً بيد الملكة ، وانه قادم اليها الرد ذلك الكتاب .

وقد زادها ثقة بصدق ما ظنته تلك الكفة التي أجابها الراهب بها .

فاستدلت منها انه قادم لاتقادها ، واستثار وجهها بنور الرجاء فقالت : من أرى .. كليات .. انك سمعت ما كنت اقوله ليس كذلك ، نعم انك عرفت بأسمي الآن وتحولت تلك القسوة التي استقبلتني بيها في القبر إلى رحمة ورحمان ..

نعم انك قلت لي صريحاً انك منقذي من عذابي ، ولا يستطيع سواك انقاذني في هذا الوجود ، فإني اصبحت في قبضة اللكة كالعصفور في مخالب الباري .

وكان بانكيكارولا قد دخل إلى الغرفة ، وبينما كانت تتكلم واقبل بإبهام من الداخل واصغى إليها ثم الاصغاء .

حتى إذا فرغت من حديثها قال لها : من هذا الرجل الذي خرج الآن من هنا .

فابتسمت ليس ابتسام التنصرة وايقنت ان القوية قد نشت فاده ، وان لا يزال حبيها ، أي انه لا يزال في قبضتها .

فدنت منه وقالت : ان هذا الرجل قد ارتحل غير تأخير .

— ماذا يدعى ؟

— المارشال دي دامفيل .

— فقال لها مقضياً : هو أحد عشاقك ؟

فتنهوت ليس وسمت يديها وقالت : كلياً .. كمن كريماً .. ولما كنت لا أريد معاملتي بالكرم والمرومة فلا أدري السبب في قدومك الي .

فتصرف الراهب بحركة عنيفة وشعر ان ذلك الحلب القديح قد عاد اليه بأثر ما كان ، ووقف بنظر الى ليس نظراً فينور اليائس فيراها ابدع لثقال .

فتقدمت ليس منه أيضاً وأخذت يده بيدها فشمعت وإرتجافه وقالت : كلياً انتك عدت الي .. وانك أردت ان تتقدمني من شقائي .. كلياً

ان شقائي هائل لا يحتمل بشر ، أريد ان تعرف ماذا يريد مني هذا المارشال ؟

فظهر الاضطراب على وجه الراهب وقال لها : كأنه لم يسمع مسألتك عن المارشال .

ليس إني قادم إليك للاتفاق معك .

— للاتفاق معي ؟

— نعم يا ليس فقد رأيت اليوم ولدنا .

فارتسمت ليس واصفر وجهها فقالت ولدي .. أين رأيت .. وأين هو . . دعني اتزى على الأقل بمناقشة هذا الولد الذي صكنت احبته من الأموات .

— لقد قلت لك انه يربو في الدير .

— ولكن الأديرة كثيرة في باريس ، وهي مفتحة الأبواب كالحصون ، فلي أي دير يقيم ، وكيف السبيل اليه ؟

فسر الراهب وقال في نفسه : يظهر انها تحب ولدنا .

ثم قال لها :

— لقد رأيت اليوم يا ليس وسادتك ، التقيت ما قاله لي ... انه سألتني كيف يكون لجميع الأولاد أباه وهو لا أب له .

فارتعدت ليس وقالت : التعلت ان تتسمع من فم هذا الطفل الصغير هذا القول دون أن تضمه إلى صدرك وتقول له : « أنا أبوك » .

— انه لم يقتصر على ذلك ، بسأل سألني أيضاً كيف لا يكون له أم اسوة بسائر البنين ، واقسم لك يا ليس ان صوت هذا الطفل كان يقطع القلب من الاشفاق ، لا يساحين قال لي : « إني وحيد في هذا الوجود لا أب لي ولا أم » .

فصمت ليس يدعا من اليأس ، وقد أمرت ان حبيبها الأول يريد الانتقام منها بهذا الولد .

فانه قال لها اللبنة أن هذا الولد يبحث عن أمه وسبقول لها في اجتماع آخر : انه يبني بكاء القاطنين ، ويسأل عن أمه الليل والنهار فلا يجدها .. وان الحزن سوف يقتله ..

نعم نعم هذه هي خطة الراهب الجهنمية ، فهو يريد قتلي حسرة على هذا الغلام ، كأنما ذلك الكتاب لم يروه من الانتقام .

أما الراهب فانه قال لها : أن هذا الولد قد حلني على الامعان والتفكير . ونعم يا ليس إني كنت أعدت لك انتقاماً عالياً ، لا يخطر في بال الأبالسة ، وقلت في نفسي : إني إذا كنت أريد أن أؤذيك بحق في انبتك بالغلام .. ولكنني على قرط حقدني عليك وعلى كوني اصبرت من العبارات

لا يزال في قلبي بقية من ذلك الحنو القديم الذي كنت تمهد به لي حين كنت
الابن المرحوم .

نعم إنني قد أكون تأثرت واشغقت ، لآتي جنتك اليوم أقول ..
ليس .. تريدني أن تروي ولغداً ..

فصمت ليس بعدها وقالت انت تقبل هذا .. إنني سألتك الغفران يا كهلانت
قد أسأت ظني بك الآن ، وحسبك حرد الانتقام مني بهذا الصلح ..
أحق ما تقول يا كهلانت .. انك إذا اغنت لي بأن أرى ونهني أقول ..
.. ماذا تقولين ؟

- أقول انك من رجال الله الصالحين واحترامك الأولياء .
- أما من أولياء الله ؟ - لقد أصبت ، فهذا كل ما يجب ان اطعم
فيه الآن .

- ماذا تعني بهذا تقوله يا كهلانت .. بالله أوضح ما تقول ، فقد علمت
حل المصبات .

- إذا تريدني ان تصلي حقيقة أفكاري .
- نعم .. نعم ، وهذا كل ما أريده .

- وهل تريدني حقيقة ان تروي ولدك .
- بل اني أدوب شوقاً الى الغياب .

غوقف الزاعب وقد ضم يديه الى صدره ، فظهر بل جماله وشبابه وقال
احسني يا ليس حقيقة أفكاري .

انك التبت إلي كي تعرفني لي وإلا أنتك كي اعترف لك .
واقسم بالله اني لا أقول غير الحق ، وانه لم يسمع كاهن من فم معلوم
أصدق مما يستمعينه من فمي .

وانك تتجددين فيما أقوله أموراً قد تدعلك ، ولكن يجب ان تصلي لي
نهابة حديشي ، ثم تحسكين بعد ذلك بما تشائين .

انني لا اظنك يا ليس ، إذا قلت لك اني لا أزال أحواك فقد عرفت مني
هذا الحب - ليس كذلك ؟

- نعم أعلم .
- وانك قد رأيت من قسوتي في تلك الليلة لية الاعتراف ما اكبره ،

وحسبت يده أن ذلك الحب الشديد قد استحال اني عداة أشد .
ولكنك عطفة يا ليس ، فاني كنت شديد الجفاء والعتف تلك الليلة ، بل
خطر في مرأ عين اعترافك ان اضبط بيدي على عنقك واخنتك شرحتي
فهر ان ذلك لم يكن من الكره ، بل من الغيرة وشدة الحب يا ليس .

ولا بد لي ان أقول لك اني بذلت كل ما يمكن بذله من الجهد في سبيل
تسليك فلم يجد السواون سبيلاً ان قلبي .

بل اني كرهتك كرهماً شديداً ، ولكن قلبي كان من التكاذيب ، ولم يكن
مثل هذا الكره إلا مثل تلك النجوم التي تلتد في الصيف فتسحب النور ،
ولكن الريح لا تلبث ان تفسحها فيظهر جلال الشمس .

ان هذه النجوم قد تتحول إلى عاصفة ، ولكنها قد تنقش أيضاً ، ولكن
الشمس تظهر بعدها في الحالتين أشد روعة وحرارة من قبل .

وهكذا كان غرامي يا ليس غيبواً تحت الرماد ، فحسبته قد انقضى
وذاك ، ولكنك حين نفضت بحضورك إلى ذلك الرعد عادت النصار
إلى الضرام .

ولا انكر اني كنت استترك يا ليس ، ولكن الغرام ما زال يغالب ذلك
الاستقرار حتى صرعه وايقنت اني مغلوب .

انني حين دخلت الآن وسمعت شكواك الأليمة ، علمت انك من
أشقر البشر ، ولكنك لست لشقية وحده ، بل نحن ثلاثة أنت وأنا
وذلك الغلام .

أما يا ليس ، فقد علمت بيتنا انه يستعجل علي العيش بعيداً عنك .

وأما الطفل فإنه يستحيل أن يعيش دون أن يتلقى بحبو الأمهات .
وأما أنت فإنك معترف بشغالك بدليل ما سمعت منك الآن
وقبل الآن .

ولذلك جئت إليك أقول أريدني يا ليس أن تهضي من تلك الهواية السيئة
التي سقطت فيها ؟ ..

أريدني أن يمحي ذلك الطفل وهو من حجبك ودمك ؟
أريدني أن أخرجك من ذلك الجمجم الذي قذفت به في
قولي أريدني ..

— كيف يكون ذلك ؟

— بأن تسافرني معي ومع القلام . أنتي غني في بلادنا الإيطالية ، ولي
مترقة عالية بين قومنا بفضل ثروتي ونيل استرلي . وذلك قبل بلاد الحب
والخيال ، فنبش فيها سميرين مع ولدتنا ، وإذا أحببت غير البلاد الإيطالية
سافرت بك إلى سواها .

فسكنت ليس وشجته هذا السمكوت فأتسع له مجال الرجاء وأخذه يدعا
بشده وقال :

أنا تسافر يا ليس إلى حيث تشاءين وتكون من أسعد البشر ، فإني أحبك
حبا إنساني كل آلامك ، وبنت أراك طاهرة نقية ، كما كنت من قبل وانت
تجيبين وذلك ، وربما أحببتني أيضاً بعد العشرة والأخلاق

أناك خدعتني وسأنتسى خداعك . وسلمتني إلى كافرين وانت تحسبن أنك
دفعنتني إلى اللوث ، وسأنتسى خيانتك وأكون معك عاشقا مفتونا أو زوجا
حنونا ، وتكون لك ثروتي وأصحي وحسباني .. أنك تعبدني يا ليس لأجلك
ولأجبي ولولدتنا . لتعبدني ؟

— كلا .

— كلا .

وأجبت ليس بلهجة دلت على بأسها ، أنت تؤولي أنا شديداً بهذه الافتراضات
التي لا يمكن تحقيقها .

— ولماذا ؟ .. أنتكفين بفراسي ؟ .. أم تخسفين أن ثنور فائرة العبرة
يرمى ؟ فيأضي علينا بالشقاء ؟ ..

أريدني بيتاً يا ليس .. إني أقسم لك أنه إذا خطر لي خاطر العبرة قلت
نفسى قبل أن أكونك بحجرت .

— لا شك عندي بفرامك ، يا كليانت ، ولا بسلطانك على نفسك ، وأنا
واثقة أنك تنسى كل ما مضى ، ولكن بيتنا نحن الاثنين واحد لا يستطيع
النسيان وهو أنا .

— ماذا تعنين ؟

— أعني إني أحب حياً لا تستطيع أن تزعه مني قسوة في الوجود ،
وإني حين أودع من أحب أودع الحياة .. كليانت ، التي أحب أن تنسى
خياتي ، وإني أضحي من أجل ذلك وسعادة ولدتنا ... ولكن نسيان
يهداك ..

وهنا ضحكك ضحكاً هائلاً وهزت يد الراهب بعنف وقالت :

— إنه ليس بعشيقى ... أصحمت ... وهو لا يكون زوجي ، ولكني
سأكون خطيبته ما حييت ، ولو اضطررت أن أزل إلى الجمجم لأقول له
أحبك ، أقبلت

إني مشوقة خائفة ، وأم لا قلب لها ، بل أنا كل ما تشاء يا كليانت ،
أقل هي ما تشاء ، ولكني لا أنسى يهدات ولا أقبل عن هواه ولو أكرهت
على أن أعترف له بحرائتي ..

إنه يكرهني بعد ذلك ويحترقني فأمرت ، ولكن يبقى في عزاء وحيد ،
دعواتي مت في هواه

وقد قالت هذا القول وبرقت عينها وبارق بديل على الجنون .

ووقف الزاهب شبهة وهو مضطرب حسائر ، ينظر إليها بدون حس
ويدهون كره .

ثم شهد نهدياً طويلاً والنصرف وهو يعلم انه لم يبق له فيها رجاء .

- 5 -

محاصرة الخيارة

بعد تلك الحادثة التي حوت في الخيارة بين بارداليان وأبيه ذهب بارداليان
الأكبر وهو مسرور وقلق معاً .

أما سروره فقد كان لأنه ألقى ولده وأنه أزال من نفسه تلك الضرورة التي
أحدثها تعرضه له في إيقاظ الأسيح تجد .

وأما قلقه فلأنه وجد في ظروف تضطره الى الافتقار عن ولده في قضاء
المهام ، واتصال الابن بأخوين متخاصمين . فإن الأب كانت يخدم هنري في

مونتورانسى وكان الآن متصلاً بأخيه فرنسوا .

وكان بارداليان الأكبر يقول في نفسه : ما شأن ولدي للدخول في مجال
بنيته ؟ فقد أفضى به الى علقه بهوى لوزيا .

أنظر أية فتاة اختارها كأنه لم يبق نبات في باريس يصلح لهواه .

ولولا هذا الحب لما كان لتفريق بيني وبينه ، ولاشغلتنا في مهمة واحدة
وجرت أمورة في أحسن مجرى .

لكنه أبى ان يتصالح بخاصي وجهه غرور الصبي على ان يتدفع مع تيار
عوار ، فذكرني ذلك اليوم الذي جئت فيه إلى مغزلي لوزيا وهي طفلة ورضعتها
في مهده ، فقد كان ينظر إليها بحنو وتظهر إليه بارتياح والطمأنينة حتى أنها
لمت متكئة على كتفه .

فإذا بقيت على ذلك الجمال ، الذي كنت أهدده فيها ، فهو
معلوم بجيها .

ولكن كيف اتفق انه لم يجب غير هذه الفتاة . . ومن اين تعلم هذه
البيدي . . . لقد قال لي : انه لو اتفق انفسه جرحني ، لا تلتزم والتمس
بنفسه بالنهر .

لا شك ان هذا الشبل من ذلك الأسد ، وبيع لي بما يقول إن أود ان يراق
دمي يحمله فداء نقطة من دمه العزيز .

على اني لا أعزل خدمة هنري في كل حال ، وأسمع طير ولدي بالرغم منه
إذا قضت الحال ، بل سأرده الى الصواب فهو زين الشباب ، لا يجوز له شيء
ليخرج إلى الكمال غير تلك المواظف التي تدفعه إلى التداخل بها لا يمتدحها ،
وسرى ما يكون .

وسار بارداليان الأكبر ترواً إلى قصر هنري ووصل إليه في الصباح ، وقال
الخادم الذي فتح له : إن المارشال ينتظره ببله الجزع .

فصعد إليه ، وكان أول ما قاله له : إن عيني لا تكادان لتفحصان من
تفحص .

فقال له هنري : ولكن أشعري ؟ قبل ان تنام بما حدث ؟ . وهل
حاجوك ؟ .

- نعم ، ولكنكم كلوا يريدون مهاجرتك ، فقلت بينهم وبينك .

- ولكن من هذا الذي حاجني ؟ . أكان يقصدني بالفتاة أم كانت
يقصد المركبة ؟

- كان يقصد الاتيذ يا سيدي .

- وانت الذي صدقت المحرم . أتخبرني ما حدث بالتفصيل ؟

- يظهر يا سيدي أنك كنت وأصبحت ريان الجفون من الكرى أما أنا فإني كنت أركض كل الليل .

واسمع يا سيدي الحكاية بالاجاز ، إننا لم نكنه نتجاوز مائتي خطوة المركبة من النصر حتى سمعت صوت غدارة قد دوى في الفضاء .

فأسرعت المركبة بالفرار ، وأسرعت أنا إلى حيث دوى الصوت ، فزأبت رجلاً يمدو مسرعاً في أثر المركبة ، فأطلقت ساقى للريح وتجاوزته وسكنت بينه وبين المركبة .

ووقف الرجل منفضياً وقال لي : هل عن الطريق

فأجبتني إنني لا أحب تغيير موقعي ، فإذا كنت مستمعاً قسري في طريق آخر .

فلم يجيني شيء ، ولكنه حمل علي حمة منكرة ، وطنعتني بحسامه طمئناً ما شككت أنها لقاضية .

ولكنني خلوت منها وجمعت عليه .

وما زلتنا نتفارع بالسيفين حتى كدنا التعب ووثب الاليسار وأسرع العدو فأقلت منه .

ولم يكن فراره عن خوف كالتبينت من فنون قتاله ، فقد كان من الأنبلان ولكنه هرب ليترك المركبة .

فقال هنري بلهجة اللطيف : أم تذكره ؟

- صبراً يا سيدي ، فإنه جعل يركض وأنا أركض في أثره حتى أدركته ، ولكنني لم أستطع القبض عليه .

- أتعلم أنك ؟

صبراً يا مولاي لأنه قد اجتاز النهر ...

وتشهد هنري قته الأرتياح وعلم باردالين من ارتياحه ان المركبة لم تسر فوق الجسر فمضى في حديثه وقال :

- إنه اجتاز النهر يا سيدي فثبتته ، وما زلت أطارد حتى أدركته عند باب ورويت .

وهناك لم يعد يستطيع الفرار فارلدي إلي ، وكان يبقنا فقال عنيق الي ان حانت لي فرصة وطنعته تلك الطعنة المماتة التي عشتك إيها في صالوك ، فأصابت منه مئة ، وكانت اللقائبة ، وقد أسفت عليه وانه لأنه كلت من البراسل .

- أمات ؟

- مات تقوده دون ان يقوه بحرف .

- أكان الرجل من الفتيان ؟ ... صفه لي .

- بل كان يتبع نحو الأربعين من العمر ، وهو خفيف شعر اللحية ، يلبس ملابس سوداء ، كأنه علم بصيرة ، وليس الحداد على نفسه مقدماً .

- لقد خدمتني أجل خدمة يا باردالين ، ولما كلت هذه الخدمة غير داخله المهام التي التفتتلك إليها فقد رجبت علي مكافألك عنها ، وسيدفع لك وكيلي ما تشقه .

فشكره باردالين وقال : أياذن في مولاي ان أماله إذا كان قد أرسل الكثر إلى محل ؟

- نعم وكان ذلك بفضلك أيها العزيز وبفضل اورتيس لياسل .

- أليكونت اسبرمونت ؟

- هو بنفسه ، لأنه كان يقود المركبة . واجتهد يا باردالين ان يكون في عداد أصحابك .

- سأمتثل يا مولاي لما تريد .

ثم اتقى أمامة وانصرف عائداً الى غرفته ولم يلبس

ولا صحاب من رفاده سأل الخادم عن المارشال فأخبره انه ذهب الى القصر بدعوة من الملك .

فقال بارداليان في نفسه : ما عسى ان يريد منه الملك فإني أريد ان أعرف كل شيء من أمره .

ثم ولب من سريره . وكان اول ما فعله انه قبض مائتي ريال ، وهي للكفارة التي وعدها بها المارشال عن قتل ذلك العدو الذي اختلق قصبة قتله ، وقال : لا يسارق هذا البيت غير المجرمين ، لان الذهب يطر من سقوفه .

وقد وضع القفوة في منطقته وقال في نفسه : أنتظر عودة المارشال أم أذهب لاري ولدي ؟

وبعد لتفكير ارتأى ان يذهب لقاء ولده وقد خطر له ان ولده أوصاه ان يحضر له كلبه فلم يبق بد من الذهاب .

ولذا سار فواً الى ذلك الفندق الذي طافا ضرب صاحبه ضرباً موجعاً ، حين كان يحضر على ان يطلب اليه تسديد دينه ، وخلفه ولده فيه ، كما يذكر للقراء .

فلما وصل رأى الواقد معدة والناس حولها يأكلون .

فنظر ورأى مائدة معدة لأربعة أشخاص ولم يكن عليها أحد ، فجلس ونادى الخادمة وأمرها ان تحضر له الطعام .

فأعترضته الخادمة قائلة : إن عشاء المائدة معدة لأربعة أشخاص ، سيحضرون قريباً .

ولم يكلمه لتلك الكلامها ، وأمرها ان تسرع باحضار زجاجة من الشراب .

فذهبت الخادمة وانعبرت رئيس الخدم وهو لوين ذلك الزاهب الذي أصرح

من الخبير واقم في ذلك الفندق قريباً على زواره كما يذكر القراء في حلقه لشعراء لمة مؤامرة الدوق حرك كبير .

فأسرع لوين مفضياً ، يريد تأديب هذا الزائر الذي يريد اغتصاب الواقد ، فدهش دهشاً عظيماً حين شاهد بارداليان ، واحتفل به أعظم احتفال .

ثم انتشر الخبر في الفندق وجاء صاحبه بدفعه الخوف للسلام على بارداليان وهو يحسب انه سيقع عنده حسب عادته السابقة وفي ولده الكفاية والياس ملء قلبه حتى ان عينيه قد احمرتا من القبط .

والكنه لم يسمه غير التظاهر بالسرور والاحتفاء بضيفه القديم .

فابتسم بارداليان حين رآه وقال : مالي أراك حمر العينين ، الملك بكيت فرحاً بقدمي .

وأجاب : إني لم أبك يا سيدي على فرط سروري بقدمك ، ولكن احمرار عيني من رائحة البصل ، ورجائي ان تلمع عندنا حسب عادتك لاني لا أنسى فضلك علي .

— كلا أيها الصديق بل إني عابر سبيل وقد جئت لأراك ولأدفع ذلك الدين اللدم فقد أصبحت غنياً بفضلك .

ثم ضرب بيده على منطقته ، فسمع صاحب الفندق زئج الذهب ، وأقم قلبه سروراً .

وفيا هذا على ذلك خرجت صبيحة من الطبخ ثلاثة صبيحات وجعل الخدم يركضون ويقولون : السارق السارق .

وقد كان هذا السارق كلب بارداليان فانه اختطف صبيحة مقبلة وهرب بالأمان خفية نحوار بارداليان قبسط يديه فوقها وجعل ينظر إلى القادمين اليه عينين تتدنان تاراً .

وكان بارداليان قد سمع أحد الخدم يقول هذا كلاب الشفالية فوقف عندها

يدافع عن صديق ولده فصد الحطم ومنهم من قال من غضب قاتلا إني سأرفع
عن ما سرقه .

فأمرو صاحب الفندق بالرجوع إلى المطبخ وأخذ الكلب يأكل الدجاجا
أمتا مطمئنا بفضل بارديان .

ورجع إلى عداوة صاحب الفندق وقال : لقد قيل في ان هذه المائدة معدة
لأربعة أشخاص فمن هم هؤلاء الزائرون .

- الفيكوت اسبرمونت وثلاثة من أصحابه .
فقال بارديان في نفسه : من عسى ان يكون أصحاب هذا الفيكوت لقد
بت مياثا إلى معرفة أسوال هذا الرجل لانه حاقده علي .

ونظر إلى الغرفة التي كان فيها الكلب ورأى انها خالية لا يوجد فيها غير
مائدة واحدة ولها باب رفيع وستائر شفافة ، وقد وضعت مائدة الأربعة
أشخاص عند بابها .

وطلب إلى صاحب الفندق ان يأتيه بالطعام إلى تلك الغرفة رجاء ان يسرع
ما يقوله الفيكوت وأصحابه .

وقد سأله ان يأتيه بكل ما لديه من أصناف الطعام جملة كي لا يئمه دخول
الحطم عن سماع الحديث .

وانصرف صاحب الفندق مسرورا بما رآه من ثروة بارديان أمتا ان يقبض
الدين القديم بعد القنوط منه .

ودخل بارديان إلى تلك الغرفة الضيقة فجعل يلاعب كلب ولده وهو
ينتظر حضور الطعام .

ويعد هنية جاهد الخادم بصيلة عليها كثير من أنواع الطعام ورضعها عن
المائدة وانصرف .

وكان ديسيو قد أكل آخر قطعة من السحاجة ورمى اليه بارديان بقطعة
من اللحم ، ثم قام ورتب الستائر بشكل يري من خلالها ولا يري ، ووضع

كريمه عند الباب كي لا يفوته شيء من الحديث وبدأ الأكل وهو ينتظر قدوم
الفيكوت وأصحابه .

ويعد هنية أقبل الفيكوت اسبرمونت ومعه اثنان من أصدقائه فجلسوا
حول تلك المائدة وقال الفيكوت : ما زال كريمي لم يحضر بعد .

ولكنه لم يكذب يتم جملته حتى رأى رفاقه كريمي داخل من الباب فقالوا :
هذا هو .

ودخل كريمي وهو أحد الزعماء الأربعة الذين كانوا يقودون الشعب يوم
حادثة المسر أي يوم حادثة ملكة الشافار فقال
- إني آت من اللوفر وهذا هو السبب في تأخري .

فأجابته بيزو وهو أحد الندماء وقد كانه يبدئا شديد المعين ، أكنت عند
هذا الملك المزعول .
ذلك أنه الفرط سمته ، كان يهد محاسبة الأجسام من العيسوب التي
لا تقهر .

فأجابته كريمي إني جوهرى الملك وصانع أساعته وقد دعيت اليه ببندقية
حديثة الفظار لا بد ان يعم استعمالها .
فقال الفيكوت : وماذا كان يقول الملك ؟

- إن الملك ميثال يملك إلى السلم يود ان يتصافح جميع الأعداء ، وان
يتعلق الكاثوليكين والموكنبوت ، ويقسمون إيمان الوفاء والإخاء ، وقد
أرسل رسولا إلى كوليني ومنذوية إلى ملكة الشافار لأنه يريد ترويج اخته من
ملك الشافار .

- حسنا سيدي منا ما لا يخطر له في قال .

فقال كريمي : ولكن ليس هذا الذي أعاقني عن القدوم إليك في الوقت
الذي بل ان الذي أعاقني أي كنت أنتظر عذما حادثة غريبة لا تصدق وقد
جرت في وسط قلعة الملك .

فصاح الجميع قائلين : إرروا لنا الحادثة .
وقال الفيكونت : عجل يا كيرسي روايتها لاني أريد ان اعرف ان تلك القديكات
من اللارشال .
- وان اللارشال كان له دخل في هذه الحادثة .
- ربما ، لانهم دعوه الى العشاء من قبل الملك .
- ولكن اعطت لماذا دعاه الملك . إنه أراد مصالحة الاسوان والتوفيق
بينها لانه لم يعد يتحدث إلا بالسلم .
ولكن اللارشال هنري أبى المسألة كما يظهر وقد كتبت واقفاً على الباب فلم
أسمع كل الحديث .
وفيها أتاني ذلك ، أقبلت الملكة كالوين ورود الدخول إلى الملك ،
فقال لها الدوق دالجو : إن الملك يعاقب مونجورانسي مقابلة خاصة .
فهدت الملكة كنفها وأبتسمت ثم دخلت إلى قاعة الملك وقد تراكمت إليها
ملفوساً .
قدولا كلنا الدوق دالجو والدوق دي كيز وسانت ماجورين وكاليس ومودفر
وانسي وجرامه .
ورأينا ان الملكة ، قبل ان يعترضها الملك بدخولها ، أشارت بيدها
إلى فنجان قادم مع مونجورانسي ، واتهمته بأنه أهانها وأهان ابنها
الدوق دالجو .
فاصفر وجه الملك من الغضب وأمر بإلقاء القبض على بارداليان .
ووقف الفيكونت اسجرونت وقال : كيف تقول بارداليان ؟
وكان بارداليان الأكبر يسمع الحديث من لفرفة فهلم قلبه خوفاً على ولده ،
واقرب من الباب كي لا تفرقه كلمة من الحديث .
فقال كيرسي : إنني سمعتهم يدعون هذا الشاب بارداليان .
- ولكن بارداليان كهل أعرفه حتى العرفان وسنقباز .

- كلا بل هو قتي وقد رأيتته بعينه اللارشال مونجورانسي .
- لقد أخطأت حيناً وهو بعينه هنري لا فرنسوا .
- إنني رأيتته بعيني وأنه في مستقبل الشباب . . .
على ان ذلك يدان انه يوجد انان يدعيان بهذا الاسم أنتد عرفت أحدهما
والأخرى الآخر .
والذي لم أعرفه اليوم ، بل من يوم سادته الجسر ، وهو الذي أنقذت
ملكنا اللارشال .
والخلاصة انه حين أصدر أمره الملك بالقبض على هذا الفتى هجم الجميع
عليه ، وفي مقدمتهم كاليس فصره بأرداليان بحسامه ضربة أطارت قبضته
وجرحت رأسه .
ثم وثب من السافذة إلى النهر وثوب النهر فأطالق مودفر عليه الرصاص
فانطأ وقوارى من الأبحار .
وعندها خرج انسي بجرامه ومودفر وإخوانه فذهب كل من جهة ليجت
من هذا الشيطان المرعب ولا يد لهم من القبض عليه .
ولما بلغ كيرسي بحكايته إلى هذا الحد فتح باب العرفة بعنف وخرج منه
بارداليان مضطرباً قليلاً .
ووقف الأربعة مذعورين ، ولكن بارداليان ابتسم لهم وقال بلطف وأدب :
أرجو ان تسمحوا لي بالمرور لاني مستعجل .
وكانت مائدة مؤلاء الأربعة عند مدخل الباب بحيث لا يستطيع المرور إلا
إذا قام أحدهم وأزاح كرسيه .
فقال له الفيكونت بلهجة التذلل : بارداليان .
وجعل الأربعة ينظرون اليه بالتدهال .
فأكبر بارداليان هذا الإبطاء وقال لهم : إفسحوا لي مكاناً للمرور : ألم أقل
لكم إنني مستعجل .

فانقسم الفيكونت لثلاثة اجزاء ولم يبق ارباعي الا في مواضع
فلم يبق في قوس بارداليان مزاج الصبر فرفس الثامنة برجة فانظرت وكثير ما
عليها من الصحون والقناني

وروي الفيكونت عند ذلك وامشق حسامه وهو يكاد يشق
من القبط وقال له : انك اهلنا امانة لا يعني الصبر عليها بها كنت
مستحبة .

فاجاب بارداليان : اجدر نفسك يا فيكونت لان حسامي ينفذ الى القوس
حين العجوة وقد قلت لك اني مستحيل ، فترجى هذه المباراة الى
حين آخر .

- كلا بل الان فلماذا ان تجرد حسامك ، او اعجم عليك قبل
لجريدته .

- ارى انك لست من اهل الطرف والكتابة يا فيكونت . وانت ارميت
فليكن ما تريد .

ثم حرق باثناؤه وقال : ولكنك تشكون من التناوبين .

وطبق كل من الحصين على خصمه واحتمد القتال بينهما بيثا كان الدم
واهل القندق يصيحون متذمرين .

وقد أصاب الفيكونت بارداليان في يده القتال إصابة في يده فجرسه وكاد
السيف يسقط من يده .

فقتل بارداليان الحسام من اليد اليمنى الى اليسرى ، ثم صاح بخصمه صيحة
هائلة وحمل عليه حملة شعواء .

ولم يزل يدفعه حتى الضعة بالجدار وطعته طعنة بجلاء أصابت كتفه فاشترقه
وسال دم الفيكونت كأفوا القرب .

وقد حدث كل ذلك بسرعة عجيبة وبأ رأى بارداليان ان خصمه بات عاجزاً
عن القتال خرج من القندق دون ان يفوه بكلمة ، وجعل يعدو عدواً سريعاً

وقد نسي كلب ابنه .

ولكنه لم يعتمد ماني خطوة حتى التفت ورأى الكلب يتبعه مسرعاً
ويقف خطواته .

وواصل بارداليان سيره السريع والكلب يتبعه حتى وصل إلى الحارة التي
رأى ابنه على القاء فيها .

وكان أشد الناس اشتياهاً من هذه الحادثة صاحب القندق لأنه كان يمثل نفسه
بعض دينه من بارداليان فذهبت آماله أمراج الرياح .

أما هذه الحارة التي ذهب إليها فقد كانت تتولاها امرأة عرقها بارداليان
الأكبر منذ عهد بعيد .

وكانت بارعة الجمال إلى أن شوه الجدري وجهها فجمعت ما كانت قد
اقتصدت في أيام مولد جمالها واشترت تلك الحارة .

والفرق بين هذه الحارة وقندق دفينسبر ان القندق كان يأكل فيه
كبار القوم من الكوتية والبارونات ، والحارة يشرب فيها الفقراء

وقطاع الطرق .

وكانت صاحبة الحارة واسمها كاتي ، يجيها جميع زبائنها حياً مفرطاً لشدة
رائحتها وحماتها .

فقد كان أسعد أيامها يوم تستطيع حياة لص أو متشرد من ملاحقة
الجسود .

ولما مثل بارداليان الأكبر التي هذه الحارة ذهبت كاتي للدم الذي كان
يسيل من يده واسرعت وأحضرت له مرعماً خاصاً للجروح ونظفت جرحه
ودعتته بالمرم ثم خدمت يده .

فشكرها بارداليان وسألها عن ولده فقالت له : إنه نام يوم تركته إلى الساعة
الثامنة من الصباح فخرج ولم يعد إلى الآن .

ولكنها قبل ان تم حملها نبح وبيو ، نباحاً قوياً فالتفت بارداليان

ورأى ولده كثيراً وهو يهتف من شدة الرقص فدخول إلى الحجرة وما رأى أباه
قال : احذر إليهم بلا حقوتي .



ولمعد الآن إلى الشغاليين بارداليان ، فإنه حين رك الوفر ، على مسا
وصقلناه ، ودخل في المنطق بعد أن احتسز النهر ، التقت ورواه
ولم يجد أحداً يشبه فسار مسرعاً إلى قصر فرنسوا موتورانسى ، وأقام
ينتظر فيه .

وبعد نصف ساعة أقبل المارشال عائداً من الوفر ، ولما رأى
بارداليان صعد إلى صدره وقال له : إن ذكائك يا شغالييه قد أنقذ حياتي
وحياة سواي .

فابتسم بارداليان وقال : لا أعلم عن أية حادثة تشكلت يا سيدي لقد نصبت
أنه يوجد منزل في شارع بينيسي يجتمعون به في الليل .

- يسرني أيها الصديق ان أراك جاسماً بين المروءة واليسالة والكرم ولكن
قل لي لماذا اهتمتك الملكة كافرين هذه الشهمة ؟

- إن جلالتها تافه على أشد التافه لأنى أبيت ان أقتل بأمرها صديقاً لي
وهو صديق تعرفه فإنه الكونت دي ماريلياك .

وأما الدوق دامجو فقد أعنته حقيقة وكان ذلك لأنى لعنته ليلة يوم حول
منزل الزاوتين حين كانتا تتقيان في شارع سانت ديس .

فما سفر وجه المارشال وقال : أظن إذا ان أضحى الملك .

- لقد قلت لك يا سيدي انه كان أول من خطر لي ان أهتم به باختطاف
السيدتين اللينتين اللتين نبعثت عنها .

ورضع المارشال يده فوق جبينه مفكراً ثم قال :

- كلا ، لا يمكن ان يكون الدوق دامجو المختطف لئلا هذه التذلة لا تصغر
إلا من أضي .

وقد أخذ يده بارداليان بين يديه ، وضغط عليها ، إشارة إلى
امتثانه وقال :

- إننا لقد عرضت نفسك إلى أشد الأخطار في سبيل الدفاع عنها ،
فكيف أشكره .

- لقد قلت لك يا سيدي ، إنى أردت بذلك ان أصلح ما أفقدته أبى ،
من قبل .

- إنك ستبرح باريس بلا ريب .
- أنا أبرح باريس ؟ ولماذا ؟

- لأنهم سيطاردونك ويبعثون عنك حتى يظفروا بك فإذا قبضوا عليك
لا يبقى لك رجاء لدى الملك بعد ما حدث .

- إنى لا رجاء لي إلا بنفسى ولا أروح هذه العاصمة ولا أسأل أحد أنت
بداقم عني .

وقد أشرق وجهه حين قال هذا فتولى بنور الجراءة والكبرياء .
ثم مضى في حديثه فقال :

- لقد كان الأبطال في العهد القديم يا مولاي لا يبحثون إلا عن ظلم مستبد
أو مضطهد قاهر فيحاربونه وكفوا يبحثون عن الظالم الضعيف فينصرونه
وأنا أريد ان أقتل هؤلاء الأبطال ، فقد أعجبني مبدأهم . وفضلت خطنهم على
كل خطئة .

إنى سأسير الى الامام ، وأنا أعلم إنى إذا لم تلق باسك يقهرني قسألى قويا
يباغ من ما تبده القوة من الضعف .

ولكني ، إذا فقدت الحياة ، لا أبالي ، فليس هذه الحياة قيمة
عندي .

٩٥

قَابِلِينَ الْمَارِشَالِ أَنْ هَذَا الْفَرْقُ بِكُمْ سَرّاً بِحِزْمَةٍ وَجَعَلَ يُنْظَرُ إِلَيْهِ نَظَرَاتٍ
تُخْتَلَفُ بَيْنَ الْأَصْحَابِ وَالْحَيَوِيِّ وَهُوَ مُشْفَعٌ عَمَّا يَسْمَعُهُ مِنْ كَلَامِهِ الدَّالِّ عَلَى كِبَارَتِهِ
وَعَدَمِ اكْتِرَائِهِ الْحَيَاةَ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ لَمْ تُكُنْ لَهُ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ
احْتِرَاقِ الْحَيَاةِ .

وَأَنَّ هَذَا السُّلْمَ مِنَ الْعَيْشِ لَا يَدُ أَنْ يَكُونَ نَاجِحاً عَنْ غَرَامٍ لَا رَجَاءَ فِيهِ .
أَمَّا بَارْدَالِيَانُ فَقَدْ بَدَأَ يَعْلَمُ أَنَّ السَّلَافَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ لُورْدَا قَدْ اشْتَدَّ بَعْدَهَا ،
فَعَالَ الْفَارِشَالِ كَأَنَّهُ يَرِيدُ تَغْيِيرَ الْحَدِيثِ :

- أَيَاذَنُ لِي سِبْدِي بِسُؤَالِهِ عَمَّا حَدَثَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُخْتِي ؟
فَأَجَابَهُ فَرَنْسُوَا بِصَوْتِ أَحْسَبَ : إِنْ أُخْتِي يَنْكُرُ كُلَّ الْإِنْكَارِ .
- كَيْفَ يَنْكُرُ وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنِي .
- وَلَكِنَّهُ حِينَ أَنْكَرَ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً فَطَلَمْتَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ .
فَضَرَبَ بَارْدَالِيَانُ حَبِيْبَتَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ : لَقَدْ أَخْطَأْتُ وَلَمْ أَحْسَبْ أَنَّهُ يَجْرَسُ
عَلَى الْإِنْكَارِ .

- وَإِنْ خَطَرَكَ هَذَا الْخَاطِرُ أَكُنْتُ بِقِيَّتِهِ فِي الْوَفْرِ ؟
- بَلَا رَبِّبَ ، وَالْآنَ أَرَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ طَرِيقَةٍ نَشْكُرُهَا لِلصُّوْرِ عَلَى
التَّسْلِيمِ ، فَيُحِلُّ خَطَرَكَ لِي شَيْئاً .

- نَعَمْ قَدْ خَطَرَ لِي أَنَّ أَهْبَابَ إِلَى قَصْرِ مَسِيحَ ، فَقَدْ أَمَلْتُ أُخْتِي ثَلَاثَةَ
أَيَّامٍ لِلتَّفَكُّيرِ ، ثُمَّ أَهْبَابَ إِلَيْهَا قَدَمَا أَقْبَلْتُ أَوْ يَقْتَلْنِي .

وَقَدْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ بِهَيْجَةِ اسْتَدَلَّ مِنْهَا بَارْدَالِيَانُ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ قُوَّةَ فِي
الْوَجُودِ تَحْمِيَةً عَنْ تَفَكُّرِهِ ، فَسَكَتَ ، وَلَمْ يَجِبْ .

أَمَّا فَرَنْسُوَا فَدَانَ عَادَ إِلَى الْحَدِيثِ لِقَالِ : لِنَبِيَّتِ الْآنَ بِشَأْنِكَ يَا شَقِيَّةَ ،
فَاعْلَمْ أَنَّكَ ضَيْغِي وَلَا تَبْرَحْ هَذَا الْقَصْرَ حَتَّى يَزُولَ الْخَطَرُ عَنْكَ .

فَأَجَابَهُ بَارْدَالِيَانُ قَائِلاً :
- أَسْأَلُكَ الْمَلْرَةَ يَا مَوْلَانِي فَقَدْ سَبَقَ وَقَبِلْتَ ضِيَاغَةَ سَوَاكِ .

- أَدْرَأُ أَخْطَأْتُ .

- وَلَكِنْ صَاحِبُ الضِّيَاغَةِ عَزِيزٌ حَبِيبٌ لَا يُمْكِنُ رَفْضُ طَلِبِهِ .
وَكَانَ بَارْدَالِيَانُ يَتَفَكَّرُ بِأَيِّهِ ، وَلَكِنْ الْمَارِشَالُ حَسِبَ أَنَّ لَهُ خَلِيَّةَ
يُرِيدُ أَنْ يُلَاقِيَ بِهَا ، فَمَا أَلَحَّ عَلَيْهِ ، بَلْ قَالَ لَهُ : كَيْفَ أَرَادَكَ إِذَا احْتَجَّتْ
لِقَابِكَ ، فَتَلَّى لَا أَكْتُمُكَ إِنَّكَ الصَّدِيقُ الْوَحِيدُ الَّذِي أَرَادَ أَنْ التَّمَنَّيَ فِي
هَذِهِ الْهَيْمَةِ .

- سَأَحْضُرُ يَا سِبْدِي لِيَكُ كُلُّ يَوْمٍ أَوْ أَرْسَلُ رَجُلًا ، لِي بِهِ مَلَأَ الشُّغْلَ وَإِذَا
لَمْ اسْتَطِعْ الْحَاضِرَ أَوْ أَرْسَلَ سِوَايَ فَطَانِي مَطْعَمٌ فِي فَنْدُقِ كَاتِي .
وَقَدْ دَلَّهُ عَلَى الْمَجَارَةِ الَّتِي كَانَ قَبِيهَا مَعَ أُخْتِي ثُمَّ وَدَعَهُ وَانصَرَفَ .



وَأَمَّا بَارْدَالِيَانُ فَجَعَلَ يَسِيرُ الْمَوْجِزَةَ حَسَبَ عَادَتِهِ لِاحْتِفَاقِهِ أَنَّهُ إِذَا
رَكَضَ وَأَسْرَعَ اسْتَلْقَتْ الْأَنْظَارَ .

وَكَانَ يَسِيرُ وَهُوَ مَطْرُقُ الرَّأْسِ مُفَكَّرٌ ، لَا يَفْوِي عَلَى شَيْءٍ ، وَقَدْ جَعَلَ
وَجْهَهُ تِلْكَ الْمَجَارَةَ الَّتِي وَاعَدَ أَبَاهُ عَلَى التَّقَادُمِ فِيهَا فَلَمْ يَرِ مَوْجِرَ عَدُوِّهِ الْمَلْرَةَ
الَّتِي كَانَ يَتَمَنَّى .

وَكَانَ مَوْجِرَ قَدْ رَأَى اتِّفَاقًا ، فَمَا جَسَرَ أَنْ يَفْضَحَ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ سَارَ
فِي أَرْوَاهُ إِلَى أَنْ وَجَدَ جَنْدِيًّا فِي الطَّرِيقِ فَكَلَّمَهُ سَرَّاءً وَسَارَ الْجَنْدِيَّ مَعَهُ .

ثُمَّ مَشَى أَيْضًا فَرَأَى جَنْدِيًّا آخَرَ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ كِلَيْمَا سَارَ فِي شَارِعِ
دَعَا مِنْ وَجْهِهِ فِيهِ مِنَ الْجَنُودِ إِلَى الْأَنْضَامِ إِلَيْهِ .

كُلُّ ذَلِكَ وَبَارْدَالِيَانُ سَارَ أَمَامَهُمْ لَا يَعْلَمُ شَيْئاً مِنْ أَسْرَمِهِمْ لِأَمَانَتِهِ فِي التَّفَكُّيرِ
حَتَّى دَنَا مِنَ الْمَجَارَةِ وَسَمِعَ رَفِيقَ خَطَوَاتِ كَثِيرَةٍ وَرَأَاهُ ، فَالْتَمَسَتْ وَرَأَى مَوْجِرَ
رَاضِعًا لِيَدِهِ فِي طَلِبَةِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْجَنُودِ .

وَصَاحَ بِهِ مَوْجِرَ قَائِلاً : قَبْ !

وقال له ضابط بين الجنود : قف باسم الملك .

ورأى بارديان أن لا يدخل إلى الفندق كي لا يروه ، وارتقى أن يمشي في
المرزق ثم يرجع إلى الحجرة بعد أن يتوارى عن أنظارهم

ولكن حين هم أن يركض إلى الأمام رأى موشجرون ، وهو زعيم
مورفر قادمًا أيضًا مع بعض الجنود .

وأبصر أنه أصبح بين يديه ، واستل سيفه محاولاً أن يقتل له سبيلاً بين
الجنود بالمصوم عليهم .

ولكنه رأى في تلك اللحظة كلبه يبيد قد خرج من الحجرة وسد الباب فتح
سرع رآه ، فعلم أن أباه قد أتى به وأنه في الحجرة ، فدخل إليها وقال لأبيه
إنهم يطاردوني ، كما تقدم .

فوثب بارديان الأكبر إلى الباب ونظر نظرة سريعة ، إلى التيسير
والشمال ، ورأى الجنود من الجهتين ، والتاسي تسيبهم من كل جهة حتى غصت
بهم قطرات .

فأضحك إقفال الباب ووضع فيه الزلاج الحديدية .
ولم يكده يفرغ من إقفاله حتى أقبل الجنود يطرقونه ويصيحون قائلاً :
إفتمورا باسم الملك .

فقال بارديان لأبيه : علم محصن الباب .
وجعل الاثنان يضعان الكراسي والموائد وراء الباب ، فعينهم حاجبة
الحجارة .

وقد اشتد الطرق على الباب وسمع بارديان صوت مورفر يقول : لقد
ظفربا به . . .

وقال بارديان الأكبر : أنهم لا يستطيعون الدخول قبل ساعة .

وقال أبه : ان ساعة كافية لإحراق باريس .
ولقدت بارديان الأكبر إلى قتي وقال لها : أنت معنا أو علينا

يا كاتي ؟

قالت : اني معك ، ومتى كنت مع الجنود .

ونظر إلى ولده فراه مطرفاً حائراً فقال له : ماذا أصابك ؟

- ان حديتي بطول وسأخبرك به في غير هذا المقام .

- ذيل تخونني به الآن ، فلا يستطيع الجنود كسر الباب قبل ساعة .

ثم أمر كاتي أن تحضر لها كأسين من الخمر ، فامتثلت وقال بارديان لأبيه
تكلم يا بني فان الوقت فسبح .

فأخبره بارديان بكل ما جرى له وهما يشربان الخمر بيتاً كان الكلب
يطلق القضاء بتساعده والجنود يكسرون الباب .

ولما فرغ من حديثه قال له أبوه : لقد نصحتك بما التصحت وأبى الان
مقام اليوم .

ثم قال لكاتي : التيك زيت في القدر ؟

- عندى خمس جرار .

- أوجد مستوفد في الدور الأعلى ؟

- نعم .

- ولزيت أين يوجد ؟

- في القبو .

- إذا سمعني اني الدور الأول واوقد في المستوفد ناراً كثيرة .

فأضخت كاتي ما تحتاج إليه من الوقود وسعدت .

ودفع بارديان وأبيه إلى القبو فأخذوا حلة كبيرة وجرار الزيت ونفعلوها
في الدور الأعلى حيث كانت كاتي توفد النار .

وكان يصعد إلى ذلك الدور يسلم ضعيف من الخشب فقال بارديان لكاتي
ولقد صبت الزيت في الحلة ووضعتها على النار .

- اني سأحطم هذا السلم يا كاتي وسأعوض عليك .

- اقبل ما تشاء واست بحاجة الى التعويض .
 ورجع باردليان الى اللقب فجاء يازميل ومطرقة فحطم السلم القديم تحطياً
 وبات مع ولده وكافي يراقبون الزيت وهو يظلي في الحلة
 وكان الجنود يحطمون الباب في خلال ذلك ، فلم يكن باردليان يحطم
 السلم حتى كسر الخند الباب ودخلوا الى الحمارة أفواجاً .
 وقد ذعروا حين رأوا السلم محطماً ، ولا سبيل الى الصعود
 فأجابهم باردليان بضحك شديد وقال لقد حاصرونا قبل الآن وتلفتنا
 فنون الحصار .
 ثم التفت الى كافي وقال لها : أغلا الزيت .
 - نعم ..
 - إذا سئرت به حدة اولئك المهاجمين .
 وأخذ ملقة كبيرة وجعل يأخذ بها من الزيت الثقلي ويظلي به على الحضور
 فيحرق كل من اصابه .
 وكان مورفر اشدهم تحملاً ، فيصيح ينادي الناس ويحثهم على الحضر
 سلم ...
 وبعد هزيمة جاءوا يسلم فوضوا اهلاء حيث كان واقفاً باردليان وابنه
 وصعدا يسلم درجات ذلك السلم .
 فهذه باردليان ضاحكاً وقال : لقد عرضتم تفسد لحفت جديد .
 ثم نادى ولده وطلب اليه ان يساعده في حمل السلم ، فحملاه من كان
 عليه من الرجال نحو متر ، ثم القياه بعيداً ، فسقط من كان عليه بهم
 فوق بعض .
 واسرع باردليان الى اناه الزيت الثقلي وجعل يشوي به اجسام اولئك
 المهاجمين .
 وبقي مورفر وموتجرون صابرين الى ان اصابها رشاش الزيت ولحق

جميعها
 فصاح مورفر مضطرباً : انكنا تريدان حرق أبنائنا فلتنموا بالحريق فهو
 بعض ما تستحقان .
 ثم امر رجاله ان يضرموا النار في تلك الحمارة ، فأضرموا فيها النيران
 وخرجوا جميعهم ، ووقفوا عند باب الحمارة ينتظرون الى ان تقدموا بين
 فيها رداً .
 وما رأى باردليان سبب النار كاد يتوب متوئماً على ابنه وايقن انه لا
 مقر من الموت ، اذ لا سبيل الى الفرار ، فلما لوت من سيوف الجنود وإما
 الموت بالنار .
 ولكن باردليان الأصغر لم يأس من بأس ابنه .
 ونظر الى الجدار الفاصل بين الحمارة والبيت المحاور وسأل كافي قائلاً :
 ما وراء هذا الجدار .
 - محل يتبع طيور .
 - وابن موقع الخيل .
 - ان له بابين ، أحدهما يشرف على الشارع العام ، والاخر على حديقة
 مشعة تزل بمحاور .
 فقال لأبيه : اري يا ابني ان سبيل الفرار ميسور قبل ان تلتهمنا النار .
 - كيف ذلك .
 - ذلك ان تخرق هذا الجدار الازميل الذي لدينا ، فنفتح به منفذاً ونفر
 ونحصب الجنود اثنائنا بقنينة النار .
 - انه رأي صائب ، ولكنني اشك ان يكون صاحب الدكان في دكانه ،
 فإذا كان فيها سمع طرق الأزميل .
 فقالت كافي : انه جعل الدكان مستودعاً للطير ، فهو لا يأتي اليه إلا في
 الليل لتناثر .

وكانت واقفة عند النافذة المطلة على الشارع ، فرأت رجلاً بين الجنود يسير
ويخشع ، فقالت : لا خوف علينا من صاحب الدكان ، فقلت واقف بطم
ويتم حوقاً من اتصال النار بدكانه .

فقال بارداً البيان : أماً لتهدأ العمل .

فأخذ الأب واينه يتقيا الحائط ، بينما كان مورفر ينظر الى النار تنهب
الحجارة ومن فيها وهو فرح مسرور .

ولبت واقفاً مع رفاقه حتى انتهت الحجارة بحملتها واتصلت النار بالمنازل
المجاورة ، فلم يتمكن الناس من اطفاها الا بعد الجهد الشديد .
وعند ذلك ، رجع مع موتنجرون الى الغور ، واتقاً مطمئناً لوت
بارداً البيان .

ولما وصل اليه ذهب مورفر الى الملكة كارين وقال لها : لقد انتهت
لحلاتك وقتلت هذا البارداً ، كما تقتل الفأرة في قنص فأحرقته في الحجرة
التي لجأ اليها .

فقالت له الملكة : بورك فيك يا مورفر ، وسأذكرك ياخبر امام الملك .
واجابها مورفر : لقد محرقيني يا مولاي بحسانك ، عسى اني لم أعم
لقتل هذا الوقح فاني كنت قادراً على قتله لأول مرة القصد ، ولكن الذي
مرفي ما رأيت من ابتهاج الناس ، حين قلت لهم ، انسا محرق قوماً من
الموكتوبين الضالين .

فايتمت الملكة وقالت له : اسكت ، الا تعلم اننا آخذون بدمه
الصالح ؟

وأما موتنجرون فانه ذهب أيضاً الى السوق والتجو وقال له اشتر
مولاي بالانتقام له من ذلك الجلف ، فقد أحرقتاه في قيد الحياة مع بعض
العوض أمثاله الذين أرادوا الدفاع عنه .

واجابه الموقد وهو يفتل شاربيه وينظر الى الرأه ختلاً : لقد أحسنت
يا موتنجرون ، وما ودمت أن أكون ملكاً لأحسن مكافأة أمثالك من
الفاصلين الأوفياء .

كيف ان بارداً البيان خالف أيضاً وصية ابيه

بينما كان مورفر يقيه الملكة كارين يفتل بارداً البيان ، وموتنجرون يقيه
السوق والمجربوت هذا البطل الذي أهدب اللوك ، ولم يرهيم حدثت سعادت
لايد من ذكرها في هذا انقام .

وأول هذه الحادثة ان بارداً البيان الأكبر واينه لم يتفلا كانوا أعداومسا ،
ان انها سلفا من ذلك الموت والوت خزيان ينظر ، واليك البيان .

انه حين شبت النار الحائلة بتلك الأخشاب القديمة الجافة تصاعد دخانها
الى المكان القيم فيه بارداً البيان واينه وتولد إذ لم يجد فيه منفذاً حتى أيقنا انها
إذال لقتلها النار حاة بالاشتاق .

وكان بارداً البيان الأصغر يشتغل بتقب الحائط عند حصى مقاسق حتى سأل
حرقه ، فأخذ أبوه الأزبيل والمطرقة من يده وتولى عنه العمل .

وبعد هنيهة قنع ثقب صغير في الجدار ، وجعل الأب والابن وكالي

يتزعمون الحجة بأيديهم .. حتى السح الثقب ، ويات كافيستاً لزور
إنسان منه .

وأهل بذهليان من القاب فرأى ان بين موقفه وبين أرض الدكان نحو
أربعة أمثاله .

ولكنه رأى فوق تلك الأرض أكياساً مرصوفة بعضها فوق بعض ، فما
شكك أنها أكياس جوب لفضاء لطيف .

وعند ذلك أمر كافي أن تيسراً بالزور ، فخرجت من ذلك القاب ،
وأمسك بذهليان بيديها فشدت ، ثم تركها فوقعت على الأكياس دون أن
تصاب بأذى .

وقبل الأب والابن فعلها ، وما أصبحوا في الدكان قال بذهليان لكافي :
أين اللاب للشرف على الحديقة .

فدلت عليه فاستعان بيته وكسره وخرج الجميع إلى الحديقة التسعة وهم
يتفحصون يله رثاتهم ويتشققون من الهواء الشقي .

وعندها قالت لها كافي : لتهرب الآن من باب الحديقة الكبير فاتها حديقة
عموية يدخل إليها من يشاء .

فقال لها بذهليان الأكبر : نحن نفر وأنت تبغين ، فما في بفاثك في هذا
الحي من بأس .

فتهدت كافي وقالت أية فائدة من البقاء فيه بعد هذا الخراب .

فدك بذهليان منطقته وأفرغ ما فيها من المال بين يديها وهو يقول خلدي
فانك تلتشقين هذا المال خسارة بدلاً من خارتك التي استرقت ، قد نص الشرع
والعدل أن متلف الشيء غارمه . وقد كنت السبب في خرابك وتدميرك
للأخطار . أفلا أعرضك عن تلك الحسارة ، إذا كنت غير قادر على مكافئتك
عن الأخطار .

فأدعت عينا كافي وقالت : ما أجل الكرم من يعرفون أنت يضعوه في

مواضعه ويجزوا الاحسان بالاحسان .

رائد رأيتك ليلال في آخر نفس في منطقتك وأنت أشد مني حوزاً إلى
للال ، ووافي في لو خدمت اصعاف ما خدمتك به رجلاً من الأفتياء الذين
يتصبون ألقاب التبل ، ويسرقون الوجاعة من بلاهة قنسان ، لا عوزت
عن خرابي في سبيله غير الحرمان ، ولا ذكرت من آيات فضله غير تقويض
ذلك قنسيان .

ورحم الله الفقير ، فهو مهبط الرقي ، وهو الانسان البصير ببسلاء
أخيه الانسان .

ثم ردت المال إلى بذهليان وقالت : اني لا اخذ منه ديناراً فانت احوج
اليه مني وانت في موقفك هذا .

- بل أنت غخطت في رد المال فاني جواب الحق لا أخفل بالذهب ولا بدم
اليت قريسة حيناً ذهب .

- إذا لتقسم ، فان بعض هذا المال يكفيني لانشاء خيارة بدلاً من
التي تقوضت .

- وأنا لا أسترد منه ديناراً ، فما شعرت بلذة تعادل لذة الفقر .

وما زال يحا حتى حملها على قبول البيع بصمت .
وعند ذلك ودعاها وخرجها من تلك الحديقة أمثيق يسيران الهويشاه

كأنها يتزعمان .



وكان كل منها متباطاً ذراع الآخر وهما يتعادلان فقال بذهليان لولده :
ما الذي دفعك إلى هذه الحقاوية ؟

- أية حارة تسي يا أبي ألعها الحارة .
- كلا بل الموفر ، ولكن ما مضى فأت ولا فائدة الآن من الموم ، فما

اننا منذ عهد بعيد لم نتزه معاً في طرقات فرنسا الكبرى لاسيا ونحن
الآن في زمن الربيع البسام الا ترى رأيي يا بني في هذا الرحيل .

وكنا يسيران في شارع سانت انطوان وهما لا يحاولان التسلل لاسيا وان
كثرة مرور الناس في الشارع حولت عنها الأنظار .

فاجاب ياردهليان آباء قائلاً . كلا يا أبي .. إن يستحيل علي مبارحة
باريس الآن .

فقطب الأب حاجبيه وقال . كيف تقول مستحيل يا بني ، الملك يريد أن
يموت شيئاً بعد أن نجونا من الموت حرقاً .

- كلا يا أبي ، فاني أؤمل اليك أن تسافر ، أما أنا فيجب ان أبقى ..
ولكن ماذا أصنع ، ماذا يحدث في هذا الشارع ، ألا تسمح صراخ امرأة
تستغيث ، علم يا أبي شجعتها ، أسرع .

ثم ترك ابود وأسرع إلى مصدر الصوت .
ولكن آباء قبض عليه بيد من حديد وقال له بلهجة متزج فيها الحزن
والخوف والاعجاب .

- إلى أين تذهب أيضاً يا بني ، ألا تحفل ساعة بتصانح أبيك ، أم تحسب
تلك التجارب التي علمتني إياها الأيام سدى . ألم أعلمك أن تحفر للرجال وتحفر
النساء وتحفر قلبك .

فاجابه قائلاً .

- اني رأيت من الرجال ما دعاني إلى احتقار معظمهم وأنا أخاف النساء ،
أما قلبي فإني العنة لعن العصور لأنه من ألد أعدائي

وأنت ترى يا أبي اني عامل بوسايتك ، وفوق هذا فان احتقارهم ذلك
يضطرنني إلى ..

وقبل أن يتم جملة أفلت من أبيه بنفسه وهروا واكضاً إلى مصدر الصوت

وقال الأب : أهلكذا يعمل بوسيتي ، والله اني أخشى أن يؤدي به هذا
العيش إلى المشقة .

والآن .. لم يبق بعد من خلقه .

ثم اندفع بعدد في أثر والده .



وليك بيان ما حدث في ذلك الشارع .

كان يوجد في ذلك الشارع دكان لبيع العقاقير والأعشاب الجففة وقد
كتب على بابها عنوان ابوقرأط .

ثم ان صاحب هذه الدكان كان قد صنع منذ عهد بعيد مثلاً من الخشب
لهذا الطيب الجودي القديم يمثل شيئاً عجوزاً داخلية بيضاء .

وأيض عهد طويل ، حتى استحال هذا الطيب إلى فسد في حرف
المسامة .

وكان صاحب الدكان شديد الحزن ، وقد رأي ما كان من التمدح للمسامة
بلاش ، وزادهم غروراً واعتقاداً بقداسة التمثال طمعاً بزيادة الزبائن .

ولذلك نقش مثلاً آخر يمثل حلاً وديعاً من الخشب ، وقصد ربط عتق
المزود بجمل ووضع الخيل بيد قتال ابوقرأط وزال كل ريب لدى المسامة
وبات الطيب ، قدسياً لا شك فيه وهو القديس انطوان .

ثم ذاع هذا الحديث في الطمع بأموال المسامة فوضع إزاء ذلك القديس
شقوقاً لمج الصدقات .

وكان يربو المؤمنون فيضح كل منهم في هذا الصندوق على قدر حاله ومن
أستطاع الاحسان من الفقراء ركع أمام التمثال فصولي ما تبسر له من الصلاة
والتمسح

إلى أن علم الزهريان بهذا القديس الجديد فوافقوا على قداسه واستبقوا
بصندوق الأسماء .

وقد التقى في تلك الساعة التي سمع فيها ياردهليان الصوت إن رجلاً من هذا
التمثال قنأمة عنيفة وانصرف .

واستاد بعض الذين رأوه من المؤمنين وقالوا له : إما أن تدفع الصدقة أو
ترجع مصلياً أمام هذا القديس أو تكون من الكافرين .

وضحك الرجل وقال : إنني منخدعون فما هذا تمثال قديس ، بل هو
تمثال إبوسقراط أبي الأطباء .

فكبر عليهم ذلك التجديف وضموا على المسكين يسوعونه ضرباً ويقولون
إنه من الهوكينوت . . إنه من السافرين .

وأمرع الناس إلى ثلثية نعالهم وشاركهم يضرب هذا الكافر .
وقدمت في هذه اللحظة مركبة فيها امرأة غساضطرت إلى الوقوف
لشدة الزحام .

وأزاحت المرأة سبيل المركبة كي ترى ما يحدث ورأت الناس مزدهرين
جثمين حول رجل يسوعونه ضرباً وشتماً .

عرفت ذلك الرجل وصاحت بالناس قائلة : ارجعوا عن هذا الرجل فهو
راميس العالم الشهير .

وسمع الرجل صوتها وبذل جهداً عظيماً كي يصل إلى المركبة .
وعادت المرأة إلى الصباح للناس ، ولم يخطر لأولئك المنصبين إلا أنت
هذه المرأة إنما تدافع عن الرجل لأنها مثل من الهوكينوت .

وقد أيد هذا الفكر عندهم أنهم لم يجدوا على مركبتها إشارة للبلاد فلم
يخشوا غير العاقبة وساح أشدهم محملاً .

لنحرق الاثنين بالنار فاجها من أهل البدع ، ولتقدمها قريباً للقديس
انطوائس .

فاندفع الناس اندفاع السيل الجارف على المركبة فأبقت المرأة من الخطر
وجعلت تصيح مستغيثة صياح الفانطون ، والعالم راميس يفرها وهو دامي
الوجه بمرق المايس ، حمله بالمركبة وليس له رجاء .

وعند ذلك هجم ياردهليان على أولئك الناس مجرم الأسد وجعل يفرقهم
عن المركبة يديه ورجليه حتى وصل إليها وجرد حسامه وجعل يظمن به
كل من تجاسر على التو منها .

ورأت المرأة تلك النتيجة التي وردتها ففتحت باب المركبة وأصعدت إليها
ذاك العالم .

فصعد راميس وهو يقول : لقد نجوتنا بفضل هذا الرجل .
لم أخذت المركبة تسير الموتى لكثرة الزحام وياردهليان يحقرها وحسامه
مشهور بيده .

ولكن الناس لم يرضوا عن هذا الاخذال ولجسوا أن يدد جميعهم رجل
فرد ، وأتأب فريق من المنصبين وانتصوا على المركبة . وعاد ياردهليان إلى
الدفاع والظمن . ولم يكن يسمع غير أصوات المتألمين .

وفما هو على ذلك سمعت صيحات أخرى من آخر الجموع ورأى ياردهليان
الناس يربون مندفعين .

ثم رأى بعد ذلك أباه يشق الصفوف وقد القى الرعب في القلوب وهو
يغرق الناس كما يغرق الثقب الحراف .

وبمسد عنيفة اجتمع الأب والابن وتوليا سفارة المركبة ، فواصلت
سيرها آمنة .

ولما أمتوا الخطر قال ياردهليان لولده : ماذا لقيت من هذه الماشخة وأي
شان لك فيها .

ولم يجب ياردهليان وكان يضطرب لأنه رأى المركبة تسير في نفس الطريق
التي كانت تسير فيه حنة يوم كان يتبعها ليقول لها إنه يجب ابتئها لوزا .

وقد جعل قلبه يخفق خفقاً شديداً حين وقعت تلك المركبة حذاء باب المنزل نفسه الذي دخلت إليه حنة .

ولما وقعت المركبة زل منها راميس والرأفة فغالت له الرأفة : - ادخل يا سيدي فلا بد لك من الراحة ، وشرب جرعة من ذلك الأكسير الذي أعطيتني إياه .

- لقد زال اضطرابي ويسرني ان أجالسك ساعة .

ثم دخل وبقيت الرأفة واقفة عند الباب ، فالتفت اليه بارديان وأبده ، وقالت لها بلهجة سيادة حنونة لا تصدق الا من انصاه لصدورها من قلب تفضلا يا سيدي وانخلا .

فامتثل الاثنان وتبعنا تلك الرأفة التي انقذتهما ، وكلت أنص أخيراً بارديان من الدخول أن يعرف داخل هذا المنزل الذي دخلت فيه أم من يجب .

وبعد أن أقاما هنيهة شرباً في خلافا الزطبات ، قالت لها تلك الرأفة التي ادعى ماري توشيت قول تسحان بتذكر اسميكما فأعرف الذين كنت مدينتهما بالحياة .

فهم بارديان الأصغر ان يتكلم ، ولكن إياه أسرع قداس على رجديه وسبقه الى الكلام فقال :

- ابي أدهم يا سيدي بيسار وأنا ضابط قديم في جيش الملك وديقي كتاب يدعى المسوي دي روشيت .

- إذا فاعلم يا سيدي بيسار ، ويا سيدي روشيت اني لا أنسى اسميكما ما زلت في قيد الحياة .

فأجابها بارديان الأصغر ذقلاً :

- لقد تبين لي سيدي من حوثك الحنون انك من أهل الزرق والحمير . والي أهد نفسي سعيدياً يا تفضلت به علي وعلى أبي من عبارات المودة .

ودعشت ماري وقالت : - أمواً برك ؟

فأجابها بارديان الأكبر قائلاً : - انه يقيني هذا القلب لأني لا افتر عن نصحه يا حظتي إياه للتجارب .

وأقام الاثنان عندهما هنيهة يتجاذبون الحديث ثم ودعاهما وانصرفا .

فجعل بارديان يقول في نفسه ، ترى أية علاقة لوالدة لوزا بهذه المرأة ؟

وكان بارديان الأكبر يقول لولده : ترى أية فائدة لنا من المحاطرة بنفوسنا في سبيل انقاذ رجل وامرأة لا نعرفهما .

وفوق ذلك فقد كدت ترتكب خطأ لا يغتفر بذكر اسمينا لها في حين اننا نبحث عن طريقة للاحتجاب والناس بحسبوتنا من الأموات .

فأجابته ولده قائلاً : الحسب يا أبي ان هذه المرأة التي انقذت حياتنا تقدم على حياتنا .. كلا يا أبي ، فإن مخالفتها تدل على الشهامه والذبل ، وليس فيها ما يدل على الحياة .

- ولكن الحذر واجب في الموقف الذي نحن فيه ، حتى اني استدر من اخمص الأصداف .

ولكن تعال معي الآن اذ يجب أن نبحث عن مكان لختبوه به ما زلت لا تريد الخروج من باريس .



وفي اليوم التالي لهذه الحادثة جاء الملك سرّاً لزيارة خليلته مساري توشيت حسب عادته في كل يوم .

فحككت له كل ما التفت لها بالأمس وقالت :

- انك اذا كنت تحبني حقيقة كما تقول فقد وجبت عليك مكافأة تضابط

بريسار ، وذلك القتي الباسل دي روشت في مدينة لها بالحياة .

- سيكون ما ويدين أيتها الحبيبة ، وسيرى هذان الباسلان كيف يكافئ الملك شارل الأبطال وأهل المروءة .

وقد نتج عن زيارة الملك لخليلته ثلاث نتائج :

إحداها ان الملك أصدر أمراً يقضي بالبحث عن السيوريسار ومي روشت وأن يأثوه بها حين يعلمون مقرهما .

والثاني انه أصدر أمراً يقضي بعدم الركوع والصلاة أمام قناصل القديسين الموضوع في الشوارع .

والثالث انه أصدر أمراً يلقي على صاحب محل العقاقير بتغيير عنوانه أو يقل .

أما الأمر الأول فلم يتفد فإنيهم بحثوا في جميع باريس فلم يلقوا على أثر الرجلين الذين يريد الملك ملاقاةهما .

وأما الأمر الثاني فقد أفاد فائدة عظيمة وأحدث ما يشبه الثورة لاعتراض رجال الدين عليه .

ولكنه أسفر عن الفوز وكان الفضل في ذلك عائداً على بارديان بمخالفته وصية أبيه .

روحته القاصية

مقتل سي البيلان

- ٧ -

المجأ

خرج الأب والأبن من منزل خليله الملك وسارا نحو إلى نهر السين وجعلا يتشيان على ضفافه ويتحدثان .

وما زالا يسيران حتى وصلا إلى حارة فيها الطعام والشراب .

فهاجت شبة بارديان الأصغر للطعام وقال : إني جائع يا أبي فهل ندخل إلى هذه الحارة ونأكل فيها .

- وأنا جائع أيضاً فلندخل ..

فتش الاثنان إلى الحارة ولكنها قبل أن يدخلوا وقف بارديان الأكبر وقال : إني أعطيت كل ما لدي لكافي فهل لديك ما تدفعه عن الطعام ؟

فتش بارديان جيبه وقال : كلا ..

وظهرت حلائم الندم على الأب وقال : لقد أسطت إعطائي كل ما أملكه فعد الزاد .

- بل أسدت كل الاحسان يا أبي فإنها أنقذتنا من الموت .

فتهد الأب وقال : لا أنكر ما تقول يا بني ، ولكن إذا قلنا الجوع لا نكون قد انقذت شيئاً يذكر .

ثم ابتعد الاثنان عن الحارة حزنين آسفين ، وجعلا يسيران متبعين بحرى النهر .

ولها على ذلك حتما سورا يشبه الأبين من روايتها ثم شعرا يحسم قدس
المنع بين أرجلها
والثقت باردها بان فرأى كلبه يبيو ورأى في نفسه فبعثاً كبيراً من اللحم
لقديده (الجانبون) .

وكان هذا الكلب الأبين قد تبع سيده من الخبارة التي اسفلقت إلى شارع
سانت أنطوان فأبلى في تلك المعركة بلاء حسناً .
ثم تبع صاحبه حتى رآه دخل إلى منزل ماري لوثيت فلبث ينتظره عند
الباب حتى خرج فتبعه .

وفيا هو يتبعه شعر بالجوع وكان من مشاهير اللصوص كما تقدم .
وجعل يسير ماراً بالكافين فيتم راحة ما فيها
إلى أن مر بـدكان بائع حوم مقددة فقال في نفسه : لقد ظفرت بأمانتي
وذهب إلى تلك الدكان
وجثم عند بابها وتسلط هيئة الخسوف والسلامة حتى خرج صاحبها منه
ويشواهر سلامته فلم يطرده .
وانغمت يبيو دخول صاحب الدكان إلى محله فاخطف فضماً كلباً من
الحجم وأطلق رجليه للريح يتبع صاحبه حتى خلفه كما وصفناه .

فلما رآه باردها بان الأكبر ورأى الفخذ في فمه انقض عليه وسلبه إليه وهو
يقول : لقد أطمعتك دجاجة في هذا الصباح فلا بدع إذا استمضتها يفضد .
ثم قال لولده : هوذا عتاقوا لبيبة قلناً كل .
أما للشغاليه فإنه ضرب كلبه وقال له : لقد طالما منعك عن السرقة فلم
تتبع ، ولو لا جومي لما غفرت لك اليوم هذا الذنب .

فلف يبيو ذنبه إشارة على انه لا يعود إلى السرقة بعد الآن ، وجلس مع
صاحبه على الرمل .
فأخرج عند ذلك باردها بان الأكبر خنجره وقطع الفخذ ثلاثة المقام .

فأكل كل حصته وشربوا من ماء النهر .
وبدا فرغوا من الطعام قال الأب لولده : لقد تمسنا الليلة من فضل يبيو
وبقي علينا أن نأكل ، فأبى نجد ميتنا .
فأطرق ولده برأسه مفكراً وقال : نعم .

ثم ذه بهامه التفكير ، فكان يقول في نفسه : لا شك ان امرأة باردها بان
من الأسرات القديمة التبية لولكني وصلت إلى ابعاد درجات الشقاء .
وأرى شقاء ابلع من ان يبحث عن ميتة لأمام وان اشاطر كلني غشاء
السرقة ، وان أكون خالي الوفاض فاهي الافاض ، ثم اهم بيبة أعظم غني
نبيل في فرنسا ، ليس ذلك من الضحكات التيكيات .
وكان أبوه ينظر إليه وكأنه قد علم بما يشكر فقال له :

تتبعم يا بني ولا تدع الحزن يبعث بك . صبراً يا بني فليس الفقر معيباً ،
ولا تحسب الرخاء غيراً من الشقاء ، فمست طماننا كرهت تلك الكلاب كلاب
الصور قديده بالسلاسل وتأكل الطعام المريء ، وكنت اميل إلى التعلب فإنه
يغلب بكره الرجل للشديد ، وذلك الذئب يطوف القابات في غلام الليل ،
ويبعث عن القرصة بطرات لقد ثاراً .
إني احب عيش الذئب والتعلب ، ومتى كان سيفي يحساني احسب نفسي
معاداً لذلك

بل يا بني عشت خمسين عاماً عيش شقاء ، عرفت في خلاها من أمور الحياة ما
لا يعرفه الترفيون في تحسين حيلنا .
وما هي الحياة يا بني ، إنها الهواء تتشققه والطبيعة تتدع بجهاها والحزبة
تجني ثأرها وما بقي من علائها لا يناله المرء إلا إذا إراه ان يتقيد بقبود الناس
كالتقيد تلك الكلاب في الصور .

بل لا ينالها الا إذا عاش رفاً مستعبداً ، وما هو بعائش بل هو يموت في كل
لحظة من دقائق اسره ولا يعلم .
تعال ممي يا بني والتفتد بالذئب والتعلب ، وانسر في تلك الطرقات

الرجية التي تفرشها شمس الربيع بدسائس من الذهب فتشعدها وتضجك ، بل
نبيك إذا شئت وتطوف الأرض باسمها فلا تستقر في وطن .
فلم يجب بآرداليان أبه إلا برأسه ، فأشار له إشارة - ليلية - وعسا إلى
التكبير وقال له :

ألا تريد ان تتبعني .

- بل إنني أروى الموت على مبارحة باريس .

- إذا تعدد إلى مسألتنا الأولى وليعت عن مبيت .

- أظن يا بني وجدت مبيتاً .

- أين ذلك العلك تعرف في هذه الجهات شجرة متشعبة الأغصان

وارقة الغليل .

- كلا ، بل اعرف قصر مونغوراسي فان هذا المارشال قنديل عربي

علي ان أكون ضيفه إلى ان يزول الخطر ، فهلم يا أبي نذهب إليه يستقبلنا

على السرور .

- العلك نسيت يا ابني إنني احتفظت ابنته ، وإنني كنت لسبب في جميع

تكليات فكيف يسره ان يراني .

- انت منضوع يا ابني ، فقد كان حاقداً عليك من قبل ، ولكن هذا

المقدسات اليوم نسباً منسياً .

- إنني لا ألتق بذلك ، فإني غير بأحوال القلوب ، أما وقد وجدت انت

محل تبيت فيه آسناً فقد اطمانت عليك .

- وانت أين تبيت يا أبي فإني لا انفارقك قبل ان اطمن عليك .

- لا تخف علي يا بني فقد وجدت مبيتي كما وجدت انت مبيتك .

- أين ؟

- في قصر هنري مونغوراسي . هلم ينسأ يا بني فإني أرافقك إلى

قصر فرسوا ، ثم أذهب إلى قصر أخيه ، فإذا حلت شيئاً عن الأسيرين

الخيرتك في الحال .

ويعد ان التلق الاثنان على ما تقدم ذهباً معاً إلى قصر مونغوراسي ، ومما

يجوز ان كل الحذر تقرب ذلك القصر من الحوقر .

حتى إذا وصل اليه وحاولا الافتراق قال بآرداليان لأبيه .

أنا يا أبي اعضرت لي كليتي من فذوقه وقيلوب ولا يزال لي صديق فيه .

- العلك كتب آخر .

- كلا ، بل هو جواد .

- إزاً نحن من الاغنياء فان الجواد يكلفنا منه شهراً إذا كان كريماً .

- أنه من خير الجواد ، ولكن احذر ان يبعه .

- لماذا ؟

فانهم بآرداليان وقال : لأنه يدعى كالبور .

- كالبور . ما هذا الاسم . اذكر أبي سمعته ولكن أين . نعم نعم لقد

ذكرت فان هنري دي مونغوراسي اعتراني حياية اتفقت له ، وان رجلاً انقذه

من الصوم فاعدها هذا الجواد . أأنت انقلته يا بني ؟

- نعم .

- وكيف لم تروني هذه الحادثة فيما رويته لي من حوادتك .

- لأنني تعرضت فيها لما لا يعينني وذلك مخالف لوصاياك .

- اني لا ابعه دون ريب ، فقد يكون لنا منه فوة .

وعند ذلك انفزقا فذهب الأب إلى قصر هنري ودخل الولد إلى قصر

فرسوا يشبه بيبي .

فادخلوه في الحلال إلى المارشال فقال له : ان الرجل الذي كنت عازماً على

الأقامة عنده غير موجود في باريس .

فلم يجبه المارشال ، ولكنه أخذ بيده وسار به إلى غرفة من أجمل غرف

القصر فدخل به إليها وقال له :

أعلم أنها اشتغاليه انه اتفق ليه ان الملك هنري الثاني والد ملكنا الحسناني
زار ليه أبي أمير الجيوش في هذا القصر .

وقد طال حديثها عن السياسة والحروب إلى قرب الفجر ، فساأحبا
الملك ان يعود إلى اللوفر وذهت في هذه الغرفة التي لم يبت فيها أسد بعد
إلى الآن .

وأنا أرسولك ان تبيت فيها ، فان مقامك عندي لا يقل عن مقام المولى
تم تركه وانصرف ليلقى الأوامر إلى الخدم بشأن ضيفه العزيز .



أما بارديليان الأكبر فإنه بعد ان فارق والده ذهب ترو إلى الفندق قنابي
صاحبه وقال له أين كاليفور .

فأجابته لاندي متذمرا انه في الاصطبل ، ولكن هذا الرجل الذي
جرحته .

فقاطعه بارديليان قائلا : في أية جهة من الاصطبل

- في الجهة اليمنى وسأذهب معك فأدرك حلبة ، ولكن هذا الجريح ؟
فتقدمه بارديليان دون ان يجيب إلى الاصطبل فدخله صاحب الفندق عليه
وقال له : هوذا كاليفور ، ولكن الجريح يا سيدي ؟

- ألا تزال تذكر بي هذا الجريح ، وأي ذنب لي إذا قهرته ولم يستطع
لقاه صدماتي . ويعد ، فماذا حل به العذم مات ؟

- لم أقل يا سيدي أنك غطيه .

- إننا ماذا تريد ان تقول . . إني لبيسوتي أن أقتل هذا اللبكيوت ؟
والكنه هو الذي أراد الموت لنفسه .

- انه لم يبت يا سيدي

- إذا ماذا حدث له

- انه بعد أن قلب إلى رشده جعل يتوسدك ويهول انه ليسفك من دمك
ارطالاً بقدر ما سفكت قطعا من دمه .

- يستحيل ذلك عليه إذا لم يبق لي من الدم ما يوزن بالأرطال .

- وقد طلب ان يذهبوا به إلى قصر مسج .

فوقف بارديليان مفكرا ثم قال : ان كاليفور سيصلح كل هذا .

ثم أشار إلى لاندي مودعا وهو خارج بالمجواد .

فقال له صاحب الفندق مبسما : ولكنك تذكر يا سيدي انك
وعذاتي بتسديد ذلك الحساب القديم ، وضربت على عنقك فاصمتني
ربيع الذهب .

- هو ذلك ، ولكنك سيء البخت يا مولاي ، فقد اعطيت ما كان معي
من المال إلى كاتي . لا يسوءك ذلك ، فقد اتفق المال في سبيله وسأدفع لك في
زيارة أخرى .

- ولكن ابق لي هذا المجواد على الأقل .

- كلا ، قاني محتاج إليه لشفاء جرح الفيكونت اسبرامونت .

ثم امتطى صهوة كاليفور وسار به مسرعا إلى قصر مسج .

وهناك وضع مجواده في الاصطبل وصعد إلى غرفة المارشال .

فاستند هنري قائلا : إني كنت في انتظارك إذ لدينا كثير من المسائل التي
يجب تسويتها .

أريد أن تبدأ يا سيدي بمسألة الفيكونت اسبرامونت .

- نعم وأذكر اني أوصيتك أن تجرد من أصدقائك ، فكأنك فهمت عكس
ما أردت فرددته بي جريحا وحرمتمني من خدمة تخلص رفي .

- ولكن التبت يا مولاي بأفضل منه .

- من هو ، وأين هو ؟

- انه في اصطبل سيدي اللوق ، فإذا أراد مولاي فليتفضل بالتزول

فيه فبراه . إذ لا يستطيع الصعود أو الهبوط سيدي من النافذة وينظر فيه منها
فانه عند باب الاصطبل .

فذهب هنري إلى نافذة غرفته وأحسب أن يعلم ماذا يريد بارداليان .

فلم يكدر يظن من النافذة حتى صاح صيحة انهدهاش وقال : ماذا
أرى . ان هذا الجواد جوادى القديم ورفيعي في المعارك ، فمن عاد
به إلي ، أنت ؟

- نعم يا مولاي فقد اعطاني إياه ذلك الرجل الذي لعنك ليلة في مديرك مع
الصوص ولولاه لما نشرحت بلفاتك .

- هو ذاك ، فان هذا الرجل انقضي من موت كان متهما ، ولولاه لما كنت
الآن في قيد الحياة .

- ألا تريد أن تعرف اسم هذا الرجل الذي اتفدك يا سيدي

- مون ريب بل إني أوقى إلى معرفته .

- انه الشفاليه دي بارداليان ابن خادمك المطيع ووريث

فجاس هنري في كرسيه ونظر إلى بارداليان محققا فقال له : أوضح لي في
البدن مبارزك مع الفيكوت .

وكان بارداليان يتوقع ان يسأله عبر هذا السؤال فلم يعلم على فرط خبته ان
هنري كان يريد أن يظلم الوقت ليفكر

فروى له بارداليان كل ما حدث بينه وبين الفيكوت مما ظهر منه من
شخصه كان الخطي .

قلنا تم حديثه قال له هنري : إذا لقد كان الحصاد بينكما لأسباب عارضا
ولست تضمن حقا عليه .

- على الإطلاق .

- لعمري الآن إلى حديث كالبور أي إلى حديث ولدك ، قلته قلت لي انه
هو الذي اتفد سيدي في تلك الليلة .

- نعم يا سيدي والبرهان انه اعطاني كالبور علامة للمعرفة .

ان ولدك يا بارداليان من الرجال البواسل ، وقد لقيت اليوم ايضا منه
وهذا آخر على بساكنه ، وأنت وعدتني أن تحضره إلي

فتدعن بارداليان عنيفة ورأى انه لا يستطيع إستلاك هنري ، وعلق
أذنته عن ولده إلا إذا قال الحقيقة عنه .

فأجاب بهجة تزيق فيها الصدق والإخلاص

إني اقترح يا مولاي على ولدي أن يكون في خدمتك ، فأبى لأنه متصل
بأخيه فرنسوا دي مونفوراسي .

ولست الآن يا سيدي في هذا الأمر بجلاء ، فارت ولدي اكتشف سرا
عائلا لمحبه مون ريب ، ولكنني ضيق به .

انه قد حضر اجتماعك في فندق ديفيليه فهو يخاف غضيب بل انه مندهر من
رجل كان ممكنا وهو حاكم الباستيل .

ثم انه ذات وقتا كل ثلاثة اشهر إذا عذرت به ارسلتموه حالا إلى الباستيل
الذي لم يخرج منه إلا بأجوبة .

وهذا هو السبب الذي حمله على الامتناع عن الحضور اليكم وهو سبب
وحيه مقبول يا سيدي كما ترى .

وفرقتك فقد تقدم لي القول انه متصل بخدمة اشيك نفس اتصال
بخدمتك فينتج من ذلك اني أصبحت بين أمرين وهما : أما أن أخونكم والحياة
مسمومة لا يقدم عليها شريف .

وأما أكون عدو ولدي ، وذلك مما لا استطيعه ، بل لا يستطيعه أب
على الإطلاق .

أما وقد أظهرت لكم الحالة بهذا الجلاء ، فاسمعوا لي أن أستنجح
عنها ما يأتي .

لنك يا مولاي إما أن تكون استخدمتني لغرض الذي اتفقنا عليه ،

أو لفرس آخر ، فإذا أردت أن أبقى في خدمتك لفرس الأول ، كنت في خدمتك من أرفى الأرفياء .

وأما إذا أردت أن تلتزم بالأغراض السياسية فليست خدمتي لأخرك الخاصة والمشاكل العائلية ، فإذا اعتزل خدمتك لأني لا أريد أن أكون عدواً لولدك .

وكان هنري يسمع ما يقوله بنى الرضى والارتياح .

ولما أتم حديثه قال له :

- انه ليس يعدوك يا سيدي ، بل هو من انصار أخيك وهو لا يريد أن يتك في شيء ، ولذلك يروح باريس منذ هذه الليلة .

- واستأذنا يروح باريس . . . إنك كلفني يا بارداليان مجلداً ، وأنا أكلك مثله .

ثم لقد شطر في هنية أن أمرو ولدك إلى حاكم الباسكيل ، قالت سجع محادثة خطيرة جرت بيننا ، ولا أعلم كيف اتفق له ذلك .

ولكنني عشت منه اليوم انه لا يمكن ان يروح بسر ، ورأيت من حسارته يدخلوه إلى قصرى ، وما فعله أمام الملك ومن طريق خروجيه من القصر ان من أسهل الناس وأشدهم جرأة وأقداماً وأوفرهم حيلة وذكاء ، ولذلك يت نواها إلى أن يكون منا .

بارداليان ان ولدك قد توفرت فيه جميع الصفات التي تجعله في مصاف كبار الرجال ، ولكنه فقير معدم وليس له نصير .

فأنتني به أبعده غنياً وأصيره من كبار رجال البلاط في الملكة القادمة .

- لقد فأنك يا مولاي انه بسبب هذه الخطة التي تهجها في القوفر ، صدر الأمر بالبحث عنه ، فإذا قبض عليه شئت لا عمالة ، ولذلك لم يجد بداً من مبارحة باريس .

فأبسم هنري وقال : ولكنه سيكون في قصرى آمننا مطمئناً لا يحسر أحد ان يناله بسوء .

- هو ذاك يا سيدي ، ولكنه سافر الآن لأنه كان مضطراً إلى العودة في أرجل لسبب آخر غير سبب عادية القوفر .

وهناك فص عليه بارداليان ما جرى له ولابنه في تلك الجزيرة حتى إذا أتم حكايته قال له : إنك ترى جليلاً يا سيدي ، إنه لم يكن له مندوحة عن السفر .

قال : ولكني أرى إنك أصبحت مسؤولاً مثله ، فكيف سافر هو وحيث أنت ؟

فأجاب بارداليان عل ، الساطة قائلاً :

إنى بقيت يا سيدي لأني وعدتلك أن أخدمك .

فأجيب هنري بأخلاقه ومد له يده مصافحاً ، فارتفعت منزلة بارداليان الأكبر عند هنري .

وبعد ان كان الأب والابن لا ملجأ لهما ولا يبقان ابن بيتان ، أصبح ميثابا في أعظم القصور .

وحده
قائضيه
مقتلدى
البياليس

أم الملك

بعد ثلاثة أيام من الحادثة التي جرت في اللوفر ذهب اللارشا فرنسا
 دي مونغورانسى إلى قصر أخيه هنرى ابنه ذلك الحصاص يضربه
 فاصلة قاضية .
 وكان قد أمهله ثلاثة أيام كما يذكر الغراء ، فلما انقضت المدة ذهب إلى أخيه
 ولم يكن يصعبه غير فارس واحد .
 وقد سار فرانسوا وهو منبط جواداً أسود ، وقد لبس خوذة من جلد الغزال
 وتقلد سيفاً من سيوف القتال ، ومشى في شوارع باريس ، فكلمت من رآه
 يعجب لخروجه بهذه اللباس البسيطة ، بعد أن رأوه يسير إلى اللوفر بذلك
 الآلية ، واللوكب التي لا يخرج بها غير النبوك .
 وكان يارداليان قد ألح الحاصصاً عظيماً عليه كي يأذن له برفاقته ، فأبى
 وسار مع ذلك الفارس الذي ذكرناه .
 فلما وصل إلى قصر مسع أشار فرنساوا بإشارة إلى الفارس ففتح في يوق
 كان معه .
 وكان باب القصر مغلقاً ، وكذلك زواغه جميعها .
 فصير الفارس هتية ، ولما لم يفتح الباب نفع في اللوق فأنسية ، ثم نفع ثلاثة
 فلم يفتح .

وعند ذلك خرج من جوانبه ، بإشارة من فرنساوا ، وطرق ذلك
 الباب
 وبعد هتية فتح الزجاج ، وظهر منه رجل ، فقال لذلك الفارس :
 ماذا تريد ؟
 أجاب : إننا تريد هنري دي مونغورانسى ، الذي يدعونه دوق دي
 دامفيل .

- وماذا تريد منه ؟
 - إننا جئنا لتلقته الحساب عن إهانة الضابط بنا .
 ففتح الباب عندها يحملته ، وخرج منه ضابط والمجن أمام فرنساوا بله
 الاحترام وقال :
 - يسوفى ان أشعركم يا مولاي ان اللوق دي دامفيل قد اضطرو أمس إلى
 مبارحة باريس بامر جلالة الملك .
 فاصفر وجه فرنساوا ونظر نظرة حادة إلى القصر .
 فقال له الضابط :
 - إذا أراد مولاي ان يسفريخ في القصر ، يذلت في خدمته ما يقتضيه
 نظام الضيافة .
 فأجاب فرنساوا قائلاً : إننا نرضى أيضاً هذه الضيافة .
 فلحق الضابط أمامه قد دخل وأقفل الباب .
 وعندما نفع الفارس باللوق أيضاً وراى بصوت مرتفع قائلاً : « هنري
 دي مونغورانسى ... دوق دامفيل ، ثلاث مرات .
 ولما لم يجبه أحد دأمن الباب الكثير وقال :
 يا هنري دي مونغورانسى ، إننا أيننا نناقشك الحساب عن إهانة
 عظيمة ، وقد أذرتلك إننا سنجيبك عليك اليوم ، ولذا حق لنا ان نقول
 لك هربت حرب الجيئاد الأتذال ، وركنا لك نقاسارتا فهو سيئفى دليلاً على

حينك إلى ان تلقى .

وعندها تزح فرانسوا لتفاز من يده اليمنى وأعطاه الفارس

فأخذ الفارس وأخرج من مروج حواده مسباراً ومطرقة ووضع لتفاز على
الجاب الكبير ودفى فيه المسار ثم رجع إلى حواده .

وقد بقي فرانسوا في موقفه عدة دقائق ليقيسه ان أخاه كان في القصر وان
لا بد ان يخرج لقائه بعد هذه الامانة إمانة التفاز .

ولكن هنري لم يظهر ، والبسب لم يفتح ، فانصرف فرانسوا عائداً
مع الفارس .

وفي الوقت نفسه كان رجلاان واقفين في منتصف ذلك الشارع نفسه الذي
كان فيه فرانسوا .

وهما الشفالييه بارداليان وصديقه فكوت دي ماريليانك .

وذلك ان فرانسوا حين ترك قصره وأبى على بارداليان ان يصحبه ، رجع
بارداليان للقصر بعده وسار قراً إلى شارع بيكسي حيث التقى فيه بصديقه

مودات وأخبره بما عزم عليه المارشال .

ولم يكن لمودات مأرب في التثبيح لفرانسوا ولكنه كان يود خدمة
بارداليان في كل ما يطلبه اليه ، فلم يتأخر لحظة في إجابته الى طلبه وهو مرافقت

إلى قصر مسع .

وقد قال بارداليان لصديقه : إننا نصبر إلى ان يدخل المارشال فرانسوا
إلى قصر أخيه وننتظر حودته فلئان لم يعد دخلنا نحن أيضاً إلى ذلك القصر وسألنا

الدوق دافيل عن أخيه .

فاجاب مودات قائلاً : لا أظن ان المارشال يدخل إلى قصر أخيه ،
لقد عرفت أخاه حق العرفان ، فهو لا يخرج اليه ، ولا يقابله ، في

هذا الموقف .

واشياء الصديقان في التمتطف ورأى كل ما فعله فرانسوا .

ولما تصرف فرانسوا قال مودات : أرأيت أيها الصديق كيف ان ظني
لم يخطئ .

وعندها رجعا الى منزل الأميرال كوليني حيث كان يقم مودات ، فكان
مودات ملكراً وبارداليان قلقاً .

ولما وصلا إلى المنزل عد بارداليان يده إلى صديقه مودعاً وقال له ان عائد
إلى للارشال .

فلم يده مودات يتعجب وقال له : في رجاء أيها الصديق تجيبني اليه ؟
- كيف لا أجيبك إذا كان من الممكنات .

- إن قضاءه ممكن وهو ان نلتمشي معي هذه الليلة لأن الساعة قد بلغت
الثامنة الان فتذهب إلى فندق لا يعرفك أحد فيه ثم أذهب بك إلى خطيبي

فأعرفك يا ، أقبل أيها الصديق .

- كيف لا أقبل وان خطيبتك لو كانت في الهند وأردت ان تشرفني بعرفتها
تعبت معك فيها .

فتأبط كل منها فراح الآخر وسارا إلى فندق قتمشيا فيه .

وفي الساعة لتاسعة خرجا من ذلك الفندق يوصارا بيشيان على مهلي ويتحدثان
إلى شارع لاماش حيث تقم البس دي ليكسي .



وتعد الآن ان البس دي ليكسي تلك الجاسوسة التي أذها القرام وهذب
نفسها ، قتمشلت لها عيونها السابقة بأقطع لثال رابت توبة صادقة وهي لا تزال

توصف بقبود تلك الآدم .

كانت البس تستظر في تلك الليلة خطيبتها وعلامم الرعب شاهرة على وجهها
أسباب سلبتها لقراء .

وهنا لا بد من القول انه قد جرى بين باردليان وطهوات ذكر خرافات
الجسر مراراً كثيرة
ولكن باردليان لم يقل له مرة ان ملكة النافار كانت تصعب معها فانه
حسنا في تلك الحادثة كان يظهر انها وصيفة الملكة وكذلك ليس فيها لم تنس
بكلية إلى خطيبها عن تلك الحادثة

فناج من ذلك ان عودات كان يجهل ان باردليان أخذ خطيبته وان باردليان
كان يجهل ان تلك الخطيبة هي وصيفة ملكة النافار .
ولقد قلنا ان ليس كانت في تلك الليلة قلعة مرجية .
أما قلعتها فقد كان لقدم حنة وابنتها اليها .

ونعم انها المحدث كل ما يجب التحفظ من أسباب الاحتياط فأقامتها في
غرفتين في الدور الأعلى وأقفلت عليها الأبواب .
ولكنها كانت تخشى ان يعلم خطيبها بمرحمتها اتفاقاً وبسألها عنها فلا تتردد
كيف يجب او يتكلم حنة وهناك الطامة الكبرى فزانه يعلم للفرور من حديثها ان
خطيبته تنزل أسفل مور بنته إنسان .

وليس ذلك بما يروع ليس ورحبها فقد كانت أطلق للناس لسبباً وأدراك
جناناً في مجال الكذب والاختلاق والتفتيق .
ولكن رعبها كان فاجأ من رسالة موجزة وردت اليها فأعدت في نفسها
هذا الرعب الشديد

ولم ينس القراء ما كان من اتفاقها مع الملكة كثيرين في اجتماعها الأخير وهو
ان تكتب لها كل ليلة تقريراً وتلك من دفعة في ذلك العصر الذي شيعته
الملكه للقلدي .

فكانت ترسل اليها بضع كلمات مبهمه مثل قولها
لم يحدث شيء جديد . أو رأيت الرجل والأمور جارية في أحسن
بحري .

إلى غير ذلك من مثل هذه الأقوال .

وقد نعت في تلك الليلة ، حسب عادتها ، لتلقي تقريرها في الساعة ،
فلم تزل ان يبدأ خرجت من تلك الساعة ، ووضعت في يدها ورقة
مطوية .
فأخذت الورقة ورجعت إلى المنزل ففتحتها وقرأت ما يأتي :

(دعي الرجل يبق عندك ال الساعة العاشرة وأصرفيه في هذه الساعة
بدون تأخير فإذا شاء ان يقيم الليلة كلها عندك ، فإخذي ما تجدته صالحاً من
الأموال بشرط ان يكون الساعة العاشرة في الشارع ، واعلمي انه لا يراه
أحد في شيء) .

وقالت هذه الرسالة من الملكة كاترين ، فلم تظلمن ليس لكلماتها الأخيرة
وأبذنت أنها لم تطالب ان يكون الكونت دي مارطيك في الشارع في
الساعة العاشرة إلا لما جرت له لاختطافه ، لأن هذه الملكة لا تنف في جورها
عند حد .

ولذا كانت شديدة الرعب ولم تستقر على رأي .

ولما طرق الباب ، وقتت مصفرة الوجه ، محتلمة القلب ، وقالت :
هوا قد أتى .

وقد استقرت في تلك اللحظة على رأي وهو ان تعمي الملكة وتكروه
خطيبها عن البقاء عندها كل الليل غير متكلمة للمواقب .

وبعد حينها دخل عودات إلى غرفتها فاستقبلته بإسعة باشة كأن العواصف
لم تكن فترة في نفسها .
فصاحق يدها وقال لها :

- إنني أقدم لك أينما الحبيبة الشفالييه دي باردليان أخلص إخواني وأنتين
ان تحب كما أحب .

فعرفت ليس باردليان لأول وهلة .

(9) باردليان (٢٤)

وكذلك بارديان فإنه عرفها أيضا ، فأنقذ أمانها وحيادها أجل تحسبا
بدون ان يظهر أنه يعرفها من قبل .

فكانت له ليس : إنك يا سيدي لشقاليه صديق الكونوت فأحسب نفسي
سعيدة بوجودك في منزلي وأن الكونوت بعد نفسه سعيداً بذهابه عن صدقتك
في حالته المحاضرة في باريس .

فأجابها بارديان بثل هذه الجملة من غير ان يظهر حاله يعرفها .
وكانت ليس لمعجب كيف انه لم يشر إلى تلك الحادثة السابقة .

وكان بارديان يقول في نفسه كيف وجدت وصيفة منككة النافار في هذا
القول ؟ وما هذا الاضطراب المساند عليها ؟ وبالي أذكر أن الملكة قد عرفتها
أمامي لدفع الركبة إلى الجسر .

وليثروا على ذلك يتعدون ويتناهون إلى ان دقت الساعة العاشرة فارتمشت
ليس وقالت : رياء ماذا أصنع ؟

ثم جعلت تشغل نفسها وخطبتها بالحديث وهي تلون معه ، تصفر مرة
وتحمر أخرى وبارديان يراقبها فيعجب لما يراه منها .

إلى ان وقف الكونوت وقال : لقد كان أوان الانصراف .

فذهرت ليس وقالت له : كلا لا أدعك تذهب لأني خائفة .

فبثت الكونوت وقال : ما هذه المخاوف يا ليس وما تخافين ؟

وقال لها بارديان بلهجة المارف بما يحول في نفسها : أقسم لك يا سيدي انه
لا يصاب الدنيا بكاروه .

وخرج الصديقان فشيئتها ليس إلى ابواب الخارجي وهناك حست في أفن
بارديان قائلة : أرجو أن لا تفارقني حتى يدخل إلى محل أمين لأني أظن أنهم
يريدون قتله .

فارتعش بارديان لأن هذا القول أيد ما كان يراه من عينيها حين
مراقبتها .

ثم اتعرف الاثنان ولبثت ليس واقفة عند الباب مدة طويلة فلم تسمع حساً
ورجعت إلى المنزل مطمئنة .
أما بارديان وهدوات فإنها جملا يسيران ويتعدان ، وبارديان موسى
خيلة عن حديقته .

فقد رآه أمر هذه النساء ، ونقدتها نقد الدقق ، فلم انها تحبه حباً خالصاً
ولكنه علم أيضاً أنه يوجد في حياتها سر عظيم لتضطرب له وأنت خوفها على
خطيئها لم يكن عبثاً .

خلاقاً لهدوات فقد أحس الحب بصيرته فلم ير شيئاً مما رآه بارديان فسأل
حديقته قائلاً :
- كيف رأيت خطيئتي .

فأجاب بارديان : إني لم أر أبعث منها جملاً ، كأنها الله قد خلقها
كما اشئت .

- ولكنها تخاف علي خوفاً شديداً ، ولا أعرف سبب هذه المخاوف .

- إن الحب يصفى القلوب أيها الصديق ، ولو أحببتني امرأة كما تحبك
خطيئتك لأعلمتها أن كل ما يريد حتى في وقاية هذه المخاوف .

فتنهت وقال : لا شك ان ليس غير حالة بشي فإذا كانت خائفة علي فليس
هذا الخوف إلا من ذاك الحب .

ولبنا يتعدان ويمشيان حتى دخلا في شارع بيتيهسي فلقيا رجلاً قد دأ
منها فعدرا منه ووقفوا في موقف التأهب .

أما الرجل فإنه التقرب منها فصيحاها وقال :

لي كلمة يا سيدي أحب القادما إلى أحدكم الكونوت ماريديك .

فأجاب ماريديك قائلاً :

- أنا هو يا سيدي فماذا تريد .

وكان هذا الرجل مورفر ، عامل الملكة كاترين وعمو بارديان الألد ،

وحاول أنت بزي وجه بارداليان ، ولكن الظلام كان حالكا فلم يفرده ،
فخطب الكونت قائلا :

أحب يا سيدي الكونت أن أكفك في خلوة فلا يسمع كلامنا أحد .

فعرف بارداليان مورفر من صوته وضغط على يد صديقه يودات فأدرك
قصده واجابه قائلا :

قل يا سيدي ما تشاء أمام صديقي فاني لا أكنه شيئا من أمري .

فردد مورفر هنيئة وهو يحاول أن يعرف هذا الرجل الذي يسمعه فلا
يستطيع حيث قال :

- لقد عهد إلي يا سيدي الكونت أن أسبر بك إلى شخص ينتظرك

- من هو ؟

- هو امرأة في ارقع منزلة وهذا كل ما استطيع التصريح به ما زال يوجد
من يسمع حديثنا ، وأريدك يا سيدي ان هذه المرأة قد تجاوزت عهد الصبر

فليست الزيارة زيارة عوام .

- إلى أين تذهب بي إذا رضيت الذهاب معك .

- إلى اول منزل على الحصر الخشبي يا سيدي الكونت ولكنك لا تستطيع
الذهاب إلا وحدا .

.. ولكن من أنت يا سيدي ؟

- أسألك العذرة يا سيدي ، وأرجو أن تقتصر على الي مندوب
الذي ارسلني .

فأخذ بارداليان عند ذلك صديقه يودات وابعد به يضع خطوات كي يجده
على انفراد فقال له بصوت منخفض :

- أعزمت على الذهاب معه .. اذكر أيها الصديق انك أقسمت على أن
تكون حكيما .

- لا أذهب

وبني ذلك تكون قد أحسنت .. أتمنى من هذا الرجل الذي بكفك ..
ان مورفر أحد جولادي كارين .. ثم أتمنى من الذي ينتظرك في ذلك المنزل
الذي بينه ؟ .. انها كارين مديس نفسها .

فاغتمت لهجة يودات وقال : أنت والائق بما تقول ؟

.. كل الثقة فأصرف هذا الرجل بما تقتضي حرفته للشائنة أي ..

ولكن يودات لم يدع بارداليان يتم حديثه فانه أفكته منه وعاد مسرعا إلى
مورفر وقال له :

- اني مستعد يا سيدي للذهاب معك .

وقد انط هذه الجملة بلهجة القنوط وهو يقول في نفسه : لقد أتت ان أرى
أمي وجها لوجه ..

أما بارداليان فقد كاد يحن من خوفه عليه وقال له : ماذا تفعل ؟

فلم يجبه يودات بل قال لمورفر : هلم يا سيدي .

فقبل بارداليان جيدا عنيقا كي يمنع عن الذهاب غير أن الكونت شد
على يد صديقه كأنه يودعه الوداع الأخير .

ثم قال له هامسا في أذنه :

اودعك أيها الصديق آخر وداع وأسأل الله ان يباركك .

فقال له بارداليان : ماذا تفعل يا يودات أجنت ؟

كلا ، لأنني أرجو ان تقتلني كارين دي مديس .

- ولكني لا افارقك .

بل فارقني لأنك لا تستطيع الذهاب إلى حيث أذهب .. بل لأنني
ناهب إلى حيث يدغمي القصر .

- كونت ، اني لا افارقك واذا كنت وياك فلا خوف علينا من القتل .

بارداليان .. ليس الكونت دي مارليبك الذي يذهب الى الملكة الأم
بل هو يودات الورد القبط الذي وجد طفلا على سلم الكنيسة .. أتريد أنت

أصعباً بكلمة سبب هذه الكتابة التي تتولاني .. أريد أن تعلم لماذا أتعبت على الملكة وأنا أعلم اني لا ألقى إلا الموت ..

- نعم .. نعم .. أريد أن أعلم ..

- إذا .. لسأعلم اني أريد أن أعرف أمي .. فارت كارتون من مديس أمي ..

ثم أقلت من يد بارداليان وأشار إشارة إلى مورفر ولقدسه ، فزبه مورفر وبقي بارداليان ساهباً قائلاً يقول : «يودات ان الملكة ؟»

ثم ذهب إلى ذلك المنزل الذي ذهب إليه صديقه مع مورفر وهو يعرف من قبل ، لأن قابل الملكة فيه ، وقد عزم على أن ينظر صديقه خارج ذلك المنزل فإذا لم يخرج منه دخل إليه غير مكترث لما يكون .

وكان يقول في نفسه وهو ذاهب : ترى أكانت الليس حسنة ان مورفر يراقب خطيبها .

حتى إذا وصل إلى ذلك المنزل رأى ان الظلام يكتمه من كل ناحية ، وأنه أشبه بالقلاع والحصون منه والبيوت والقصور فوقه يناجيه ويقول : أي هذا العصر الفخم ذلك تشبه الوفر بجمالك وروائك ، وتختلف عنه بجلالك وساطنك .

إن الوفر يسكنه ملك ضعيف الرأي هزلي الجسم يحول فيه فائقاً مضطرباً كما يحول أثنائه في الصحراء القاحلة .

وهنا تقع تلك الملكة التي يدعونها الملكة الكبيرة ، قدعير دقة البلادته وهي ساكنة سكوتاً تنفض منه الصواعق .

إن هذه الملكة هي أم فرانسوا التي مات بعد بضعة أشهر من ملكة مينة غريبة لم يعلم سرها أحد .

وأم شارل الذي لا يد أن يموت أيضاً موتاً غريباً .
وأم هنري «الجم المستأنت» .

وأم مرغريت المسترجعة .

وهي أيضاً أم يودات التي استجعب كل صفات الرجولية والكمال ، وكيف خرج هؤلاء البنون عن اختلاف أخلاقهم من بطن واحد .

وقد نزلت له تلك العرفة التي استقبلته فيها وقتل تلك الملكة جالسة على كرسيها الضخم ، وأنها تصدر الأمر بالقاء القبض على صديقه فوضع يده على حسامه وقال : «لقد إذا لم يخرج صديقي في القريب العاجل دخلت المنزل ولو كان حراماً من الأداة وانتزعت روح تلك الملكة من صدرها فظهرت الأرض من الدس .

وعندها رأى انه لا بد له من الاختباء ، بعدما عزم على الانتظار فاختبأ في مكان قريب .

أما كارتون فقد كانت جالسة في غرفتها ، ولا يوجد معها غير الفلاني واليهودات .

والكها لم تكن تكتب رسائلها في تلك الساعة كما كانت تفعل حين كانت لتظهر إرداليان . بل كانت تحادث الفلاني فتمسأله من حين إلى حين قائلة : ترى المحضر .

وكانت علامه الاضطراب باقية على الفلاني كأنه كان يتوقع أن يصاب ابنه بكموره .

ونظرت إليه الملكة نظرة الشفق وقالت له :

- ألم اعطيتك يا ريتيه ، التي لا أريد له الموت اللينة ، بل أريد أن أسير عوده واكتشف دخائل نفسه ، فـ إذا كان كما أريد أن يكون ورايت في عروقه دمي عقوت عنه ونجاس من الموت .

إنك أبوه يا ريتيه ، وأنا أيضاً أمه ، ولكني ملكة ولا بد لي من قتل عوائل الأمومة والتمرغ إلى شؤون الملك .
وأما إذا رأيت على غير ما أريد ، فلا بد أن يموت .

و حيدر خان
مستكشف للبلاتيين

وقال لها رينيه - ولكن أي دخل لحياته وموته بشؤون الملكة
لم كنت واقفة يا رينيه إن هذا السر يبقى مكتوماً لتعاقبتي منه
ونسيته ، وأما أن أعيش ما بقي لي من العمر مسفرة متوحدة بسر مولود
الماتل فذاك مما لا أطيق .
أم تحب يا رينيه ان قلبي لم يحتاج حنواً حين قلت لي انه لا يزال في قلب
الحياة ، والى أردت موت لكمان السر دون تأخير .

فأجابها القدي بلهجة القانطين - لماذا لم تخبريني انك صحبت طر موتك وان
لا يستطيع أحد انفاذه ، حتى والده المتكوه ، وانك قضيت عليه القضاء
الذي لم
- أعيد عليك ما قلته ، وهو اني ما قضيت عليه بعد ، وربما كنت فيه من
المحسين ، إذا أمكن الاتفاق على بعض أمور .

وقد سمعت ملياً بهذه الحالة ورجائي أن يمكن الاتفاق .
وريد ، فما الذي أريد يا رينيه ؟
اني أريد أن يكون قلبي الذي يحن اليه قلبك حقيقه ملكاً لفرانسا وهو
الدوق والنجو

ومنى اني ولدي شارل دعوه ربه برثني ، وانجو إلى العرش ، والأمر بسيط
كما يبدو لك .
ولكن لدينا عدد هائل ولا سبيل إلى الرحمة والاشفاق بيننا وبين هذا
العدو ، فهو يريد لنا الموت المحتم ، ونحن نريد له القضاء المبرم .

ان هذا العدو يا رينيه ، أسرة البوربون ، ووالدة هنري دي نافر ،
تلك اللثة الذكية الشديدة الطامعة ، التي تتولى رئاسة هذه الأسرة ،
وتعمل على تزوج الملك من أسرة فالوا وتقليده أسرة بوربون ، بحيث يكون
ابنها ملك فرنسا .
وهي إذا تتخذ عرش النافار مسلماً ترقى به إلى عرشنا ، فلا بد لي إذاً من

تقطع هذا السلم وسد هذا السبيل .
فلتت أم هنري دي نافر وابصيح ابنها دون عرش ولتسحق تلك الأسرة
البوربونيه مسماً .

ومنى خلا عرش النافار من ملكه أيكون ملكاً عليه ، تخسيع رجل
من دمي .
فأدب يا رينيه انه متى بات قلبي هنري ملكاً لفرانسا ، يصح ولدك
ملكاً لنافار .

وربما كانت كلين صادقاً فيما كانت تقوله ، غير ان القدي لم يتق
بشيء من أقوالها فأطرق برأسه إطران المزين ، وعادت إليه المحاورف
والاضطراب
وعند ذلك طرق الباب ودخل مورفر بتيمة الكونت ماريلياك .

فاستقبل رينيه وقال له بصوت مضطرب : أهلا بفضرة الكونت .
وكان مبهوداً أشد اضطراباً من أبيه فالتفت أمامه مسلماً دون ان يتب
في اضطرابه .
وقد أشار إليه رينيه أن يتبمه وسار به إلى اللثة .

ولما دخل إليها ورآها ، خلق قلبه خفوفاً شديداً وقال لي نفسه :
منه هي أمي .
أما الملكة فلما نظرت إليه دون أن يدور عليها شيء من علائم الجنون ،
فالتت له

- لا أعلم يا كونت إذا كنت تعرفني
فأجابها بدهوات قائلا .
- أنت .
ثم اشتتن صوته كأنه يجاسول أن يقول لها : أنت أمي ، ولكنك لم
يستطع فسكت .

فدالت الملكة وقد شفق قلبها حقيقة في تلك المساحة : ماذا ..

- اني عرفت جلالك يا سيدي فإنيك أم .. شارل التاسع ملك فرنسا .

- رأيته قبل الآن ؟

- نعم .. لقد تشرفت بشاهدته جلالتك في بلوا ..

- حسناً فاصح ، اني سأذكرك ببلء الجلاء .

اني علة بأنك في باريس ، أما السبب في قدومك اليها مع الناس الذين

صحبتهم فلا أود ان اعرف شيئاً من ذلك .

غير اني أعرف ان الكونت دي ماريلياك صديق ابنه حملاً ستادي

البروت ، وان الملكة لتافار ثقة بك لا حد لها .

ولما كنت في حاجة إلى مباحثة هذه الملكة العظيمة في شؤون خطيرة ،

وكنت انت في الميزة التي وصفتها من ثقتها بك فقد أحببت أن تكون رسولي

اليها لأنها متراكم نعم الرسول .

وكانت الملكة تشكك وهو ينظر اليها مضطرباً ، إذ كان يعلم ان هذه

الملكة أمه ، وانها أعظم ملوك الأمم المسيحية بأساً ، ولأنها إذا صفت الله

يعرف كونها امه قتلته .

ولكنه بذلك جهداً عنيفاً إخفاء لاضطرابه ، وأجاب الملكة قائلاً :

- اني انتظر يا سيدي تلك الأحوال التي تريد جلالتك أن تعيد اني إبلاغها

فأنتقلها ببلء الأمانة والوفاء .

فدالت الملكة في نفسها :

إن ، بلا ريب ، لا يعلم اني امه وكيف يستطيع ان يعلم ، بل صديق

ينظر في هذا الخاطر ، العلي جنته .

ثم التفتت اليه وقالت :

- ان الذي أريد إبلاغه خطير يحتاج إلى ملاحظات .

وأول ما أبدأ به اني سأسألك أنت لا تعجب من اني استبقك هنا في

الليل بحضور صديق وفي بدلاً من استقبالك في اللوفر ، وفي النهار ، وأمام
رجال البلاط .

فان ذلك صديق : اولها وأخصها انه ليس من يعلم بوجودك في باريس ،

ووجود أصحابك إلي ، فلا أريد أن اسفك واسلمهم فتكونون ضحية

لك الأعداء .

ولسبب الثاني اني أريد ان يمتن كل ما اقوله لك مكتوماً .

ثم لا بد لي ان اخبرك بالسبب الذي دعاني إلى اختيارك وتفصيلك عن

سواك في هذه المهمة ، في حين انه كان ينبغي ان استدب لها واحداً من

رجالنا أو من رجال الملك ..

بل كنت استطيع ان انبط بهذه السفارة الأميرال كوليفي ، بل كنت

استطيع أيضاً ان أعهد بها إلى ملك التافار نفسه

ولم يكن ماريلياك خالفاً على نفسه ، فقد ذهب إلى الملكة ذهب اللانظ

وهو غير مكتوث الموت .

ولكنه ارتعش حين سمع الملكة تذكر بهذا الأسلوب الدقيق أسماء التي

قدموا سراً إلى باريس واجتمعوا في منزل الأميرال

أما الملكة فقد علمت انها ادرت قصدها بدليل انضمامها المساراة من

اضطراب ماريلياك .

وعادت لي الحديث وقالت :

- نعم يا كونت اني آرت ان أعهد اليك دون سواك بمهمة خاصة

بأعظم ملكة .

بل اني القيت بين يديك سلام ملكتين يجب ان تكونوا اختين ، واخيراً

انني أريد حل مسألة هذا الخصام المائل الذي اسأل من دماء الرجال واسفاه

يلتزم ما اسأل من دموج الأراذل والأيتام .

ومثل هذه القطائع تؤثر بالغالب الناس أكباداً ، فكيف لا تؤثر في أولاد
الملك فقط بل أمماً أيضاً .
فارتعش ديودات ارتعاشاً بيناً كأنما . سب ان الملكة تقول هذا القول
مقدمة للتصريح بأنها أمه .

وقد كان اضطرابه شديداً حتى انه اضطر ان يستند إلى الكرسي الواقع
بعرضه كي لا يسقط ، وكان الفيلسوف يراقبه أتم المراقبة ، فعلم رأى ان اضطرابه
لم يظهر إلا حين سمع الملكة تقول :
« وأنا أيضاً أم » قال في نفسه : انه لا شك عارف بكل شيء .
أما الملكة فلم تلتفت إلى شيء من ذلك ، فاستظرت حديثها وقالت :

لقد تقدم في القول إني استرثك ، ون سواك ليقيني من ان ملكة النافار
تحرك ، ولكن هذا القول لم يكن غير حجة ، والحقيقة إني استرثك لأن
لي بك ما أرب

فأجابها ديودات مندهلاً : لك في ما أرب يا سيدي ؟ عمل جلالة الملكة
تعرفني قبل الآن ؟
فابتسمت الملكة وقالت :

نعم اعرفك ، بل اعرفك من عهد بعيد لا يحضر لك في ذلك
- انتظر من جلالة مولائي ان تشرعني بإظهار هذا المأرب

- سأظهر لك كل شيء ، يا كونت ، وأما الآن فاني مظهرة لك الاقتراحات
التي أمهد اليك وإبلاغها إلى ابنة عمي ملكة النافار .
وسأسردها عليك بل الحرية والجلال ، فاسمع إلي أم الأصدقاء كي لا تتفكك
كله ما سأقول .

إني بذلت ما يمكن بذله من الجهد لتوطيد أركان السلم في العالم ،
فإذا سميت الملكة بيايكونتر صفو هذا السلم ، فإنا برينة أمام ملك السماء
وملوك الأرض .

واحد يعترفني الناس رئيسة حزب الكاثوليك ، ويمتدحون ملكة النافار
رئيسة حزب الهوكينوت .

وسواء كانوا مخطفين أم مصيدين فاني مظهرة لك اقتراحاتي فاسمع .
إعطاء الحق للهوكينوت بتعيين كاهن والشاه كنيسة في كل مدينة من المدن
فكبرى .

والشاه ثلاث كنائس في باريس مع الحرية لتامة للهوكينوت بالصلاة حسب
دينهم الجديد .

إعطاء الهوكينوت عشرة عمالات منيعة لمخارها ملكة النافار ، فتكونت
لهم ملجأ ومخاضة .

يحفظ لهم منصباً في بلاطها .
يكون لهم المساواة التامة بالكاثوليك في جميع شؤون الدولة والاعمال
التجارية .

هذه هي الاقتراحات يا كونت فكيف تجدها ... اني أسألك ابداء رأيك
الخاص بها .

فأجابها ديودات قائلاً : أرى يا سيدي انه اذا روحيت هذه الشروط كما
يتطلب بطلت تلك الحرف الدينية وذهبت أوارها

- إذا فاسمع الضمائم التي أقدمها لرعاية هذه الشروط ، فان كلامي
دقيق الملك عليها قد لا يكون كافياً على انها مقدسان ؟
فلم يجب ديودات بشيء على هذا التقربيع ، وعادت الملكة إلى
الكلام فقالت :

ان الوثوق دي الب يحق للهوكينوت محققاً في هولندا منعاً لانتشار مذهبهم .
وأنا أتمهد بتأليف جيش باسم ملك فرنسا لمساعدة الخوانسج في هولندا .
واني أقبل ذلك على ما هو مشهور من موافقي ملك وملكة هولندا .
ولكني لا يبقى أثر لتلك أولي الأميرال كوليني قيادة هذا الجيش وهو يعين

من يختاره من الفواد ، فما تقول في ذلك يا كوت ؟

أقول ان ذلك من أخصي وخائب الأيمال .

حسناً فاسمع الآن الضمان الثانية التي أعرسها ، فتكون غير مؤيد لاسم
التي هي بيتنا .

وهذه الضمان هي أنه يفر لي ابنة يتسابق إلى خطبتها امرأة النصرانية
في كل يوم .

وستكون ابنتي خير ربيسة ، فان البيت الذي تدخل فيه يكون
سديق الأسرة المالكة ، فإنا أعرس تزويج ابنتي مع عريت بالملك هنري
في نافر .

فماذا تقول في ذلك يا كوت ؟

أقول يا سيدتي إنني سمعت بانك من توابغ السياسة ، وقد حقق الخبر
- أظن أن مشكلة النافار رضى هذه الشروط وتزوج السلاح ؟

- إنها إذا كانت لا تزوج سلاح ازم القوة فهي تترعه دون شك ، بعد
هذا لتساعل فان ملكتي ترضى نفس رغبة جلالتك بتوطيد أركان السلم ،
وانها لم تندفع إلى الحرب إلا بما كان يعانیه الموكينوت من اضطهاد الكاثوليك
فهي تستقبل هذه الشروط بسره الرضى والأرياح ، لانها خير ضامن لتأييد
السلامة والحب بين الخريين .

- إذا أبلغ جلالتها على ما قلته لك ، واعلم لك سفيرى السري ، وهذا
كتاب حق فيها يؤيد سفارتك .

ثم أخذت عن المائدة كتاباً مفتوحاً محتوماً بالحتم الملكي وهو يتضمن
ما يأتي .

و سيدتي وقربتي العزيزة .

و أسأل الله أن يسلك كتابي هذا وتكونين في أهم حالات الخير والسلامة .
و بعد فإني لما رأيت هذا الحلاف الذي يفرق مملكة ولدي قد استقبل .

و عدت لي لتكونت دي مارييليك ان يملك اقتراحاتي على رجاء أنت
تدلي ليك قولاً .

وهو سيغيرك بكل أفكارى في هذا الشأن ، ورجائي أن أكون قد
استنت باختيار هذا السفير ، فأختم كتابي بالعادة إلى الله ان يصون جلالتك
من كل مكروه .

فربح مودات وأخذ الكتاب وقرأه ووضع في جيبه ، ثم نهض فوقف
ويحل ينتظر أن تبدأ الملكة الكلام .

أما الملكة فانبهت كانت تستمع مفكرة ، وهي تنظر من حين إلى حين
نظرات خفية إلى مودات تبدو منها علامات الاضطراب .

ولم يكن يظهر من هذه النظرات إذا كانت قد تحركت فيها عواطف
أدوية .

ولكن الحقيقة إنها كانت تفحص مودات لتعلم إذا كان صادقاً في إخلاصه
لكة النافار .

بل كانت تتاجي نفسها وتفحص ولدها الفحص النقيق لتعلم إذا كان يجب
لدار استبقاؤه وجمته ملكاً .

ثم حادت إلى الحديث فقالت :

قد فرغنا الآن يا كوت من البحث في شؤون الملكة والكنيسة ، فلنبحث
في شأنك الخاص .

وأول ما أبدأ به إنني سأفكر عليك سؤالاً بحرية وجلاء أمة أنت تجيبي
بشأنها ، أما سؤالى فهو .

هل أنتى حد بلغ اتصالك بملكة النافار والى حد تعلق باخلاصك لها ؟
فراغش مودات مع ان السؤال كان بسيطاً ، ولكنه بالنظر إلى اضطرابه
والى في خلال كلامها انداز للملكة .

أما الملكة فأنها مضت في حديثها قبل ان يجيبها مودات فقالت :

افهم ما اقلوه جيداً يا كونت . ان ملكة النافار اذا وضعت بافراحتي
وهو الذي ارجوه فلا بد لها من الخطورة الى باريس لحضور الحفلات التي تنعقد
اجلالاً لهذا السلم وهو بشية الجميع .

واني اريد ان تكون حفلة زواج بنتي تلك النافار حفلة قطبية ، يشترك
فيها الشعب وتحدث بها الناس عدة اعيال .

بل اريد ان يسيل اللون الاحمر في شوارع باريس ، وان ينير شعاع الحب
المدينة عدة اعيال .

ولقد قلت لك يا كونت ان ملكة النافار ستحضر هذه الحفلات ، وكذلك
هنري ولدها والاميرال كوليني ، وانت وكل من يتنسب الي منسب ، فاني
اريد ان يعلم الناس اجمعون جداتي حين اسمي لسلم الملكة .

ولكن ليس هذا اكل الذي اريد قوله يا كونت ، والى اذكرك بحرية فاسم
التي اعدت هنري دي نافر مستقبلاً باهراً بعد ان يقاتل بانيتي ويصبح بدمه
من اسرته ، بل اريد له ملكة ثابتة بكفاته .

وما هي ملكة النافار . انها بقعة صغيرة حمية يقنع بها رجل اصيل بسيط
وامسا مثل هنري دي نافر فيجب ان يكون له ملكة تشبه ملكة فرنسا
كبولونيا مثلاً .

فقال يودات مندلاً : بولونيا ؟

قالت : نعم ايها الكونت العزيز ، لقد وردتني اخبار خطيرة من حرس
الملكة ، وسأظفر بعرشها قريباً دون شك فاسقطه لأحد اولادي .

أولاً يكون هنري واحد منهم حين يتزوج بانيتي ؟

انني اوقية عندها ان عرش بولونيا وتصبح ملكة النافار من غير ملك
فأجابها ماريدياك قائلاً :

لا اظن يا سيدتي ان امه تدخل عن النافار .

كل ذلك يمكن يا كونت ، ولكن اذا اتفق انك كنت مندفعاً وخطاً

عزى النافار لسبب من الأسباب ، فما تقول . . .

لا أقول شيئاً ، ولكني انتظر ان توضح جلالتك الحكامها .

ان فكري بسيط ، وهو انه يجب ان نجد ملكاً للنافار ، بعد خبر
فرشها ، فارت . هذه المملكة الجيدة لا ينبغي ان تفر من غير ملك ، وقد
وجدت هذا الملك .

فاندلج مع دات وعجب كيف ان ملكة فرنسا تنداني الى مساحتها في
هذه الشؤون الخطيرة وهو لا منصب له كبير ، ولا هو من حصار قبيلة او
اسباب النفوة في السياسة .

على انه في الحقيقة لا يمكن يكثر شيء من هذه الباشات ، بل
كانت اماني قاصرة على ان يسمع من قم حرسه الملكة كلها حتى تدل على
انها حقيقة امه .

ولم يكن قد سره من جميع هذه الباشات غير الاقرار على التسلم وزواج
هنري دي نافر .

وعادت الملكة الى الحديث فقالت : وقد وجدت هذا الملك يا كونت كما
قلت لك وهذا الملك هو انت .

فصر صودات وقال : أأ . . . ان اكون ملك النافار ؟

فأجابته بل ، السكينة : نعم انت هو يا كونت .

ولكن جلاله الملكة نسبت الي لست شيئاً مذكوراً في هذا الزمير .
ولذلك اردت ان تجعلك شيئاً مذكوراً .

سيدتي ماذا اسمع . . . ان من كان في منزلي الحفيرة لا يرفعون به الى
هذا القام الرفيع إلا لأسباب خطيرة .

وسأجد هذه الأسباب فاطمن .

انني قد اكون أخضعات التغيير ، يا سيدتي ، فاني ما أردت بذلك
الأسباب ، بل الأسباب ملكتي القادمة التي تحمل جلالتك على وقبسي الى

واني أصعب نفسي يا سيدي في سبيل معرفة هذا السبب .
وكان يقول هذا القول بوجه تأنيب عظيم ولكن اللبنة حسنت تأنيبه
أصابه من العيشة فقالت :

- ماذا تعيدك يا كونت معرفة السبب ألم أقل لك في بدء الحديث أن
لي بك ما يارب .
فأنتم لها الكونت هذه الفرصة التي تم بك فإني لا أقر كل حين ولا تحاول
معرفة السبب الذي يحدثني على إسماعك .

وأنا أعلم ما يصيبك من الاضطراب في مثل هذا الاقتراح التجسسي الذي
يعرض عليك ، ولكن لا تبال بكل ذلك وقتي اني ضامنة لك ما أقول .
وكل ما أريد ان اعطى الآن ما سأنتك إليه من قبل وهو اني حد يبلغ
انتصافك بملكة النافار ، فإني سأعتمد عليك بتمام هذا الشروع الذي أشروا .
اي مشروع إخلاء عرش النافار .

ثم ابتسمت وقالت : اي الشروع الذي يضمن لك النافار عرشاً أعلى .
فأجابني بدهدات قائلاً ، اني لا استطول ان معرفة نيات جلاتك ، ولكني
أقتصر على اجابتها بما شرفني بالسؤال عنه .

وقد سأنتي جلالة اللبنة إلى اي حد يبلغ انصافي بملكة النافار وعن مبلغ
إخلاصي لها ، ليس كذلك ؟
- هو ذاك .

- إننا فاعلمي يا سيدي . . . انك قلت منذ هنيهة قولاً لا أزال مضطرباً له
إلى الآن فقد قلت : وأنا أيضاً ام . . .
وقد تذكرتك هذه الجملة يا سيدي ، لأنك ام واظن ان لديك تلك
العواطف المقدسة التي تزين قلوب الأمهات ، وانك قد تؤثرين الموت عن ان
تكوني السبب في إشفاد احد بنيك ، ولذلك فأنت تعلمين كما اظن شدة انطاف

فأصفر وجه اللبنة كثيراً وقالت له بصوت احش :
ما هذا التمسق القريب في حديثك يا كونت فإنك تظن ان لي عواطف
أمومة ، وتظن اني أعرف انطاف البنين على الأمهات ، فهل تشك في ذلك
يا كونت
فأجابني بدهدات بدهد قائلاً :

- أسأل مولائي المغفرة فقد بات يحق لي ان اشك بكل شيء واقدر
كل شيء بعد ان تخلت عن امي .
- كونت . . . ان الرجل الشريف له أُنثُ بنك بكل أمر ما خلا
للام ملكة .
- انك سأنتي يا سيدي عن مبلغ حيي لملكة النافار فهو حب ابن لأمه . . .
وما أنا يا سيدي من الأشراف ، فإني لا أعرف اسم امي ولا أعلم إذا كان
تقاطع طريق او خادماً علفت به إحدى النيبلات قولتني .

وأنت ترحم يا سيدي اني لست من الأشراف فينطبق علي حكمهم بحيث ان
يقن لي ان ارباب حق بالملكات .
وبعد ، فما الذي يثبت لي ان امي ليست من اللبكات ، فان مجال الظن
والافتراض منسح لدي وأنا أعلم باب هذه الظنون كما يبلغ لثقله لغابات الكثيفة
في حداس الظلام فلا يعلم كيف يسمع .

نعم يا سيدي من يضمن لي ان امي . . . تلك المرأة السافلة التي جعلت مهدي
مخرجاً كنيسته وحسنت علي بالموت وأنا لم أكد أولد .

من يضمن لي يا سيدي ان هذه الأم لم تكن ملكة عظيمة ارادت بقتلي أن
تدفن زلتها معي .
ومن اذا يا سيدي وأنت ترحم ان تجعليني من الملوك . .
اني والله ليطبق قضي أنكروه أبوه وأمه يوم ولادته . يراء الرجل الشريف

فيأبف ان بصادقه ، واذا عامة الرجال الكرم بشيء من الخسك كان كمن يحسن
إلى فقير بمداقة .

علم أجد في الوجود غير امرأة واحدة أسفقت في وهله المرأة لتفطني
من حيث كنت مطروحا فحطنتي بين ذراعيها ودينتي كما ربت أنها وابست
في ذلك الانسجام الذي كان يجب ان يتسمه لي امي .

ولما نشأت ورحمت وعرفت شفتاني ، جعلت تعزيني فكانت هذه
المرأة يا سيدتي أما حقيقة ، وهذه المرأة الصالحة هي ملكتي العظيمة
ملكة التناقل .

ثم تسأليني يا سيدتي انا كنت أحبها . وكيف لا أحب من كانت لي بمثابة
أم وكنت مدينا لها بحبالي وتربيتي واسمي .

اني اموت سعيداً يوم تلوون في مت من اجلي فان موتك مقدي لي
وأنا عائش بقربها اراقب كل من يدنو منها ويريد بها شرأ فاضربه بيد
لا تحمف .

وأما امي الحقيقية فكل ما الفناء في هذا الوجود هو ان لا اعرفها .

ولما فرغ ديوات من كلامه تراجع خطوة إلى الوراء وضم يديه إلى صدره
وجعل ينتظر .

وربما كان يرجو ان يسمعا تصيح صبيحة فائر ولكم كان يجهل هذه الملكة .

أما الملكة فانه لم يبد عليها شيء من علامه التناثر فنظرت إلى ديوات
نظرة تكلفت فيها الأنشاق وقالت :

لقد علمت انها الكونت ما عانيت من الشفاء وعلمت حبك لابننا عينا
ملكة التناقل .

والذي اراد انهم لم يخدموني بك فلانك شريرف اقلب طاهر قلبس كما
وصفوك لي .

وقد سرتني تعلقك بملكة التناقل وحبك اياها هذا الحب الصحيح فهذا لي

ما كنت أريد .

فادع يا كونت وسمعهو إلى الشروع لمطيع الذي باعثك فيه ،
فاني لا ازال اراك حير كفو لارتقاء عرش التناقل إذا رضي مغوي ان يتولى
ملكته اعظم .

لما لان فيكفي ان تحبر ملكة التناقل بالشروط التي اقترحتها .

وقدمت الملكة له يدها ليقبلها حسب العادة .

ولكن ديوات لم يريدها دون شك فاحق مسافاً وخرج ، وسقطت يد
الملكة على الكرسي .

وكانت الفلكي ، قد حاول ان يراقب الكونت ، ولكن الملكة
لرفقه بإشارة .

حين اذا علمت ان ديوات بات خارج الباب أمسكت يد الفلكي وقالت
له : انه عالم بالحقيقة .

- لا أظن .

- واذا تؤكد انه عارف . اسرع بالاشارة .

- سيدتي . سيأتي انه ولدا .

فجذبتة بمنف إلى التناقله ولامعتها بيدها وقالت له : الاشارة .

فدعر الأوب ذعراً عظيماً وقال :

رحمك يا كاترين اسقضي عن ولدا .

فخافت الملكة ان يضيع الوقت بالرجاء والاشمطانات فانتشلت صفارة كان
يعلمها في عنقه بسلسلة ذهبية وانشأها من قها تريد ان تصفر بها .

فأسرع الفلكي إلى ايديها وبقا لها بصوت منخفض ، انظري .

فنظرت كاترين من التناقله فرأت رجلاً قد انضم إلى ديوات فتأبط ذراعه
وسار وياور .

وكان هذا الرجل باردالبان .

وحده قاضيه مقتدى ليلاس

كيف كان يتسلى ابن اليس

سار بارديان مع مودات فأرصدته إلى منزل الأمير ال كوليني وبفوا إليه
عند انصاف الليل .

وكان مودات متأزماً ما حدث فخره بكلمة وحما على الطريق ، ولكنه
حين وصل إلى المنزل دعا صديقه بارديان إلى الدخول معه فدخل .
ولما دخل مودات كان الجميع نياماً فسأل خادم غرفة ملك لتنازل أن
يقظه من نومه ، كما أنه ابتسط كوليني ورفاقه .

وكان الملك قائماً يوماً حرقاً فلما ابتظروه وثب مرعباً من السرور وقبض على
خادمه وهو يقول : العلم يقتلون .

فأجابته الخادم : كلا يا مولاي ، ولكن الكونيت دي مازريك يريد إخبار
جلالتك بأمر خطير .

فترك الملك خسامه وقد تمهده تتهدى وضو ارتياح ، فقد كان صعباً مضطرباً
لاعتقاده أنهم لا يوقظونه إلا لشيء خطير ..

فانه كان يتدبر من منظر السماء ويخاف الجرح ، ولكنه مع ذلك كان
يقابل خبر قتال .

ولما صعد الجميع هدوا جلسة فأخبرهم مازريك بأن الملكة كاترين تعرف
الأمير في باريس وابن يقعون فيها .

فقال الملكة بلهما شفت عن القصب لشهيد : انه لم يأت وحيد
كما بشهر .

نعم ، ولابد ان يكون هذا الرجل في انتظاره ايضاً .. وفوق ذلك
انظري ، فقد فات الأوان .

ثم تمهده تتهدى ارتياح .
اما الملكة فانها أقت الصغارة بنت شديدة وقالت :
لقد ألت من الحياة ، ولكنه لا ينجو من قبضة يدي ، فاني أعرف
الآن أين يقع .

انه يعرف كل شيء يا ربتي ، ومن عسى ان يجده غير ملكة لتنازل ...
انها هي التي أخبرتني بلا ريب ..

ولكن هي نفسها كيف عرفت هذا السر .
يجب ان يموت هذا الرجل وتلك المرأة .

ثم دعيت مقضبة وجلست في كرسيها وما لبثت متبينة من استنار وجهها
بذلك الأبتسام الحائل الذي يعرفه القلبي حق المعرفة .

فداعمتها وقال لها هل أعرفت سيدتي عن امر ؟
- كلا . كلا .. ليدعوا كوليني وملك لتنازل مطمئنين .. الا ترى ان

هذا الرجل الذي خرج من هذا الآن سيذهب إليهم ويخبرهم اني عالة بوجودهم
في باريس وأنهم سيعجبون لكرمي .

دعهم يتخطون في ظلماتهم فسلكه لا يضي شبر حتى تظلمن قلوبهم كل
الاطمشان ، ويأتي جميع الموكينوت التي باريس . وعند ذلك .

وهذا سكتت ولم تم جملتها ، ولكنها نظرت من النافذة نظرات تتدبراً
فدعز القلبي هذه النظرات ولم يجسر ان يسألها .

فقد الجميع وقال الأميرال : يجب ان نهرب .
فأعترضه الملك قائلا : بل يجب ان نبقى فإن كارين لم تتلوق هذا اللؤلؤ
برجاءا على عرفانها اننا فيه إلا نأرب يجب ان نعرفها .
فقال له ميودات : لقد أصيبت يا مولاي .

وعند ذلك أخبرهم بكل ما سمعه من فم الملكة .

وقد تناقش الحضور في اقوالها فاتفقوا ان تعلم ملكة النافسار ، وهي
رئيسة الحزب بكل ما جرى ، وكان أشد الحضور سرورا بقرائنات الملكة
كارين الأميرال كوابني فسانه كان يشوب حنوا على اخواتهم الضطيقين في
هولندا ويود من جميع قلبه مساعدتهم .

وعلى ذلك قرروا ان يسافر ماريلياك عند الفجر ، أي حين تفتح أبواب
باريس فيذهب الى الملكة ويخبرها بكل ما اتفق .

أما ماريلياك فإنه بعد ان قضت اجلسه ذهب الى صديقه باردليان فوجدته
في الفرقة التي كان تركه فيها واخبره بقرار اجلسه ثم قال له .

- اسع ايها الصديق ما انتظره منك ، إن شباني قد يطلو شهرا وقد
أحسنيت إلى نفسي كل الاحسان بتقديمك الى القيس في هذه الليلة .

فأجاب لرجوك ان تعذب اليها ايها الصديق وتقول لها اني ذهبت لأرى
ملكة النافسار ، وانى سأعتم هذه الفرصة فأخبرها بحينا .

ومن الرجوع ان الملكة ستحضر إلى باريس وعند ذلك لا يبقى مسانح من
عند زواجنا . . هذا ما سألك ايها الصديق ان تقول لأليس ، ورجسائي
ان تخفف هذه البشرية تعب للعراق ، لاسيا وانت الذي سيزيد اليأس
هذه البشرية .

وأقدم الصديقان ساعة يشهدان فيسكهم باردليان عن لوزيا وميودات
عن اليس .

ثم اودعها فرجع باردليان الى قصر ميودات والسي لينام ، وأما ماريلياك
فانه سافر عند الفجر كما تم الاتفاق .

بعد ذلك بعودة اليوم انتشرت إشاعة في باريس مفادها ان صلاح سانت
جرمين الذي عقد بين الكارولينك واغوكيوت قد تمزق وتأييد ، وان الملكة
كارين كانت أول من جاهر في البلاط بقولها : إن صفك النساء في سبيل
اختلاف اللاهيب من الحرائم المنكرة .

وكان الملك يشبه بالصيد وهو فرح لقتل هذا السم ، خلافا للمتصدين على
اغوكيوت من عامة الشعب ورجال الدين فقد لزموا الصمت ، كأنما قد
تلقوا الأوامر الخاصة وجوب السكوت .

ثم عقب هذه الاشاعات ، إشاعة أخرى ، وهي ان ملك النافسار سيتزوج
مريخيت تحت ملك فرنسا .

وانه ستجري حفلات عامة يشترك فيها الشعب بجماله ، وانت ملكة
النافسار ستحضر إلى باريس يخبرها جميع من يوجد في المملكة من مشاهير
اغوكيوت .

وقد كان انفعال الشعب عظيما حين رأى البلاط الملكي رجوع إلى عظمة
السلك واستقبالهم بيده ان كان عازما على إعادة اغوكيوت . ثم عرفوا
ان الأميرال كوابني قد حضر ، وان اللوق مني كيز نفسه أشد التشجيع على
اغوكيوت قد استقبل هذا الزعيم وصالحه .

واكتنا اثنين جميع ذلك في حينه ولتند الآن إلى باردليان فتقول :
انه كان يسير في باريس فلما كان يسير اتلته في الطقات ، أو كما تسمى
الأرواح في القضاء وهو يبعث عن لوزيا فلا يجدها .

وكان المارشال مونغورانسى أشد منه عداء ، فإنه بدأ يفتقد كل رجاء من وجود زوجته وابنته .

حتى انتهى بارداليان للتكود أن يعتقد ان لوزيا وأما قد أرسلتا إلى قرية من قرى الريف وسجنتا فيها .

وأما أموه ، فإنه لم يقتصر على حرمانه مما وعده به من الأخبار ، بل انه لوزارى واختفى قلم يعد يسمم به ولا يراه .

وكان احتجاب ابنة بما يريد في مكنته ، فخطر له مراراً أن يدخل إلى قصر هنري بالحيلة . . .

ولكنه كان كفا سار إلى ذاك القصر بهذه آتية رأى الأبواب والنوافذ بحكمة الأقدال فيعود قائلاً حزناً .

وقد ذهب في اليوم الذي سافر فيه صديقه ، وودات لزيارة خطيبته اليس كالأوصاف .

فاستقبلته اليس بل البشر والفرح ، وكان أول ما قالته سؤاله عن خطيبها وهل هاجم أحد عند خروجه .

فقال لها : إطمئني يا سيدتي ، لقد جرت الأمور وفقاً لما أراد ، ولم يهاجم أحد .

ولكنك . . . قد عدت إلي وحدك كما أرى .

فأخبرها عند ذلك بارداليان كيف ان مورفر لقبها في الطريق ودعا خطيبها إلى الذهاب معه إلى اللكة . . .

فذهرت اليس وقالت : إلى اللكة ؟ . . . إلى القور ؟ . . . وببلاء ان لا يخرج منه . . .

لم يذهب إلى القور يا سيدتي ، بل إلى منزل عند الجسر الخشبي ، وقد خرج منه خلافاً لما تصدقين سالماً آمناً ، وكنت انتظرون عند الباب ، وصعدت إلى منزل الأميرال في بينوسي .

وقالت له اليس بلهجة المضطرب الخائف : أم بخيرك الكونت بتليجة هذه المهابة الغربية .

نعم أخبرني ، فإن الملكة عودت اليه بهمة سرية إلى ملكة النافار فاضطر إلى السفر عند الفجر وكلفني أن أحضر إليك لتطمينك .

فاسفر وجه اليس وعضت شفتها وعطفر في ياقها كثير من المسائل لم تجسر على قولها .

وكان بارداليان يراقب اضطرابها بأبعان وكان من قبلي مشككاً بما فراد لشك تطيداً ورسوخاً في مخيلته ، وعزم منذ تلك الساعة ان يراقب هذه المرأة كي يعلم حقيقة أمرها خدمة لصديقه .

ولم يكن يبيع باله من كل ذلك سوى ما رآه من انها تحب خطيبها بسلامه الاخلاص والمخوفاً أكيداً لا ريب فيه .

غير ان اضطرابها كان يريه وعاد إلى حديثه معها فقال :

إني لم أفرغ من مهمتي بعد يا سيدتي ، فإن خطيبك قد عدت إلي أيضاً ان أخبرك انه سيقتم فرصة سفره إلى التسافار واجتماعه بالملكة ، ليخبرها بحبك .

ولم يكذب بارداليان يتم حديثه حتى جمعت اليس تشفض انتفاضاً ، بينا بات وجهها كوجوه الأموات وقالت بصوت خافت :

وببلاء لقد هلكت . . .

فصوب بارداليان لاضطرابها وقال لها : يظهر يا سيدتي إنك لم تفهمي ما قلته ، بلا ريب ، فاني لم أخطئه التعبير ومراد صديقي الكونت ان يلتصق من اللكة الآن له پرواجيك حين رجوعه إلى باريس وكنت أعلم اني أحمل إليك خير بشري .

نعم . . . نعم . . . إنها خير بشري . . . رواد اني أموت .

فدعر بارداليان ذعراً شديداً .. إذ رأى الفتاة قد سقطت على الأرض
مغمياً عليها .
فنادى الحشم لإغاثنها ونظر اليها نظرة المشفق .

فرأى دمعين تسيلان على وجهها المصفر وهذا كل ما كان يظهر عن
هذه المتكودة من دلائل الحياة .
قد قلنا ان بارداليان استنجد بأهل المنزل ...

فأسرعت اليه لورا مندعرة ، وهي كانت واقفة تستمع الى الحديث
من وراء الباب ..

ولما رأت اضطرابه قالت له : لا تخف يا سيدي ، فان ابنة أخي يحدث
لها مثل هذا الالهاء ، حين أقل حادث يؤثر عليها من حزن أو فرح ، ولكن
هذا عارض يزول قريباً .

ثم خرجت المعجوز ورجعت بشيء من الخلل .. وجعلت تفرك به صدغها
ورضعت في فمها نقطة من زجاجة حتى استفاقت ..

وقالت لها المعجوز : ماذا أصابك يا ليس .. لا شك انك تأثرت .. العلك
فوجئت بخبر محزون ..

ففتحت ليس عينيها وقالت لها : كلا ..

- إذأ أكان الخبر مفرحاً ؟

فأجابتها بصوت خافت : نعم

وبعد هنيهة رجعت اليس الي ما كانت عليه من الشدة .

وحاول بارداليان ان ينصرف ولكنها منعتة عن الذهاب فانها كانت تريد
ان تعلم بالتفصيل كل ما جرى

فأعاد عليها بارداليان كل ما سمعه من الكونت تفصيلاً فكانت اليس تسمعه
بله الأصفاء .

ثم فارقها وانصرف وهو يفكر في امر هذه الفتاة .

وقد آلى على نفسه ان يكشف النقاب عن اسرارها لوثوقه من انها
تكنم سرراً خفياً
ولكنه حين رجع بعد بضعة أيام لزيارتها وجد باب المنزل ونوافسه
مقفلة ، كما وجد قصر هنري .. فسأل الجيران عنها فلم يستطع احد ان يبينه
بخبر اليقين ..

مونتكلدي

البيلايس

وعلى ذلك فقد بات بارداليان وحيداً في باريس إذ لم يبق له غير المارشال
فرنسوا ، فكان يقم معه ساعات طويلة بضمان فيهما خطط البحث عن
الأسيرتين فلا تسفر خطة عن نجاح .

وكان بارداليان يسير في باريس تائهاً حائراً كما قدمناه وهو حذر من اعدائه
يبعث عن الأسيرتين بحثاً دقيقاً فلا يجد اليها سبيلاً .

ولم يكن يرى لحسن حظه احداً في طوافه من اولئك الذين كانوا يمتقدون
انه من الأموات .

فاتفق يوماً انه بينما كان يسير هاغماً سار دون ان يدري الى اين يسير
واجتاز الجسور وبلغ إلى جبل سانت جنيفاف .

وجعل يتنزه هناك فرأى بيوتاً كثيرة قرب الدير ، وفي خسارجها نساء
بشتغلن بالأزهار الصناعية .

وروقف بارداليان يتأمل وينظر إلى اشغالهن بعينه ، ولكن قلبه في غير
ذلك المكان .

وفيا هو على ذلك حانت منه التفاتة فرأى غلاماً صغيراً يبلغ الخامسة من
العمر عليه مخائل الذكاء ، ولكن هيئته تدل على الحزن .

وكان هذا الغلام يشتغل يجمع زهور شائكة فيجعلها طاقات وهو معجب

ففي اليوم التالي لهذه الاهانة ذهب هنري لعيادة هذا الكونت الجريح ، وكان له معه حديث طويل جرى في خلاله ذكر بارداليان ، فعاد هنري بعد تلك الحادثة مفكراً إلى قصر مسيح وخلا ببارداليان فقال له .

أتعرف يا بارداليان من كان يوجد في تلك المركبة التي كنت تحفرها ؟
فارتعش بارداليان وقال : كلا .

- أتعرف أحداً حبه أن يهاجمنا أو له فائدة في هذا الهجوم ؟

- في استطيع ان أجيبك على هذا السؤال ، فإنك أنت الذي أخبرني ، وأظن ان المهاجم كان أحد أنصار أخيك المارشال .

- نعم ثم ألم تؤكد لي أن ابنك لا يستطيع ان يكون في معيبي لأن بعية أخي .

- نعم ، ولكن هذه المسائل ...

- اصبر . وقد قلت لي أيضاً أنك طاردت الرجل الذي هاجم المركبة .

- نعم .

- وانك طعمته طعنة كانت القاضية .

- وهذا أكيد أيضاً .

- إذا فاعلم ان هذا الرجل الذي طاردته وقتلته لا يزال حياً يرزق .

فوضع بارداليان يده على خنجره وحسامه كأنه يفترقهما وقال : أن هذا النبا جديد لم أسمعه من قبل .

- واني أعرف غيره من الأنبا أيضاً ، أريد أن أخبرك بما أعرف .

- أكون مولاي من الشاكرين .

- أتعرف اسم هذا الرجل الذي لم تطارده ولم تقتله ، بل تأبطت ذراعه وسرت وأياه إلى الحارة ؟

- يسرني أن أعرف اسمه يا سيدي .

- إذا فاعلم انه يدعى الشغاليه دي بارداليان ، وهو ولدك الذي يروى كل يوم حول قصري ، والذي سأقبض عليه يوماً ، فأدعه يرصف في القبور .

- أهو بارداليان نفسه الذي أذفذك من القتل يا سيدي حين هاجمك اللصوص .

فوجم هنري إذ كان يتوقع ان يرى بارداليان مضطرباً خائفاً ، فرآه جزأ به ثم بدت عليه دلائل الغضب .

فلما رأى بارداليان ذلك جرد نصف خنجره .

فقال له هنري لا تستاء يا بارداليان ولا تمجبل بالاستمياء ، فان الوقف متسع لديك ، وقل لي هل ما قلته لك أكيد .

- لا أجسر على تكذيبك يا سيدي بعد ان قلت ما قلته ، فقد قلت ان

ولدي هاجمك ، وذلك ينبغي ان يكون ، وقلت اني صحبته وهذا ممكن .. فلم يبق علي إلا أن اهنئك لضبط ادارة الاستعلامات عندك ، فقد كنت

أحسبك محاطاً بالأبطال والأشراف ، فإذا بأبطالك وأشرافك من رجال البوليس ، وكنت أحسبك من قادة الجيوش ورؤساء الأحزاب ، فإذا أنت

من رؤساء الجواسيس

- بارداليان .

- مولاي ..

فجعل كل منها ينظر إلى الآخر محذقاً إلى أن أطلق هنري بنظره فقال له بارداليان :

- ان كلماتي تسوءك يا سيدي المارشال ، ولكن ليس ذلك بذني .. وكيف يبدر منك مثل هذا التقريم . أخطأ بان اكون عدواً لولدي

من اجلك ، أي ذلك البطل الذي احبه واعجب به ، وابدل جهدي في

سبيل التوفيق بينك وبينه ، ثم ثلومني لأنني لم اقتل هذا الولد وهو ولدي ..
أن حسامي يا مولاي يخرج لنفسه من عمده فيقتل اولئك الذين وشواني
ليك ، واما ان اقتل ولدي فليس ذلك مما يخطر للعقول السليمة .

فقال له هنري ليس هذا الذي أريده يا بارداليان .

— إذا ماذا تريد .

— أريد ان ابنك لا يد ان يكون عارفاً من كان يوجد في المركبة .

— لا اعلم .

— كيف لا تعلم يا بارداليان فانه لم يكن عارفاً فقط بل انه اخبرك .

— انك متخددع يا سيدي .

فدنا هنري منه خطوتين مسرعاً ، ونظر اليه محققاً كأنه يحاول ان
يستخرج منه الحقيقة بهذا التحديق .

ثم قال بصوت يتهدج من الغضب :

— ومن يعلم فقد تكون متفقاً معه ، وقد تكون تبعتني واياهم متلصقين

متجسبين .

نعم ايها الرجل الأمين فانك خنتني وسدعتني ، وانت تعلم من كان موجوداً
في المركبة ، وتعلم المسكن الذي ذهبت اليه .

ويعد ان عرفت كل ذلك ذهبت مع ولدك إلى خيارة لا يجتمع فيها غير قطاع
الطرق والصوص ، فوضعتا خطة واتفقتا على ان يكون الابن عند فرنسوا
مونثورانسي والأب عند هنري أخيه .

ايها الرجل اني اعتبر عمك خيانة شائنة ، وما انت وابنك إلا من
الزعانف الأسافل .

فاصر وجه بارداليان وقال :

يا حضرة الدوق دامعيل اني لا اعتبر كلامك اهانة لي ما زال قفاز
اخيك على باب قصرك .

فأر هنري زئير الضواري لهذه الاهانة ، وانقض على بارداليان
والخنجر مشهور بيده ، فقد تألم لاهانة بارداليان فوق تألمه لاهانة أخيه حين
وضع القفاز .

وفوق ذلك فقد حاله اعتقاده ان بارداليان قد عرف مكان
الاسيرين ، فكان مصمماً منذ بدء هذه المقابلة على قتل الأب ، ثم يحتال
على قتل الولد .

ولذلك اتخذ اهانة بارداليان حجة لتنفيذ عزمه ، فلم يكذب بارداليان
بتم جلته حتى انقض عليه .

اما بارداليان فقد صبر إلى ان وصل هنري اليه فقبض على يده وضغط
عليها ضغطاً شديداً فانترج الخنجر منه وقال :

اني استطيع قتلك الآن يا سيدي وذلك من حقي ، ولكنني ابقيك
حياً كي تمنح ذلك العار الذي وصمك به اخوك ، فاشكرني إذا كنت من
اهل العدل والانصاف .

فرقص شاربا هنري من الغضب وقال : بل انت الذي تموت ايا الشقي .
ثم جعل يصيح قائلاً إلى ... إلى ..

فقال له بارداليان : إذا أنت تريد احداث معركة في غرفتك ... فليكن
ما تريد ...

ثم جرد حسامه وتراجع خطوتين كالأسد يتحفز للثوب ، ووقف وعيناه
تنقدان ثاراً .

وعند ذلك فتح باب الغرفة بعنف ، ودخل اليها كل من كانت باقياً في
القصر ، فنظر اليهم بارداليان قرأهم ستة ما عدا هنري .

اما هنري فقد صاح بهم قائلاً :

— اقتلوه ... اقتلوه دون اشفاق .

فوثب بارداليان كالنمر إلى الجهة اليسرى من الغرفة ، ووضع حسامه في

فه اعاضاً عليه ، واخذ كرسياً كبيراً ضغماً ورمى به المهاجمين
وكان بارداليان قد فعل ذلك محتالاً كي يهاجموه في الجهة اليسرى فيبعدون
عن الباب .

وقد نجحت حيلته فانه حين ابتعدوا عن الباب وهاجموه رمام بذلك
الكرسي ، وامتشق حسامه بيده ووثب إلى اليسار ، فخرج منه وهو
بضحك هازناً .

وبعد لحظة بلغ إلى آخر السلم .
وهناك باب مقفل دفعه بيديه فلم يفتح .
فصاح هنري بالرجال الذين كانوا في أفره قائلاً :
- لقد ظفرتم به .. اقتلوه .

وكان هناك أيضاً جدار يستطيع ان يشب من فوقه فيهبط إلى الخديفة
ويفر منها ، ولكنه لم يظن له في تلك اللحظة وقد هاله اقفال الباب .
فوقف عند اسفل السلم وقال في نفسه انهم لا يستطيعون جيمهم ان
يقفوا على درجة واحدة وسأقتلهم واحداً بعد الآخر .
وعلى كل فانه لا يموت قبل ان ينتقم لموته شر انتقام .

وعند ذلك هجم عليه الجنود فابلى فيهم بلاءً حسناً ، وكانت ساعة هائلة لم
يسمع فيها غير صليل السيوف وشتائم بارداليان وقالم جرحاه .
إلى أن أصيب بطعنة في كتفه ، فصاح متألماً واضطر إلى الرجوع خمس
خطوات ، ولم يكن قد رجع إلى الآن غير خطوة .
ولم يكن باقياً من مهاجميه غير ثلاثة ، فسقط واحد منهم وقصد طعنه
بارداليان طعنة بأسن كانت القاضية .

ثم نقل الحسام من يده اليمنى إلى اليسرى ، وجعل يشتم شتماً قبيحاً فيقول :
خسنتم أيها الأوغاد .. ان سيدكم لم يعطكم مقارعة الأبطال ، بل حملكم
التجسس ... إلى الوراء أيها الأسافل .

ثم طعن أحدهم بسيفه فجرحه جرحاً بالغا .
ولكنه شعر على أثر هذه الطعنة ان صدره أصيب بطعنة مثلها فتدفق
الدم من ذلك الصدر ، وبدت على هنري علامات القرح الوحشي فجعل
يحمسهم ويقول :

- اجوزوا عليه اقتلوه .
فهجموا عليه هجمة واحدة وجرحوه بيده اليسرى .
فنقل الحسام إلى اليد اليمنى وهي جريحة أيضاً .

وكثر تدفق الدم من صدره وكتفه ويديه ، وشعر بغفامة كثيفة مرت
على عينيه ، وانه سوف يسقط صريعاً ، فثار به البأس وحمل حلة هائلة فقتل
واحداً من المهاجمين .

ولكنه خارت قواه بعد ذلك ، ورجع حتى التصق بالجدار .

وكان هنري قد انضم إلى من بقي من المهاجمين ، فحملوا عليه يحميهم
واصابه أحدهم بجرح آخر في رجله .
فجعل يزحف زحفاً على الجدار وهو بدافع ما استطاع الدفاع إلى ان سقط
السيف من يده ، وشعر ان الجدار المستند اليه قد فتح وظهر منه منفذ مظلم
فولج ذلك المنفذ وسقط مغيباً عليه .

فصاح هنري قائلاً :

- اقفلوا عليه باب القبو ودعوه يموت جوعاً فيه .
فامتثل الباقون واقفلوا الباب وساد السكوت في ذلك القصر .



أما بارداليان فانه سقط صريعاً لا يعي ، فلو تبعه هنري لاجهز على ما
بقي من رفاقه بطعنة خنجر .
ولكنه خشى عاقبة الدخول اليه في ظلام القبو ، وأيقن أن هذا القبو

يكون قهراً له ، وتجسست في نفسه السافله فظاعسة الانتقام ، ففضل أن يفقد
جوعاً وقال في نفسه : لا يمر ثلاثة ايام حتى يصبح جثة باردة فاطرحه في نهر
الدين طعاماً لأسمائه .

وأما بارداليان فإنه لم يمض به ساعة حتى استفساق من اغنامه ، فبدأ
بتحريك يديه ، ثم رجليه ثم رفع رأسه وفتح عينيه ، ثم حاول الوقوف فلم
يستطع ، فجلس على الأرض وحمل رأسه بين يديه فبقي مدة طويلة على هذه
الحالة وهو لا يستطيع ان يستجمع افكاره .

واخيراً عادت اليه الذاكرة ، فكان أول ما قاله : إني لم أمت بعد
والحمد لله .

وبعد هنيهة قال : إني لم أمت ، ولكنني اخاف أن اكون دفنت حياً .
فذعر في البدء ذعراً شديداً لهذا الخاطر ، ولكنه ما لبث ان تمزى عنه
فقال : ولكنني لا أزال حياً ويفعل الله ما يشاء .
وعند ذلك جعل يزحف متجولاً في هذا القبر ، فابقن انه غير مقبور
في الحد .

وكان الظلام حالكا فجعل يقول في نفسه :

ولكن أين أنا الآن . . . ولماذا وجدت في هذا المكان . . . ومادا عمل
فيه . . . ربه ما هذا العطش الشديد . . . وكيف السبيل إلى الماء .
وكان يقول هذا القول بلهجة المحتضر وهو يراسل الزحف فوق أرض
القبر الرطبة .

وفيما هو يزحف عثرت يده على شيء بارد ، فلم لأول وهلة انه زجاجة . . .
وخطر له في الحال خاطر مريب وهو انه في قبر لتخزين الخمر .

ثم بحث بيده ايضاً مستكشفاً فعثرت بزجاجة ثانية فثالثة .
فلم يبق لديه شك انها زجاجات خمر ، فأخذ احداها فكسر رأسها على
الأرض وشم رائحتها فاستوثق انها زجاجة خمر وشرب ما فيها على نفس

لم يقطعها بسفلة لا توصف ، حتى إذا تم شربها ألقاها على الأرض ، وقال :
وركت خرة تحيي الأموات .

وعند ذلك شعر ان الروح قد ردت اليه وعادت اليه كل قوى ذاكرته .
فجعل يتذكر كل ما مر به فلم يفته شيء من تفاصيل تلك المعركة الهائلة .
ثم أخذ يفحص نفسه فحصى الطيب ، فاستنتج من فحصه ما يأتي :
أولاً انه مصاب بجرح في مؤخرة الرأس ، فعلم ان هذا الجرح لم يكن إلا
بسقوطه في القبر .

ثانياً ان انفه وذراعه مرضوضتان ، وذلك أيضاً بسبب السقوط .
ثالثاً ان يده اليمنى مجروحة ، وقد ذكر ان الذي اصابه بهذا الجرح كانت
التيكونت اسبرمونت .

رابعاً جرح غير بالغ في اليد اليسرى .
خامساً جرح عميق تحت الركبة اليمنى .
سادساً تمزيق جلد في الكتف اليمنى .
سابعاً جرح عميق تحت الثدي الأيمن .

فلما تم بارداليان فحص جراحه ، قرر انها جراح غير مميتة ، وقد روى
عنه من الخمر وبقي عليه ان يشبع معدته من الجوع .

على أنه مع احتقاره لهذه الجراح لم يطل به العهد حتى أغشى عليه
مرة ثانية .

ولكن اغنامه لم يطل هذه المرة ، فلما صبحا عاد اليه ذلك الظم الشديد .

فعاد إلى شرب الخمر فانتعشت روحه وتجددت قواه واخذ يهتم
بضمد جراحه

فمرق قيصه قطعاً وضمدها تلك الجراح الدامية ، بما تموده لكثرة ما
أصيب به من الجراح ، فقد كان له جرح في كل منبت شجرة من جسمه فبات
من أمهر الجراحين .

ولم يجد ماء يغسل جراحه ففعلها بالحمر ، ولا نعلم إذا كانت الجراحون يرافقون على غسل الجراح بالحمر ، ولكن الذي نعلمه أن بارد البياض بعد ان غسلها وضدها كما تقدم أصبح يستطيع الوقوف والمشي كما يريد ، وقرر ان يشفى تام الشفاء بعد اسبوعين .

وسار في أرض ذلك القبو وبداء ميسوطتان إلى الامام كما يشي العميان ، حتى وصل إلى زاوية فتوسد فيها ذراعه وثام .

ولما انقضى من رفاقه جعل يتمعن في حالته وقال : إني قررت أن أشتاني ممكن بعد اسبوعين ، ولكن ذلك لا يكون إلا بشروط أهمها أن أنام في فراش لين ، وأن أتعدي غذاء جيداً قوياً ، وغير ذلك فأبى أحد هذا الفراش ، وكيف أظفر بهذا الطعام وأنا أوشك أن أموت جوعاً .

ثم نظر إلى ما حوالبه محققاً كأنه يحاول أن يخترق حجاب الظلام ، لكنه لم يستطع أن ينظر شيئاً ..

فقال في نفسه إني مهمت بأمر جراحي ، ومتى يكون شفاؤنا وأمامي خطر الموت جوعاً ، فاني وجدت ما أشربه فأبى أحد ما آكله في هذا القبو .
وبأخيلة الرجاء ، أنجو من مائة كمين واللف معركة ومائة براز لأموت جوعاً في هذا القبو المظلم .

وما هذا البرد الذي أشمر به فإن المدان رطب وأنا ضعيف ولا سبيل إلى الوقاية ، فلنصبر .

ثم جعل يتمشى حتى وصل إلى سلم القبو فصعد اليه وانتهى إلى السباب فوجده مغفلاً وأيقن أن لا سبيل إلى فتحه .

وقد خطر له أنهم قد يفتحون هذا الباب ويدخلون اليه وهو قائم فيخنقونه فدعّر دمعاً شديداً لهذا الحاطر ، وقد رضي ان يموت جوعاً ولكنه خاف أن يموت خنقاً ، فارتأى ان يحصن ذلك الباب حتى لا يمكن فتحه وهو قائم

دون ان يستفيق

ورجع عن السلم إلى القبو وجعل يبحث عن مواد يضعها وراء الباب وكان كلما مشى يضع خطوات ، عثر بقناني الحمر ، فكرع كرعاً ورجع إلى التفتيش .

وفيما هو يفتش عثر بفخذ كبير من اللحم المقدد فقبض عليه بكلتي يديه وهو لا يصدق هذا الظفر وجلس لساعته على الأرض ، وجعل يأكل بشراسة لا توصف لفرط ما ثابه من الجوع .

ولا نخوض في وصف فرجه هذه اللقبة فإنه مما لا يحيط به وصف ، بل نقول انه بعد أن شبع من طعامه قال في نفسه لقد وجدت الطعام والشراب وسأجعل فراشي من قش القناني فأشفى من جراحي في اسبوعين

ولم يبق علي الآن إلا ان احتاط لنفسي فلا أقتل غيبة ولا أموت خنقاً بعد أن أمنت الموت من الجوع

وعندها أخذ عدة زجاجات وذهب بها إلى الباب فوضعها وراءه بحيث أنهم إذا فتحو الباب بصدمة القناني فتسقط على السلم ويخرج لها صوت يستفيق بعده إذا كان قائماً قياماً القدر .

وكان قد فقد حسامه ولكن بقي له خنجره يدافع به .

وقد اطمان ومرت به الأيام وهو يأكل اللحم المقدد ويشرب الحمر ، حتى كاد اللحم ينفد ، فجعل يقتصد في الطعام ويستعيب عنه بالشراب .

الى أن وجد يوماً انه لم يبق لديه غير فخذ واحد فعادت اليه عساروف الموت جوعاً .

وكان قد مضى عليه في ذلك القبو نحو شهر وجعل يفكر بعد ذلك في طريقة تمكنه من الفرار ، وكفما وضع خطة رأى ان تنفيذها محال إلى ان استرسل إلى البياض وقال

— لم يبق لي غير طعام يومين أو ثلاثة ، ثم يبدأ الجوع ويعقبه ذلك السزج الطويل المائل .

- ١١ -

ملكة النافار

بينما كان الكونت ماربلياك سائراً إلى ملكة النافار لينقل إليها أقوال كارين دي مديس كانت ملكة النافار في الروشيل .

وهي مدينة حصينة كانت خير ملجأ للهوكينوت وصارت بعد مذبحنة برنغاوس الشهيرة عاصمة البروتستانت .

وكانت ملكة النافار قد أعدت في تلك المدينة جميع معدات القتال ، وحشدت قواتها ووضعت خطة بسيطة تدل على الجرأة العظيمة .

وهذه الخطة منقسمة إلى قسمين ، فقد كانت عازمة على أن تجمع تحت أسوار الروشيل جميع من يوجد في فرنسا من البروتستانت ، كي تضرب بهم الضربة القاضية ، وتنال حرية الدين وحق المساواة بين البروتستانت والكاثوليك .

وعلى الجملة فإنها كانت تريد أن تدفع اندفاع الغاضبين ، فقد رأت أن الساعة قد اقتربت ، ساعة الانتصار أو الموت .

وحين يجتمع هذا الجيش من أطراف البلاد وينتظم تتولى قيادته بنفسها وتوحف به إلى باريس .

وهذا هو القسم الأول من خطتها .

وأما القسم الثاني فهو أن تعمل في باريس نفسها عملاً جريئاً يتفق مع ظهور جيشها عند أبواب العاصمة .

وهذا العمل الجريء هو اختطاف شارل التاسع ملك فرنسا من قلب اللوفر ونقله إلى معسكر الهوكينوت .

ولذلك ذهب ولدها ملك النافار والبرنس كونديه وكوليني إلى باريس خفية لإعداد معدات هذا الاختطاف .

وقوى ذلك فقد قررت أن يدخل نحو ألف رجل من البروتستانت إلى باريس جماعات منفردة ويحتلون تباعاً جميع الجهات الكائنة بين اللوفر وبين مونغارتر .

وهذا هو القسم الثاني .

أما نتيجة هذين القسمين فهي كما يأتي .

تظهر ملكة النافار عند أسوار باريس بجيش عزم يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل والفي فارس وعشرين مدفعاً .

فتقف هي في قمة مونغارتر وتشير إشارة خاصة فيسير ولدها هنري يتبعه البرنس دي كونديه والأميرال كوليني ، ويحيط به البروتستانت الذين دخلوا إلى العاصمة جماعات ، فيجتاز هذا الموكب المدينة ، إلى باب مونغارتر ورجالهم يصيحون قائلين للباريسيين ان الملك شارل التاسع أسير في معسكر الهوكينوت .

وعندها يهاجم الجيش باب مونغارتر فتدخل ملكة النافار بجيشها إلى باريس وتجتمع بابنها فيزحفون إلى اللوفر ويحتلونه ويشترطون على الملكة كارين شروط المنتصر الطافر .

هذه هي خطة تلك المرأة التي كان بعدها معاصروها من مشاهير أهمل الحرب ، وهي خطة لم يوحها غير اليأس .

وفي كل حال فقد رأى القراء ان القسم الثاني من هذه الخطة بدأ ينفذ فإن ملك النافار لم يتردد في الدخول إلى باريس مع رفاقه ، وأخذ يبحث في الطرق المؤدية إلى اختطاف شارل التاسع ويحاول ان يضم إلى حزبه المعتدلين من الكاثوليك .

وكذلك المستأجرين من خرق معاهدة سانت جرمن واضطهاد الموحسينوت كفرنسا موغورانسى وغيره . ولكن ملكة النافار وصلها في هذا الوقت نفسه كتاب من شارل التاسع أعاقها عن تنفيذ عزمها .

فقد أرسل إليها ملك فرنسا مع أحد رجال معيته كتاباً أكد لها فيه حسن نيته ورغبته الحاصلة في توطيد أركان السلم ، ووضع حد لهذه الحرب الجائرة وطلب إليها أن تقابل في بلوا للباحثة في شروط سلم دائم لا يبقى بعده سبيل إلى التنافر والحصام .

وقد أضاف إلى ذلك قوله انه سيخبرها شفاهاً عند المقابلة بما تضمنه بعده توطيد السلام ، ويكون خير ضماناً لتأييده (وهو يشير بذلك إلى زواج ولدها بأخته) .

ولبتت ملكة النافار تعد معدات الحرب ، ولكن هذا الكتاب كان قد شغل أفكارها ، فاكتفت بأن تقول لندوب الملك انها ستجيب جلالته . وفيها هي على هذا الاهتمام أقبل الكونت ماريلياك إلى روشيل بعد أن اجتاز إليها ستة عشر يوماً من باريس .

وكان قلبه يخفق خفقاً شديداً حين يفكر انه سيقابل الملكة . وإنما كان هذا الخفق للمقاصد التي عزم على تنفيذها ، وقد وضع خطتها في الطريق .

وكان ديودات يحب ملكة النافار كما يجب الابن أمه وفوق ذلك فقد كان يعجب بها أشد الإعجاب ، ويخاف ان تؤنبه إذا بسط لها أفكاره ، وهو لا

يعلم ما يكون منها حين يخبرها بعزمه على الزواج باليس .

وكان إذا جال في فكره هذا الخاطر لا يجد ما يجعل الملكة على معارضته في هذا الزواج . ولكنه كان يشعر بقلق خفي لا يعرف أسبابه ، ويحدثه قلبه بصائب شتى كتبت له في لوح المقدور .

ولم يكن يفكر بأصل اليس وعائلتها والسبب في قدومها إلى بلاد النافار بل كان يحبها حب عبادة ، وقد شغله التذلل في هواها عن التساؤل عنها ومعرفة أحوالها .

أما الآن وقد عزم عزمًا أكيداً على الاقتران بها فقد وجب عليه أن يتأهب لدفع اعتراض الملكة بالحجة إذا حاولت ان تعترض هذا الزواج .

وما يجدر ذكره في هذا المقام ان ديودات لم يسأل اليس سؤالاً واحداً عن ماضيها على طول صحبته إياها حذراً من ان يؤلم عواطفها ، فإن مثل هذا السؤال يدل على الشك والريبة وعلى انه غير واثق من يجب .

وعلى الجملة فإنه لم يكن يعرف شيئاً من ماضيها ، ولا يشك بشيء من سيرتها ولكنه كان يعتبره مخاوف لا يعلم أسبابها .

فلما دخل إلى مدينة روشيل كان مضطرباً مضطرباً شديداً ، فكان أول ما عمله إنه سأل عن القصر الذي تقيم فيه الملكة وذهب إليها . وقد نسي حين وقف بحضورها كل مشاغله ، وظهر الفرح بين عينيه ، تمدت له الملكة بدها فقبلها بحب واحترام .

فقالت له الملكة : ما جاء بك يا بني ، ورجائي أن لا تكون قدمت بخير سيء .

- كلا يا سيدتي ، بل هو عكس ما تقولين ، فان جلالة ملك النافار بخير وعافية ، ولا خطر يشهده على الاطلاق وكذلك أعوانه .

ف نظرت اليه الملكة نظرة حنو وقالت : العمل ولدي أرسلك إلي ؟

- كلا يا سيدتي بل إني جئت مندوباً من الملكة كاترين إلى جلالته .

ثم أخرج من جيبه كتاب الملكة كاترين ودفعه إليها فقرأته وقالت :
إذاً لقد رأيت أم ملك فرنسا .

- نعم يا سيدتي فنفضني بسماح ما قالته لي :

وعند ذلك روى لها جميع ما كلفته الملكة كاترين بقوله مما عرفه القراء .
فلما أتم حديثه قالت له الملكة : سأكلفك يا كوتت بحمل جوالي إليها
كما إني سأعهد اليك أيضاً بحمل كتاب آخر إلى الملك شارل التاسع ، ومنه
إلى ولدي الأميرال .

وسأفتكر اليوم وغداً باقتراحات الملكة كاترين ، وبعد غد أجمع المجلس
وتتباحث مع أعضائه بهذه الشؤون الخطيرة .

وهي ذلك فانك تستطيع العودة إلى باريس بعد ثلاثة أيام ، فاسترح يا بني
في هذه الأيام الثلاثة وكن قريباً مني ما استطعت .

فانحني دودات بملء الاحترام وهو يعجب بتلك السكينة التي تلت
بها الملكة تلك الاقتراحات الغريبة التي يتعلق عليها مستقبل ولدها
وجميع الهوكينوت .

وعادت الملكة إلى الحديث وقالت :

لندع الآن السياسة يا بني وحديث الحرب ، ولننظر في شأنك الخاص فقد
اجتمعت بالملكة كما تقول .

- نعم نعم يا سيدتي إني رأيت أمي وعرفت هذه الأم ابنها الذي
تنعت عنه .

- أنت واثق من عرفانها أنك ابنها .

إن أمي لم تذكر كلمة تدل على أنها عرفتنني ، ولم تنظر إلي نظرة تدل
على الاشفاق .

بل إني قلت لها إني نشأت لقيطاً وذكرت لها كل ما عانته وما أعانته
من شقاء هذا المولد الخفي .

وكنت أرجو من ذلك أن أرى في عينيها بريق حنو ، ولكنها لم تظهر
شيئاً مما كنت أرجوه ، ومع كل ذلك أقول يا سيدتي إن أمي ..
وهنا توقف عن الكلام وقد بدت عليه علامات التأثر فقالت له الملكة :
ميراً يا بني وتشجع .

- لقد قضي الأمر ولا أرى الملكة كاترين غير عدوة لي فقد ذكرت لك
اقتراحاتها السياسية التي عهدت إلي بإبلاغها ولكفي لم أذكر لك بعد ما
اقترحه علي .

فارتعشت ملكة النافار وقالت : ماذا اقترحت عليك .

- إنها عازمة على أن تعرض على ملك النافار عرش بولونيا بحيث تبقى
ملكة النافار دون ملك .

- وبعد ذلك .

- وبعد ذلك يعين ملك للنافار بدلاً من إبنك إذا رضي إبنك أن يستبدل
ملكته ببولونيا .

أما هذا الملك يا سيدتي ... اني لا أجسر ان أعيد هذا الخاطر الغريب
الذي خطر للملكة كاترين ، فإن هذا الملك الذي تريد تعيينه على النافار ،
يا سيدتي هو انا .

ولبثت ملكة النافار مدة طويلة وهي مطرقة مفكرة تناجي نفسها فتقول :
- نعم لا شك انها عرفته كما يقول . إن هذه الملكة المتكبرة القادرة على

نفسها مقدرتها على الناس قد عرفت ، بلا ريب ان دودات الذي كانت تحسبه
مبتالاً يزال في قيد الحياة .. وقد تأثرت حين رآته ، ولكنها لم تظهر شيئاً
من ذلك التأثر وبالغت في إخفائه حتى خفي عن دودات .

نعم إن تأثرها كان شديداً حتى انها أرادت ان ترقى ولدها اللقيط إلى
مصاف الملوك .

هذا ما كانت تناجي به نفسها ، أما ما اقترحه الملكة كاترين من أن يجعل

ولدها ملكاً لبولونيا، فلم تفرده لحظة في دفع هذا الاقتراح ، فان بولونيا أعظم من النافار ، ولكنها كانت تحب بلادها فلا تسبديل عرشها بأعظم العروش ولو كان عرش فرنسا .

أما ولدها هنري فقد كان على شبابه شديد المطامع وكانت أمانيه كلها ان يلعب يوماً بلقبين وهما : ملك فرنسا والنافار . وأما ملكة النافار ، فقد استنتجت بعد الامعان نتيجتين من اقتراح الملكة كاترين .

أحدهما ان الملكة كاترين تحب الكونت دي مارلياك حب الأمهات للأبناء وأن هذا الحب حملها على أن تجعله من الملوك . والثاني انها كانت صادقة في جميع اقتراحاتها السلبية لأن مستقبل ولدها وهناك موقوفان على هذا السلم .

وقد كان لهذا الاستنتاج تأثير يذكر ، فإن الملكة رضيت بعده ان تقابل الملك في بلوا ، وأن تذهب إلى باريس ورافقت على زواج ابنها بأخت الملك . فلما استقرت على هذه الأفكار رفعت رأسها بعد إطفائها فنظرت إلى مارلياك وقالت :

- ما رأيك يا كونت بهذا المنصب الملكي الذي عرهن عليك . فأجابها قائلاً : أظن يا سيدي انه يغير نظام حياتي ، فاني لا أبحث في المصاعب السياسية التي تعترض تحقيق أمنية أُمي ولكني أقول اني غير أهل لمثل هذا المنصب فما خلقت لأكون ملكاً .

إني أبحث يا سيدي عن الهناء في الحياة ولكني لم أجسده إلى الآن ولا أخالني اظفر به إذا ارتقيت إلى العروش . وفوق ذلك فاني أذعر ذعراً لا يوصف حين أفكر اني سأقيم في قصر ملكي وملكتي .

ولقد تجاسرتني يا سيدي وتكلمت عن الهناء ، وأنا لم أعرف غير اليأس إلى الآن ، فهل يجد من كان مثلي هناء يعلق به كما يعلق الفريق بما يظفر به من أسباب الانتفاذ ؟

لقد دنت الساعة يا سيدي التي أبسط لك فيها خفايا قلبي لأنك أنت الوحيدة التي أردت لي الخير في هذا الوجود .

- تكلم يا بني ، واعلم اني مصفية اليك إصغاء أم ، لا إصغاء ملكة .

- إني أعرف ذلك يا سيدي ، وهو الذي يطلق لساني في القول ... ولكن كلمة واحدة يا سيدي ، تظهر لك ، كيف ان هذا اللقيط النانط المتكود يحسر على ان يطعم بهناء ، وهذه الكلمة يا سيدي ، إني أحب .

فاستدار وجه الملكة فإنها طالما كانت تقول في نفسها عن ديودات ، إن هذا الشاب القانط لا ينجيه من يأسه غير الحب ، ثم قالت له :

- أقسم لك يا بني إذا كنت تحب حباً نقياً خالصاً كما يحب قلبك الطاهر ، فقد نجوت وظفرت بما ترجوه من الهناء .

- نعم يا سيدي أكون قد نجوت لأنني حين كنت أفكر بما أنا فيه لم يكن يريحني غير الموت .

فابتسمت الملكة ، كأنها أردت ان تشجعه بهذا الابتسام وقالت له : والآن ؟

- والآن يا سيدي أشعر ان الهناء ممكن في الحياة واني بت أحب هذه الحياة من أجل التي أحبها .

- لقد سررتني جداً ، يا بني ، لانك إذا كنت محباً ، فلا ريب أنك محبوب .

- هذا الذي أظنه بل إني واثق من تبادل الحب بيننا .

- وهذا هو نعيم الحياة ، فلا هناء إلا للصعب المحبوب ، وأية سعادة أفضل من امرأة تحبك فتشاركك في نعيمك أيام مرائك وتضربك في متاعبك أيام ضرائك بل هذا الذي كنت أعتقد لك حين كنت أراك كثيراً ... ولكن لم تقل لي اسم هذه الحبيبة .

فارتعش ديودات ورجعت إليه المخاوف الخفية التي كان يشعر بها في الطريق وأجاب الملكة قائلاً :

- أنت تعرفينها يا سيدي وقد كانت شقية مثلي وثالث من إحسان جلالتك ما نلت ، فهي ضعيفة لا سند لها ... هاربة من الاضطهاد .. وحيدة شريفة ثم لتها جلالتك بكرم تلك النفس الطاهرة التي تسدع الناس بحبوتك بقدر إعجابهم بذكائك .

فدالت الملكة بصوت أجش : اليس دي ليكس .

فنظر ديودات نظرة نافذة إلى الملكة ، يريد ان يستطلع أفكارها ، ثم قال :

- نعم هي يا سيدي .

فلم تحب الملكة ، وقد وقع هذا النبا منها وقعاً شديداً ، لأنها كانت تشفق على اليس بعد خيانتها ، ولكنها كانت تشفق أيضاً على ديودات ، وتكره ان تزوجه من خائنة جاسوسة ، وتشفق عليه من اليأس إذا أخبرته حقيقة أمرها .

أما هو فقد أصفر وجهه لصمتها فقال لها : أنت لم تقولي شيئاً يا سيدي ، فبماذا تفكرين ؟

فأجابته دون جفاء وقد أرادت المطاولة كي تجد جواباً صالحاً :

- يظهر انك شديد الاضطراب يا كونت ، بحيث أراك تقدم على سؤال ملكتك .

فالتحني وقال لها وهو يتلثم : أسأل جلالتك العفو يا سيدي .

لقد غفرت لك يا بني وفوق ذلك فإني طالما كنتك من غير كلفة فلا عتب إذا نسيت مرة الواجبات .

وبعد ، فأنت سألتني عما أفكر باليس دي ليكس ، اليس كذلك ؟

.. نعم يا سيدي .

- إني لا أرى بها رأياً الآن لقد عرفتها زمناً قصيراً ولم أكلها مدة إقامتها عندي غير عشر مرات .

فاشدد أسفه لما رآه من اضطراب الملكة وقال في نفسه : ما بالها متعبرة وهي لم تعرف الحيرة قبل الآن .

ثم نظر إليها وقال :

- سيدي .. أوسل اليك ان تأذني لي بأن أسألك سؤالاً ، تلتب به شفتاي .

- سل يا بني ما تشاء .

- هل ترى سيدي اني أسأت اختيار خطيبي .

فاطرقت الملكة برأسها لأن ديودات كان يسألها ، فإمسا ان تكذب أو تقول حقيقة هائلة .

ولما رآها ساكنة قال : إن سكوت سيدي يدل دلالة صريحة على اني أسأت الاختيار وانها غير راضية عن خطيبي .

- إني لم أقل شيئاً مما تظن وما أنا بقاضية على اليس .

فركع ديودات وقال :

- إرحمني يا سيدي رجلاً ثقيلاً جعلك ملء قلبه ولم يجد إلاك نصيراً له في هذا الوجود .

كلمة يا سيدي تكفي فناني فأوسل اليك ان تقوليها .. أحسق إنك غير غلظية على اليس ؟

فلزمت الملكة الصمت ، وقد اضطريت اضطراباً لم تشعر بمثله في حياتها ، لأنها كانت تحاول ان تجد مخرجاً لديوات من هذا الغرام ، لاعتقادها ان ليس لا تحبه ، وإنما تعبت به لغرض من أغراض الملكة كاترين . فأجبت أن تنحصر هذه المشككة الخطيرة فصفاً دقيقاً ، فنظرت إلى ديوات وقالت له : قم يا كونت واصح إلي .

فنهض ديوات وهو يتأبل كالسكران ، والعرق ينصب من جبينه ، فقالت له الملكة :

- إني سأبرهن لك أيضاً عن عطفي عليك ، كما أعطف على ولدي هنري ، فاعلم إني لا أستطيع ان أجيبك الآن بشيء عن ليس ، ولا أستطيع ان أقول لك تلك الكلمة التي تريد سماعها ، قبل ان أرى ليس دي ليكس . وسأراها وأكلها ، وبعد ذلك أجيبك يا ابني بما تريد ان تعلمه .

وإني آمرك ان تلتزم السكنينة الى أن أراها ، ولا يحق لك ان تفكر اني غاضبة عليها او كارهة للزواج بها إلى ان أراها .

ثم إني أعيد عليك ما ذكرته ، وهو إني لم أعرف هذه الفتاة حق العرفان ، ولا أحب ان تزوجها قبل ان أعلم إذا كانت جديرة بك وبجيبك ، فأين هي الآن ؟

فتنهذ ديوات تنهداً طويلاً وقال :

- إنها في باريس ، وهي تقيم في شارع لا هاش ، في منزل بابيه أخضر قرب البرج الجديد .

- حسناً سأسافر غداً إلى باريس وسأسافر معي ، أنتولى رئاسة حراسي ، فاذهب الآن يا كونت وتأهب للسفر غداً .

فخرج ديوات مفكراً مهموماً وهو يقول في نفسه :
- لا بد ان يكون لأليس سر خفي لا تريد الملكة ان تقوله لي ...

ولكن الملكة تقول انها لا تعرفها ، أما أنا فقد عرفت حق العرفان ، والويل لمن يتهمها أمامي .

غير ان الغريب في كل ما أراه ، إني لم أذكر غرامي بها إلا للملكة وليارداليان .

أما بارداليان فقد كنت أراه شبه الخائر حين أكله عنها ، وأذكر ان قال لي مرة هذه الجملة المبهمة وهي : « من يعلم ، فقد تكون عارفة بأمر تجهلها ،

وما عسى ان تكون هذه الأمور التي تكتمها عني .

ثم كلت الملكة بشأنها فقالت لي : إنها لا تعرفها ، وكيف لا تعرفها ؟ وقد كانت وصيبتها وأقامت في بلاطها عاماً كاملاً . العله تريد بهذا أنها عرفتني كثيراً .

لا ريب ان بارداليان والملكة يعرفان عنها ما أجهله .

ولكن ما عسى ان يعلم عنها ، ومن يحسر على اتهامها إني أقتل الملكة وأقتل بارداليان إذا اتهاها فهي ملاك الطهر والعفاف ، وهي تحبني وأنا أحبها وأريد ان أحبها .

وقد ثارت الهواجس في نفس هذا المتكود ، حتى لم يعد يعلم ما يقول ويصنع .

وفي اليوم التالي رجع إلى الملكة ، ورأت آثار الاضطراب والتمتع في وجهه ، فقالت في نفسها : ما عسى ان يحل بهذا المتكود ، إذا عرف الحقيقة بتأتمها .

وقد اجتنبت محادثته عن ليس وأعطته التعليمات اللازمة بشأن السفر ، وختمت كلامها بقولها

- إننا ذاعبون إلى بلوا ، لأن شارل التاسع طلب مقابلتي في هذه المدينة ولا أحب الفرار من هذه المقابلة .

بل إني أريد ان أبذل كل ما أستطيع بذله في سبيل السلم قبل ان ألجأ
مضطرة إلى تحكيم السيوف .

وبعد هذه المقابلة فذهب إلى باريس ، مهتماً كانت نتيجة مقابلتي
مع الملك .
فإذا كان السلم قد تقرر ، فدخل تلك العاصمة بصفة رسمية ، او فدخلها
مستكرباً .

فصالحني ديودات ، بدون ان يجيب ، وانصرف للاهتمام بمعدات
السفر .

وبعد ذلك بثلاث ساعات ، كانت ملكة النافار مسافرة في طريق
بلوا ، يخفرها مائة وخمسين فارساً من الفوكينوت ، بقيادة الكونت
دي ماريلياك .

وفي اليوم نفسه كان شارل التاسع واهله كاثرين قد برحا باريس ايضاً ،
إلى بلوا .

حيث ذهب اليها كذلك هنري دي نافار والبرنس دي كونديه والأميرال
كوليني والقائد اندلوت .

اندهال جيل وجيلوت

عندما برح شارل التاسع قصر اللوفر ذاهباً إلى بلوا ، لغاية ملكة
النافار ، لاحظ مستاء ان جميع حراسه كانوا من أشد الكاثوليكين حقداً
على الهوكينوت .

وقد أبدى هذه الملاحظة لأمه فدفعت اعتراضه بقولها : إني قد فعلت
ذلك خاصة ليكون برهاناً على صدق نيتنا لدى ملكة النافار إذ سيكون شهود
الصلح بيننا أشد الراغبين في الحرب .

وكانت بين حاشية الملك الدوق دي كيز وهنري دي مونورانسي .

وكان هنري قد جاء بروكيه جيل ليلة السفر فخلا به خاوة طويلة وداوله
بشأن الأسيرتين .

وقال له في الحتام : إنك المسؤول عنها ، واعلم ان الاحوال ستتغير
قريباً ، وسيوافقني الملك بعدها على ما أريد ، فأرسل أخي فرانسوا يموت في
أحد سجون الباستيل ، وأما الآن فيجب ان تكون حكيماً ، وان تراقب
الليل والنهار .

فأقسم له جيل انه سيجد الاسيرتين بعد رجوعه حيث تركهما .

فقال له هنري : ثم أخبرك انه يوجد في القبر جثة يجب التخلص منها .
- ذلك سهل يا سيدي ، فإنتا تخرج في ظلام الليل ونطرحها في السين .

فوافقته هنري بإشارة من رأسه وافترق عنه .

وبعد سفر هنري مع الملك ببضعة أيام نادى جليل ابن اخته جيلوت وقال له : إننا سنهزم اللبنة بهمة صعبة وهي نقل الجثة من القبور .

فأجابته ابن اخته : اني أجد لذة بقضاء هذه المهمة ، وأتولى بنفسى دفن بارداليان .

- إذا تحملت على مركبة وتسير به الى ميناء سانت بول فترميها في الماء وهو خير من ان تحفر له حفرة وتدفنه فيها .

فأظهر جيلوت سروره لهذا المشروع وجعل يسن سكيناً كانت معه .

فقال خاله : ما هذه السكين وماذا تريد بها ؟

- إنني أريد قطع أذني هذا العجوز ميتاً ، فقد تهددني وهو حي بقطع أذني .

فضحك جليل ضحكاً شديداً .

... لماذا تضحك ؟

- اني نثالث رأس هذا الشيطان المريد بدون اذنين .

فهب جيلوت سكينته بيده وقد أتم شحذها وقال لخاله هلم بنا .

فأخذ جليل حساماً معلقاً على الجدار ووضع في زناره غدارتين ثم ذهب مع ابن اخته الى الاصطبل ، فأخذ مركبة خشبية وربطها بحاراً كي ينقل الجثة عليها الى السين .

وقد وضعها على المركبة حجراً ضخماً وحبلان كي يربطاه في عنق بارداليان لينحدر الى أعماق النهر .

وبعد ان أنسا هذه المعدات سار جيلوت وهو مشهور بيده الحسام ، ويجعل بالآخرى مصباحاً .

وسار ابن اخته وراءه وهو يجير الحمار والمركبة الى القبور السجون فيه بارداليان .

ورضع جيلوت المفتاح في القفل وقد مثل له أنهم ان الجثة قد فسدت وانحلت فسد انفه بيده وقال أف لهذه الرائحة الكريهة ففعل خاله فعله وقد شم أيضاً بالروم هذه الرائحة .

وبعد ان أدار المفتاح في القفل دفع الباب فلم يفتح ، فذعر وتراجع قائلاً ، ما هذا ؟

فأجابته خاله : إنه قد حصن الباب بلا ريب ، حين دخوله إلى القبور ، هلم نتعاون على فتحه .

فاندفع الاثنان على الباب يرفسانه حتى تساقطت القناني من ورائه وفتح ، فدخلوا إلى القبور وجعلوا ينزلان درجات سلمه .

وكان جليل يتقدم ابن اخته ويسنده المصباح وقد كان واثقاً انه لا يلاقي غير جثة باردة منجولة ، فترك حسامه عند الباب ، ولكن ابن اخته لم يترك السكين ، فقد كان أقصى مراده ان يقطع أذني بارداليان ، فكان يمشي وراء خاله ويقول :

- لا بد لي من قطع أذنيك أيها الجبار . . . ولكن أين أنت ؟

- سنجدته وتهدينا اليه رائحته .

- لقد أصبت ثم رجعت إلى سد أنفه .

وكان هذا القبر شديد الاتساع وفيه كثير من الغرف والمنعطفات ، فجعل الاثنان يسيران ويفتشان .

حتى عثر جليل بقطع من العظام فقال : ما هذه العظام .

فأجابته ابن اخته بلهجة الأسف : لا ريب ان الجرذان قد أكلته وتوكت عظامه وحرمتني من أذنيه .

- ولكنها ليست عظام إنسان أيها الأبله ، فهاتم .

فالتقطها جيلوت عن الأرض ودفعها إلى خاله ، ففحصها وقال إنها عظام اللحم المقدد .

- أنظر إلى القناني الفارغة كيف تكدست فصارت كالجلبل .
- ويح لهذا الشقي لقد أكل وشرب قبل موته كل ما في القبر .
فهز جيلوت سكينه وقال :
- الانتقام ... الانتقام !

ولبنا يفتشان نحو ساعة فلم يدعنا زاوية في ذلك القبر العظيم إلا بحثا فيه دون
أن يظفرا بشيء .
فقال جيل : ما هذه الغرائب وأين اختفى وليس في القبر منفذ .

فأجاب ابن اخته قائلا : إني أعيد ما قلته وهو ان الجرذان قد حرمتني
من أذني .
- أصمت أيها الأبله ، على إني أورد ان تكون صادقا لتتخلص من عناء نكد
إلى السين .

غير أنه كان حائراً في أمره ، واتقيا كل الثقة من أن بارداليان لم
يخرج من القبر ، لأنه كان محصناً من باب من الداخل ، ولأنه لا يوجد
منفذ فيه .

وبعد ان ينس من وجوده رجع مع ابن اخته إلى الباب فحشي وهو يتقدمه
مطرق الرأس .

وصعد السلم حتى إذا وصل إلى الباب صاح صبيحة هائلة لأنه وجده مقفلا
وهو قد تركه مفتوحاً حين دخوله .

وقد خطر له بعد ذلك الرعب انه هو نفسه قد أغلق الباب ، ولكنه
حين حاول فتحه ، وجده مقفلا من الخارج ، فصاح صبيحة منكرة وأيقن أنه
من المهالكين .

وكان ابن اخته قد أدركه وسمع الصبيحة فقال :

- ماذا حدث ؟

- حدث اننا بتنا سجينين ، ولا بد أن يكون قد دخل إلى القصر

في أروا لص ، أو عفرت من الجن ، وأقفل الباب علينا ، وسنموت جوعاً
في هذا القبر .
فدعر جيلوت ذعراً شديداً ولم يجب .

وعندها سمع الاثنان قهقهة من خارج الباب وصوتاً يقول : لا تخف يا جيلوت
فأقطع أذنيك
فجمد الدم في عروقها إذ علما ان هذا الصوت صوت بارداليان نفسه وهما
يمتدنان انه من الأموات .

وقد أصاب ظنهما لقد كان هذا الضاحك الهازي ، بارداليان الأكبر وهو
الذي أقفل الباب عليها .

ولقد كنا تركناه في ذلك القبر ، وهو لم يبق غير قطعة واحدة من اللحم
الدهن فكان يتوقع الموت جوعاً .

ولما أكل تلك القطعة وفتش القبر مائة مرة باحثاً عن غيرها دون ان يجد
وثن كل الوثوق من الموت .

وعند ذلك عزم عزماً نهائياً ، وهو ان ينتقم من الموت بالموت ،
فيتغذى بالخر .

حتى إذا شعر بألم الجوع ولم يعد له طاقة على احتماله طعن نفسه بخنجره ،
ومات مستريحاً بدون عذاب .

وكأنما هذا العزم قد أراح سره ، فجمع مسا وصلت إليه يده من
القناني ، ووضعها أكداً واضطجع بقربها ، فجعل يشرب ويتلهم بالشرب
عن الجوع .

وقد مر به عدة ساعات دون ان يذوق طعاماً ، فلما رأى انه لا تجاذه
من الموت ، وان الجوع يعض أحشاه سهل له السكر الانتحار ووطد نفسه
على الموت ، وبرد الخنجر يريد الانتصار .

ولكنه سمع في تلك اللحظة صرير مفتاح في قفل القبر ، فوثب إلى السلم

حتى وصل إلى الباب ووقف وراءه بسمع ما يقال .

ولقد سمع محادثة جيسل وابن اخته ، فسر سروراً لا يوصف ،
وجرد خنجره ، ووقف كائناً وراء ذلك الباب ، وهو ينتظر أن يتمكن
من فتحه .

وبعد هنيهة فتح الباب ودخل الاثنان دون أن يريا بارداليان .

وكان بارداليان عازماً على قتلها ولكنه حين رأى أنها مرابه دون أن يرياه
خطر له خاطر سريع .

فأرکها حتى توغلا في القبو فخرج هو منه آمناً مطمئناً بل السكينة وأقل
الباب بفناحه .

وعندها تنفس تنفساً طويلاً ، وكان أول ما خطر له ان يعتمد عن ذلك القبو
الذي كاد يكون قبره .

ولكنه تذكر انه لا يوجد أحد في القصر ، وأت لا خوف عليه
من البقاء .

فأحب ان يعلم ما يكون من السجينين حين يعلم بسجنها .

حتى إذا عاد التعميسان إلى السباب ، وضحك عليها كما تقدم ، اكتفى
بذلك وانصرف .

الاب والابن

كان بارداليان الأكبر على قصر مدة إقامته في قصر هنري عارفاً بجميع
مداخل القصر ومخارجه .

فقد كان من عادته ، ان يدقق البعث في كل مكان ، يحاول ان
يسكنه .

ولما ترك القبو ، وغادر ذينك الشقيين في أشد حالات النكد ، صعد إلى
غرف القصر وجعل يتفقدتها غرفة غرفة .

ولقد كان يعتقد ان له الحق في تفتيش القصر . وسواء كان غطناً او مصيباً
في اعتقاده ، فانه جعل يطوف مفتشاً وهو لا يعلم في البدء ماذا يريد وعن أي
شيء يبحث .

إلى ان رأى امرأة فنظر نفسه فيها فرأى انه حاسر الرأس وان ملابسه
مقطعة وقد صبغت صبغاً مختلف الألوان بما علق عليها من الوحل والدم والحمر
والدهن ، وانه لم يكن لديه حسام .

ثم رأى جراحه قد ختمت ولم يبق منها غير أثر جرح في أنفه .

فقال في نفسه لنبدأ بالترتيب . ثم دخل نواً إلى الغرفة التي ينام فيها هنري
دي مونورانسي .

وهناك رأى خزانة كبيرة للملابس مغلقة فأخذ خنجره وكسر بها قفلها ،

فتفتحت ورأى فيها جميع الملابس على اختلافها .

فخلع ملابسه حتى بات عارياً ولبس من تلك الملابس ما اشتراه وهو ينظر إلى نفسه باسماً ممتعاً .

ثم خرج منها إلى غرف الضباط فاخذ من غرفة درعاً ومن غرفة أخرى حذاءً وبقعة جميلة مزينة بالريش .

وخرج منها إلى قاعة السلاح فتقلد خيز حسام وجدته فيها .

وبعد ان أتم ملابسه وعدته جعل يواصل تفتيشه حتى دخل إلى غرفة متزوية فاستلقت انظاره فيها صندوق ضخيم فعدته نفسه بفتحه .

فاخذ بمعالج اقفاله حتى فتحها فدهش ووقف حائراً مهولاً إذ رأى فيه من الذهب ما يدهش الأبصار .

وبعد أن تاب من دهشته حك انفه وقال .

اني لست من اللصوص فاسرق دنانير هنري دي مونمورانسي ولكني اعتقد ان هذا الرجل مدين لي بغرامة حربية فاني صاحب النصر الآن .

وقد بقي ان أقدر هذه الغرامة دون أن يصيبه او يصيبني شيء من الخيف فلأبدأ بهذا التقدير من ملابسني .

ولا انكر اني استبدلت ملابسني بسواها ولكني كنت شديد الإعجاب بملابسي لا اريد استبدالها .

وفوق ذلك فان هذه الملابس الجديدة تزجني فلنجعل قيمة التعويض عن هذا الأتزعاج مائة دينار .

ثم اني مصاب بعشرة جراح فلنجعل ثمن كل جرح عشرة دنانير ، فيكون المجموع مائة دينار ، ويكون كل المجموع مائتي دينار وليس في ذلك شيء من الغبن .

ولكن ليس هذا كل ما يجب نيله من التعويض ، فقد بقي الاضطراب الذي اصابني ، فلنجعل ثمنه ١٨٠٠ دينار ، ثم نضيف الف دينار ،

مقابل اقتصاري على أكل اللحم المقدد ، فاني سأحتاج دون شك الى طبيب يعالج معدتي .

وهي ذلك تكون جملة الغرامة ثلاثة آلاف دينار وواحد ايس ذلك بالتعويض الكثير فلو تأخر قدوم جيل لحظة لكنت قتلت نفسي .

ثم أخذ البلغ الذي عينه لنفسه فوضعه في منطقتيه وأقبل الصندوق وخرج من تلك الغرفة وهو مقلد حساماً مرهقاً وقد حشا جيوبه بالدنانير .

ولبس ملابساً جديدة من الرأس إلى القدم وسار متجهساً إلى باب القصر الكبير وهو يمشي ممجياً محتالاً بلاء النشاط كأنه من الفتيان وخرج من ذلك القصر الذي كاد يلاقي فيه الموت .

وكانت الشمس قد اشرفت حين خروجه فسار وهو يقول في نفسه ، ترى ماذا حدث في خلال سبعيني في القبو ؟ وما زال قصر هنري خاوياً خالياً وأين هو هذا المارشال ؟ وماذا جرى لولدي .

ولبت يسأل نفسه هذه الأسئلة حتى وصل إلى فندق دافنير ، فلم من صاحبه ان الملك سار بعيمته إلى بلوا كهي يعقد الصلح بين الكاثوليك والموكيوت .

ثم قال له صاحب الفندق وهو ينظر اليه ممجياً ، اسمع لي يا سيدي انت اعنتك فان هيبنتك تدل على انك في أحسن حال .

هو ذاك يا لاندري فقد سافرت سافراً كان رائدي فيه حسن التوفيق .

أتعلم كم كانت مدة هذا السفر .

انك يا سيدي كنت عندي منذ شهرين وهي آخر مرة زررتي فيها ، وطلعت الفيكونت تلك الطعنة .

قال عجيباً كيف تضي الأيام (ثم قال في نفسه لقد فاتني أن اضيف حساب الغرامة مدة هذا السجن فانها تسوي الف دينار على الأقل) .

وعاد إلى محادثة صاحب الفندق فقال له :

إني توقفت في هذه الرحلة ، كما قلت لك ، وسأدفع لك ذلك
الدين القديم

فبرقت أسرة صاحب الفندق سروراً وقال : ما شككت مرة يا سيدي
إني من أشرف الناس .

- قل لي إذاً كم يبلغ ذلك الحساب

وجعل ينظر عرضاً إلى الشارع

فأجابته صاحب الفندق قائلاً : إنك مدين لي يا سيدي .

ولكنه قبل أن يتم جلسته صاح بارداليان فجأة وقال : أيسا الشفي اني
بجازيك عن خيانتك .

ثم اندفع الى خارج الفندق راجعاً ، ووقف لاندرى ينظر اليه متذمراً
مبهوناً إلى أن توارى عن الأنظار .

أما بارداليان فإنه بينما كان يطلب الى صاحب الفندق بيان حسابيه ،
رأى الفيكونت اسبرمونت ماراً في الشارع ، فأسرع اليه يريد قتله لوثوقه
أنه هو الذي وثق به الى هنري مونغورانسي ، تلك الرشاية التي سجن من
أجلها شهرين .

وكان الذي رآه بارداليان الفيكونت نفسه ، ولكنه كان مستمجباً
كما يظهر .

ولما خرج بارداليان من الفندق لم يدركه ولم يره .

وبحث عنه في المتعطفات الأربعة ، فلم يجد له أثراً ، فشم شتماً فيبيها
ونسى صاحب الفندق ، وذهب ترواً إلى قصر مونغورانسي كي يرى ولده فيه
وهو يقول :

- أرجو أن لا يكون أصيب بمكروه ، فإني بت اعتقد أن أسرة
مونغورانسي أسرة شرف ، وقد لقيت من هنري ما يثبت هذا الاعتقاد فمسي
أن لا يكون أخوه مثله .

ولما وصل إلى قصر فرنسوا وجد فيه ولده سالماً آمناً فعانقه بلهف
وبعد حنينة سأل ابنه قائلاً : أين كنت يا أبنائي وما أصابك ؟

- سأروي لك حديثي فاتحبرني الآن ما أصابك أنت .

- لم أصب بشيء ، كما تراهي .

- بل أراك ناعلاً حزينا وما تعودت أن أراك على هذه الحال ..

- أروي لك قصتك يا أبي في البدء ثم أروي لك قصتي .

فقص عليه أبوه عند ذلك جميع ما اتفق له بالتفصيل .

فضحك بارداليان الأصغر وقال : إذا ... لقد بات الآن جيل وجيلوت
في مكانك !

- نعم ، والفرق بيننا اني كنت أتغذى باللحم المقدد وسيتغذون بمسا
ركته من العظام .

- ولكن يجب إنقاذ هذين المنكودين يا أبي فإنها لم يعملوا إلا بأمر سيدهما
ولا حرج عليها فيما أرى .

- ما هذا يا بني الملك جننت ؟ وكيف تطلق سراح جيل فيذهب ترواً إلى
مولاه ويخبره بما جرى ومن ينقذني منه بعد ذلك ؟

ان هنري يعتقد الآن إني ميت ، ولا يد لي من ابقائه على هذا الاعتقاد إلى
أن أجد مخرجاً من هذا الخطر .

أما جيل وابن اخنة فهما شقيان لا يستحقان الرحمة وحسبك ان جيلوت
أصف حين اعتقد ان الجرذان الكنتي ، لأنه كان يود قطع اذني ، فلا أجد
بدأ من قطع أذنيه ، فلندعها الآن في شأنها ولنبحث في شأنك ، فقل لي
ماذا حدث لك .

- إنك تعلم يا أبي السبب في حزني .

- نعم ... فهو فانك المرأان ، الا تزلان أسيرتين ؟ أم تعلم
مكانهما ؟

- كلا ، وأسفاه فقد نقيت مع المارشال فرنسوا جميع باريس ، حتى
بشتت من لغاتها ، ثم لما رأيت انك لم تعد إلي عوات على أن أيرج باريس وان
أطوف البلاد هائفاً على وجهي ، غير اني أشقت على المارشال فإن اليأس يكاد
يقتله ولم أستطع فراقه .

- فسماً بيلاطس .. فسماً بياراباس .. فسماً بقرون الشيطان .

- ما بالك يا أبي ، وماذا جرى ؟

- وجدت .. وجدت !

- ماذا وجدت !

- وجدت مكان الأسيرتين ، أو طريقة معرفة ذلك المكان ، وكلامهما

واحد ..

فاصفر وجه بارداليان وقال : إحذر يا أبي أن تفرحني فرحاً كاذباً .

- لقد قلت لك ، اني وجدت الطريقة ، فما بالك تضطرب هكذا

الاضطراب ؟

نعم ، لقد نسيت انك تحب لوزا ، ويحق لي أن أنسى ، فان هذا الحب لا

يخطر في بال أحد من العاقلين .. على انك تريد أن تتزوجها بعد أن تجسدها ،

فلا بأس تزوج وأنا موافق على هذا الزواج ..

- أتزأ يا أبي .

- قطع الله لساني إذا كان جزءاً بك يا بني .. ونعم اني حذرتك من

النساء ، ولكني لما رأيتك علفت بالشراك ، ولا سبيل لانقاذك رأيت ان لا

بد أيضاً من موافقتك على هواك وتتزوج لوزا .

فأجابه بارداليان بصوت بنهيج : أبي إن ذلك لا يمكن ان يكون ، أنسيت

إنها ابنة فرنسوا دي مونجوراسي .

- ماذا تعني ؟

- أعني إنها ابنة أشهر وأشرف رجل في فرنسا فلا يزوجونها بمثلي .

- أرى أن رأسك قد طاش يا بني .

- هو ذلك فان من يكون مثلي ويحظر له أن يصاهر مثل هذا النبيل الذي

تصاهره الملوك فما هو إلا من المجانين .

فأخذ الأب يد ولده بين يديه وقال له :

لقد قلت لك يا بني انك ستتزوجها ، واذا تم هذا الزواج بينكما كنت

الشرف لأسرة مونجوراسي ، فان من كان مثلك يعادل الملوك .

وأريد بالملوك أولئك الملوك القدماء الذين كانوا يستحقون الرقي إلى منصب

الملك ، بما كان يبدو منهم من الشجاعة والكرم .

ولا تحسب أن حزوي الأبوي يعمي عن الحقيقة ، فأنا أعلم منزلتك وأنت

بأن المارشال بقدرك حق قدرك وستزوج لوزا كما قلت لك .

فهو بارداليان رأسه ، إذ كان يعلم أكثر من أبيه ، ذلك الحاسب المزبوع

اللائن بين مثله ومثل أسرة مونجوراسي .

ولكنه كان قد صمم النية على أن يحب تلك الفتاة حباً خالصاً من الأغراض

وأن يخدمها ببله الاخلاص ، فأجاب أباه قائلاً :

يجب أن تبدأ يا أبي بإيحاء الفتاة وأمها .

- لقد اصبت يا بني .

- أما قلت إنك تعرف مكانهما .

- كلا ، بسل قلت إنني اعرف طريقة الاهتداء إلى المكان ، فأذهب

واخبر المارشال ..

- كلا ، هلم بنا نذهب معاً فلاني أحب أن أكون أنا الذي يعيد اليه ابنته .

- هلم بنا يا أبي .

وخرج الاثنان وبارداليان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن أباه سيكتشف مكان

الأسيرتين لما رآه من لهجته .

وفي الطريق قال الأب لابنته :

- يوجد يا بني رجل لا بد أن يكون عارفاً مكان الأسيرتين ، وهو وكيل هجري وكانتم اسراره .
- أهو جيل ؟
- هو بعينه .
- لقد أصبت يا أبي فلنسرع اليه .
- انه اسيرة فلا تخف .
- إني أخاف أن يكون وجد منقذاً في القبر خرج منه .
- اطمن يا بني فإني بحثت في هذا القبر الهائل فلم أجد منه مخرجاً ، ومع ذلك فقد اشفتت عليه في البدء وارتدت اطلاق سراحه .
على أن هذا الأب الحكيم خشي أن يكون لهذا القبر باب سري ، فوافق ولده على السرعة .



وبعد هنيهة وصلا إلى قصر مسج ودخلا اليه من الحديقة ، فذهبا إلى القبر ووجدوا المفتاح لا يزال في القفل .
فأراد بارداليان ان يفتح الباب ، ولكن أباه منعه وقال صبراً : ووقف مصغياً عند الباب .
أما جيل وجيلوت فانهما معاً من داخل القبر وقع اقتدام عند الباب ، فجعل جيل بصيح بأعلى صوته قائلاً : افتحوا بحق السماء .
فغير بارداليان الأكبر صوته وقال : من أنت ؟
قال أة جيل وكيل سيدي الدوق دامقيل حبسنا في هذا القبر لص من الأشقياء .
فضحك بارداليان الأكبر ضحكاً عالياً وقال : كفى .. كفى .

فإن جيل أتبع الموضع وقال : هو بعينه .
إنك لم تحطبي . يا حضرة الوكيل ، فقل لي كيف حال ابن اختك فقد جنت لاقطع أذنيه ، وأما أنت يا جيل فاصغ إلي .
- إني مصغ اليك يا سيدي فقل ما تريد .
- إني اشفتت عليك من الموت في هذا القبر ولذلك عدت اليك .
- أشكرك يا سيدي وأسأل الله أن يكافئك عني .
- وقتل لي إنك ستموت جوعاً ، فكرهت لك هذا الموت الشنيع .
- وأي موت اشنع منه يا سيدي .
- أعرف طرقاً كثيرة للموت ، مثال ذلك إنك ترى في جدار ذلك القبر الذي انت فيه مسماراً غليظاً ناتئاً ، ولدي حبل شديد فإذا علقت الحبل بهذا المسار وربطته بعنقك كانت الميتة اقطع .
- رياء ما تقول العلك تريد شنقي .
- إني أريد انقاذك من الموت جوعاً ايها الناكر الجميل ، وأما ابن اختك فاني لا أصيبه بأذية سوى إني اكنفي بقطع أذنيه .
وعند ذلك فتح بارداليان الباب ودخل مع ابنه ، فرأى جيل راكعاً على السلم وقد أصفر وجهه كالأموات .
فنظر بارداليان إلى ابنه وقال له : قف عند هذا الباب ، فإذا حاول أحد هذين الشقيين الخروج منه فاقتله دون اشفاق .
فصاح الوكيل أسألك العفو والرحمة يا سيدي .
- ولماذا ، العلك خفت من الموت .
- وأي عاقل لا يخافه .. رحماك لا تفنلني .
- إذا كنت تخاف الموت كما تقول فاني أدلك على طريقة للافتداء .
- قل يا سيدي كل ما تريد وسلني كل ما جمعت من المال منذ خلقت أعطك إياه وافي من الاغنياء .

- أنا لا أريد مالك .

- إذا ماذا تريد . . سل ما تشاء . . لقد خفت ، بريك اصفح عني

- لا تخف فاني لا اقتلك جوعاً ولا اشنقك ، بسل اني اطلق سراحك في الحال ، ولكن بشرط واحد .

ففرح جيل فرحاً لا يوصف وقال ما هذا الشرط يا سيدي .

- أريد ان تقول لي أين مدام دي بيانس وابنتها .

فنظر جيل إلى بارداليان نظراً الأبله وقال : أهذا الذي تريد ان تعرفه مقابل انقاذ حياتي .

- نعم وانت ترى انه شرط سهل ميسور

وكان جيل راکماً أمام بارداليان فوقف عند ذلك وقد زال ارتعاشه فقال بلهجة تدل على التعزية والثبات .

إذا اقتلني فإني لا أقول شيئاً ولا تعلم مني هذا السر

فغضب بارداليان الأكبر غضباً شديداً وصاح بابنه قائلاً :

- هات الحبل يا شقاليه .

ثم أمسك جيل وجره جراً إلى مكان المسار وقال له : أترشدني إلى بحبل الأسيرتين ؟ إنني سأملك دقيقة للتفكير .

فقال له جيل : أرى أن ليس لديك حبل ، فإذا كان ذلك فاعلم انه يوجد حبل في تلك المركبة الواقعة عند باب القيو ، وقد كنت جئت بها لاقبل جثتك عليها إلى السين ، فقل لرفيقك يحضر ذلك الحبل واشتقني به ، فإني لا أروح بحرف .

فقال بارداليان كأنه يخاطب نفسه والله ان هذا الرجل شجاع ويسومني أن أقتله ثم جرده خنجره وقال :

- ان من كانت له بسالتك لا يجب ان يموت شقياً ، ولكنني سأقتلك بهذا الخنجر إذا لم تقل

فمزق جيل صدرته بحركة عنيفة وقال :

- هوذا قلبي فاطعنه ، ولكن رغائب الناس مقدسة في ساعة الموت ،

فأرجوك أن تضرب الدوق دامفيل بعد قتلي اني مت وفيماً بعمده أميناً على سره وانني مت في سبيله .

فذهل بارداليان وابته ذموراً عظيماً ، فان هذا الرجل الذي هلع

قلبه من خوف الموت في البسده ، يعرض صدره الآن للخنجر غير وجل و هيب .

ونظر بارداليان الأكبر إلى ما حوالبه فرأى جيلوت قد خرج من زاوية وهو يرتعد خوفاً .

فقال له لا تخف أيها الأبله فإنا لا نريد قتلك ، ولكننا بعد قتل خالك نكتفي بقطع أذنيك .

فارتعش جيلوت وقال : إنني عارف بديتك والذنب ذنبي ، فقد نويت

لك هذه النية من قبل ، ولكنني أحب أن تبقني لي أذني ، فأقيدت أسدومك في سبيل استبقائها .

- قل .

- إنني أعرف مكان الأسيرتين اللتين تبحثان عنها .

فقال له جيل مندعراً . أنت تعرف مكانها أيها الأبله .

فقاطعه بارداليان قائلاً : كلا ، ليس هو بابله وما الأبله إلا من لا يعرف أن يصون نفسه من الأذى .

فقال جيل : انه كاذب أحم .

ثم حاول أن ينقض على ابن أخته ، ولكن بارداليان الأكبر قبض على عنقه وسله إلى ابنه والتفت إلى جيلوت فقال له : تكلم .

فعاد جيل إلى الصباح قائلاً : إنه كاذب يريد أن يخذلكما .

فأجابته ابن أخته قائلاً كلا ، إنني لست بكاذب ، فإني أنا أعددت المركبة

لنقل الأسيرتين ، وأنا الذي تبعتهما في الليل حتى عرفت المكان الذي وقفت فيه
وأنا مستعد لإرشاد هذين السيدين إلى مكانها .
فقال له الشفالييه بارداليان : أين هو هذا المكان .
- في شارع لاهاش .
فخطرت لبارداليان ليس دي ليكس ، عند ذكر هذا الشارع وقال
شارع لاهاش ؟
- نعم يا سيدي .
- في أي مكان منه فان الشارع كبير .
- أن معرفته سهلة فهو كائن في عطفة الشارع من جهة ترافزين ، وله
حديقة بابها أخضر ، وليس في الشارع بيت يشبهه .
فقال بارداليان الأكبر : هلم بنا يا بني والتسرع في اتقادهما .
ولكن الشفالييه لبث واقفاً في مكانه وقد اصفر وجهه .
فقال له أبوه : ما بالك واقفاً العلك مرطاب بصدقه ، فإذا كان ذلك
فلنأخذهُ معنا .
- كلا ، فإني واثق من صدق ما يقول .
ولبث ساهباً حائراً فإنه تمثل له ابن ليس دي ليكس شريكه هنري في
جرائمه ، واشفق على صديقه ديودات لوقوعه في شرك هذه المرأة فقال لأبيه :
هلم بنا فإني سأعرف الحقيقة منها إذا وجدت .
فلم يفهم أبوه شيئاً من مراده ، ولكنه عزم على أن يتبعه ، فنظر إلى جيل
وجيلوت وقال لها .
- إذها فقد أطلقت سراحكما وليشئكما غيري .
فأجابه جيل : هو ذلك فلا بد لمولاي الدوق من أن يشفقني .
فقال له بارداليان الأصغر : كن مطمئناً فسأشهد فيك خير شهادة
لدى مولاي .

أشكرك يا سيدي أجزل شكر فلا ينقضي غير هذه الشهادة .
- وأنا أضمن لك اني سأبلغ مولاي حديث وفائك وأمانتك .
فقال له أبوه : وهكذا تعامل من أراد أن يلقي جثتي في النهر . . . أنك
تجاوزت الحد في مكارم الأخلاق يا بني ، وسعري أنه لا يكون لنا من ذلك
غير الشر .
وفي خلال هذه المحادثة ، كان جيلوت قد هرب ، حذراً من أن يبقى
مع خاله .
وأما جيل فقد جلس على برميل صغير ، ووضع رأسه بين يديه وهو يتأمل
هذه الحادثة وكيف انقلبت عليه .
فتركه بارداليان وأبوه وسارا توأ إلى شارع لاهاش .
وبينا هما على الطريق قال له أبوه : من عسى أن يقيم في هذا المنزل ذي
الباب الأخضر . . . انه أحد ضباط الدوق دامغيل دون ريب ، وقد أقام فيه
مع فريق من الحامية لحماية الأسيرتين .
وعندي انه خير لنا ان ننتظر فنراقب المكان ، ونعلم قوة من فيه فنحطاط
كهي يكون التجاح مضموناً .
- كلا يا أبي بل يجب أن أكون وحدي في هذه المهمة ، إذ لا يوجد ضباط
ولا حامية في هذا المنزل .
- كيف ذلك العلك تعرف المنزل .
- نعم ولا أخشى غير أمر واحد ، وهو أن يكون هذا المنزل
الآن مهجوراً .
- لا أقم شيئاً مما تقول ، ولكني أرى انه يوجد من تحاول
اخفائه عني .
- هو ذلك لأنه ليس بسري ، بل هو سر صديق أحبه حب أشاء واحترمه

روحه قلضيه
مفتحة ليلتين

فوق احترامي لجميع الناس ما خلاك يا أبي .
 - وأنت تريد ان تذهب وحدك ؟ أتؤكد لي انه لا خطر عليك
 - لا خطر علي عنى الاطلاق ، ولا بد من أن أكون وحدي
 - إذا كان ذلك فسأنتظرك في آخر الشارع .
 - كلا ، بل لنفترق هنا حذراً من أن يروك ، فان أهل المنزل إذا عرفوا
 انه يوجد من بصحبي لا يقتحمون لي الباب .
 - إذاً أين تريد أن انتظرك ، أفي فندق دفينير ؟
 - كلا ، فان الإقامة فيه خطر .
 - بل فننظرني عن كافي .
 - أرايتها في خلال هذين الشهرين .
 - نعم فقد انشأت بدلاً من تلك الحماره المحترقة ، حماره غيرها بفضل ما
 أعطيتها ، وقد جعلتها في شارع تيكنتون .
 - ماذا دعت حمارتها الجديدة .
 - حماره « ميتين بشكلمان » .
 وهي تشير بهذا الاسم الطويل إلى حادتنا .
 وعند ذلك افترقا فسار الأب إلى كافي ، وسار الابن إلى شارع لاهاش .
 ولما وصل بارداليان إلى منزل اليس وجد جميع نوافذه مقفلة ، فهلع قلبه
 واستدل من ذلك ان المنزل غير أهل .
 ولكنه طرق باب الحديقه مراراً فلم يفتح .
 وقد تمثل له ان لويزا وأمها سجينتان في ذلك المنزل تقاسبان من العذاب ،
 فسكاد يحن اشفاقاً .
 ولم يجد بدأ من الدخول إلى المنزل ، فلتساق جدار الحديقه بخفة التعمور
 ووثب منه إليها ، ثم صعد إلى باب المنزل ففتح ذلك الباب حين وصوله إليه ،
 وظهرت منه اليس دي ليكس

وكانت مصفرة الوجه تحية الجسم بأية الاضطراب والكآبة ، فقالت
 بارداليان حين رآته : أسرع يا سيدي بالدخول .
 فدخل بارداليان وسارت معه إلى تلك الغرفة التي اجتمعت به فيها مع
 ديودات .
 فلبثت واقفة ولم تشر إليه بالجلوس بل قالت له :
 لماذا تضطهدوني هذا الاضطهاد ولا تدعوني أموت بسلام ... أنك أتيت
 إلى هذا المنزل ثلاث مرات ، وطرقت بابه فلم أفتح لك ، وأنت من أهل
 الظرف والكياسة ، أما كان الأجدر بك احترام عزلي وشفتائي .
 فأجابها بارداليان قائلاً : ان استقبالك أبي بهذه الهمجة يعتبر بثابة طرد ،
 بل هو اهانة لا استحقها ، ولو لم أكن قادماً إلى منزلك في شأن خطير لمسا
 بقيت فيه لحظة .
 - قل كلمة يا سيدي فقط العلك قادم من قبله .
 - تريدن أن تعلمي إذا كان الكونت ماريلياك أرسلني إليك .
 - هو ذاك ولا بد أن يكون هو الذي أرسلك ، فقد قابل ملكة
 النافار ، اليس كذلك ؟ وأن الملكة اخبرته بكل ما تعلمه ، كي تنقذه من
 مخالب امرأة منلي ، فهو يعلم الآن حقيقة أمري ، ولم يحسر أن يأتي بنفسه إلي
 فيوسعني كرهاً واحتقاراً ...
 إنني كنت أظنه أرسل مما أراه ... وأنت يا سيدي كيف رضيت أن
 تنولي هذه المهمة
 فذهل بارداليان مما سمع وحاول أن يخبرها بأنها مخطئة ، ولكنها قطعت
 حديثه وقالت :
 ... لا تقل شيئاً يا سيدي ، فإني أعلم كل ما عهد إليك بقوله فسلا فائدة
 من اعادة .
 وفوق ذلك لا أطيق سماعه إذهب يا سيدي وقبل له : أن العقاب

سينفذ لنفسه فاطمئن .

أما أنت يا سيدي فإنك منذ دخلت إلى منزلي علمت أن مصيبة قد دخلت معك ، فقد كنت نذير سوء حين جئتني مخبراً أن ماريلياك ذهب إلى ملكة النافار ، ولو جاء بنفسه لكنت منعمته ، ولكن فات الأوان وأما الآن فقد قضي الأمر .

ثم جئتني الآن تذرني بخاتمة المصاب - فاذهب يا سيدي في شأنك ، وليغفر لك الله فاني غير حاقد عليك .

فكاد بارداليان يحن اشفاقاً على هذه الفتاة وقال لها :

سيدي إنك مخطئة خطأ عظيماً فليس الكونت الذي أرسلني ، ومساواة قادم اليك لاغراض بل لغرض خاص بي .

- إذاً ليس هو الذي أرسلك .

- كلا ، فإنه لم يعد بعد .

- رباه ماذا قلت وماذا بدر مني .

ثم غطت وجهها بيديها وجعلت تبكي بكاء الأطفال .

فرجع بارداليان أمامها وقال لها بلهجة رقيقة حنوناً :

سيدي أوصل اليك أن ثقني فاني نسيت ما سمعته منك ، وإنك كيف كنت فلا أراك غير امرأة كئيبة متوجعة تبكي .

واني أضحي نفسي في سبيل إزالة هذا الشقاء الذي يبكيك وفي سبيل خطيبك وصديقي النبيل .

ثم اني لا أعلم أي خطأ ارتكبتك فحملك على التدم والاكنتاب ، ولكن الذي أعلمه انك تحبين صديقي حباً خالصاً طاهراً ، ومثل هذا الحب الصادق

يفغر الزلات ، بل يفغر الآقام والجرائم .

- زدني من حديثك أيها الرجل النبيل ، فاني أقام منذ عهد بعيد ، فلا أجد معزياً ولا أسمع كلمة رافة وإشفاق .

ونسي بارداليان الغرض الذي جاء لأجله ونهض فأخذ يد الفتاة بين يديه ، ثم جذبها اليه فضعها إلى صدره وقبل شعرها بله الجنو .

وكانت القبلة طاهراً فيها الاخاء حتى ان اليس ارتعشت لهذه القبلة الطاهرة وأكبرت مقام هذا الرجل الشريف ، فنظرت اليه نظرة تشف عن امتنان عظيم لا تصفه الأقلام .

فاستأنف بارداليان حديثه فقال :

انه يجبك يا سيدي حباً ليس بعده غاية لتقريب ، وهو لا يريد أن يعلم أمرارك ، وما خفي من أمرك ، فأنت توره ورجاؤه وحياته .

ولا تحسني انه صرح لي بهذا الحب ، بل ان كل كلمة من كلماته ، بل كل حركة من حركاته غرام تطلق جلي .

- لقد أحبيتني ، يا سيدي ، وحبذا لو أمكن لخطيبي النبيل ، ان لا يعلم شيئاً .

- قلت لك يا سيدي انه يجبك حب عبادة فلا تبالي بعد ذلك اذا عرف ما تريد من كتابه عنه أو لم يعرفه .

فارتعدت اليس وقالت : انك انت الوحيد الذي وضع بلسماً على جراح شقائي وكاد ينجي من اليأس .

اني استقبلتك كعدو لدود فاذا بك أخ صادق ، وانما عرفت حقيقة شقائي لأنك شعيت فيما أظن ، وفي كل حال فاني أريد أن أخبرك حقيقة حالي

لتعلم من أنا فاسمع .

فدعر بارداليان وقال : كلا يا سيدي دعني سر في طي الكتمان فلا احب أن أسمع شيئاً .

- أيها الصديق .

- نعم أنا صديق الكونت الذي يجبك وصديقك انت أيضاً ، وإذا كنت لا أدفع عنك حتى مني ، وأمنع هذه الكلمات أن تخرج من فمك ، فأية

انك تريدن أن تبوحني لي بسررك فتخفين شيئاً من عنائك هذه الإباحة ،
ولكنها راحة لا تدوم لحظة ثم بعد ذلك تأسفين .

ولا تنظري إلى الحاضر أيتها العزيزة بل إلى المستقبل .

ولو تركتك تبوحين بسررك الآن فانك بعد ان يتم هناؤك بزواج الكونت
وبعد ان يسفر ذيل النسبان على ماضيك تتدمين وتأسفين للإباحة بسررك
لرجل غريب .

فارتعشت ليس وقالت في نفسها : رياه أهو رجل وحيد الذي يعرف سر
حياتي .. كلا فقد عرف كثير من سر حياتي الذميمة .

ثم قالت لبارداليان : إذا لم يعد الكونت بعد إلى باريس ؟

- كلا ..

- ألم يدرك منه شيء ؟ ألا تعلم شيئاً مما يعمل ويظن .. نعم اني أضحي
حياتي .. كي أعلم ماذا يفكر الان .

- لم يدري شيء منه يا سيدتي ، ولكن جميع الناس يعلمون في باريس ان
ملكة النافار في بلوا ، وإنما تتداول مع ملك فرنسا ، ولا شك ان الكونت
موجود في بلوا منذ خمسة عشر يوماً .

فانقذت عينا ليس ببارق من السرور وقالت في نفسها : إن ملكة النافار
لو أظهرت أمرى لماريلياك لكان ألتني منذ عهد بعيد .

وعند ذلك زالت عن وجهها آثار الكتابة ، فجعلت تلاطف بارداليان ،
وهدت لورا فسألتهما إحضار الفاكهة والحلواء .

ولكن بارداليان لم يذوق شيئاً منها ، ورجع بدوره إلى الاضطراب ، فانه
كان قد نسي شقاه للاهتمام بشقاءه سواء ، ولما تمكن من تعزية تلك الفتاة رجع
إلى التفكير بشقائه .

فدالت له اليس : اعترف لي يا سيدي عنفي في استقبالك فقد كنت شبيهة
بالمجانين .

- لا تميدي هذه الأقوال يا سيدتي ، ودعيني أذكر منها فقط انك دعوتني
بصديق .

- نعم وأنت خير صديق بل أنت الصديق الوحيد .

- أفأذن لي أن أجا إلى هذه الصداقة التي شرفتي بها .

- بل أباركك وأشكرك ما حبيت .

- سيدتي اني قد اسألك قضاء مهمة خطيرة يعز عليك قضاؤها او تحتاجين
إلى توضيحات كثيرة .

- لا يعز علي قضاء شيء من حاجاتك مهما كانت التوضيحات .

ولقد تقدم لي القول انك ما عرفت شقائي إلا لأنك شقيت وقد كان كلامك
خير عزاء لي ورأيت ان الأخلاص اذا تجسم ما تمثل إلا بك فانك لم تفتنم فرصة
اضطرابي والوقوف على سرى ، ولو اتفق ذلك لسواك لعلم مني ما أقوله
وأخبر خطيبي بكل ما سمع .

ولكن المرأة متمتكة عن الوقوف على سرى واشفتت على مصابي دون أن
تعرف اسبابه وهي مروءة لا انساها ما دمت في قيد الحياة فقل أيا الصديق
ما تشاء فاني أضحي في سبيل خدمتك كل ما يمكن ان يضحي به .

- إذا فاعلمي يا سيدتي ، اني أنا أيضاً أحب ، ولكي تعلمي مقدار
سعي أقول لك ان التي أحبها قد نزلت من قلبي نفس منزلتك من قلب
صديقي الكونت .

والآن افترضي يا سيدتي ان خطيبك الكونت اسير عندي وانك اتيت إلي
تسأليني اطلاقه من الأسر .

اواه ، اني ارى من اضطرابك ما يداني انك فهمت مرادي .

اني لا أعلم السبب في سجن لوزا دي موغورانسي ولا أعلم السبب الذي

حل الدوق دامفيل على سجنها مع أمها عندك ولكني أسألك يا سيدتي سواي
واحد وهو ايريدن اطلاق الأسيرتين

فاضطربت أليس اضطراباً عظيماً وقالت : أحب لويزا دي مونفورانسي .
... نعم يا سيدتي

... ويح لنفسي ما أشد شقائي
... ماذا تقولين يا سيدتي .

... أقول اني أشقى امرأة في هذا الوجود .
... بربك يا سيدتي قولي ماذا اصاب لويزا ؟

... لم تصب بشيء ... ولكن
... ولكن ماذا .. انك تستطيعين ردها إلي ، أليس كذلك ؟

... ان لويزا وأمها ذهبتا من عندي
فوقع هذا التبا على بارداليان وقع الصواعق ، إذ كان رائفاً من ان ليس

تقول الحقيقة .
فقال لها بلهجة القنوط : كيف ذلك ؟

... انهما ذهبتا في اليوم التالي لليوم الذي جئت فيه إلي ، فانبأنتي بسفر
موريليناك لمقابلة ملكة النافار .

... ومن سار بهما هو الدوق دامفيل ؟ ان هذا السافل يخشيه . الآن ولكني
سأظفر به ، والويل له حين اللقاء .

... كلا يا شفالييه ، فليس الدوق الذي ذهب هما ، بل أنا اطلقت
سراحهما من نفسي .

فصاح بارداليان صيحة فرح قائلاً : إذا هما مطلقتا السراح .
... نعم ، واسمع يا سيدي كيف اطلقتهما ، فاني حين رأيت نفسي

مقضيماً علي ، وحين علمت ان خطيبي النبيل سيلغنتني بعد أن يقابل ملكة
النافار ، كبر علي ذلك المصائب حتى ممت بالانتحار لولا رجائي ان

اراه مرة قبل الموت .

وقد تمثل لي الدوق دامفيل وانه يضطهد امرأتين تعيستين لا ناصر لهما وهما
تستوجبان الرحمة والاشفاق وانه قد عهد إلي ان اسجنهما وانني كنت مضطرة

إلى الامتنال له لذلك السر الذي ابنت مروءتك ان تعلمه .
ولما أيقنت ان ماريليناك سيفترق عني إلى الأبد ، ولم أعد أخاف وشاية

الدوق دامفيل ، لاعتقادي ان تلك الوشاية التي بنفرتني بها قد أبلغتها ملكة
النافار لخطيبي صعدت إلى الأسيرتين ، وسألتهما المغو عما أسأت به إليهما

وأطلقت سراحهما .
وأسفاه أهما الصديق اني لولا هذه المروءة لكنت الآن خارجياً من

منازلي مع من تحب .
... إنك مخطئة يا سيدتي بتقدير هذا المصائب وكفاني ارتياحاً علمي بأن

الاسيرتين لم تعودا في قبضة ذلك المارشال الدنيء .. ولكن ألم تقولوا لك إلى
أبن ذهبتا .

... إنني كنت شديدة الاضطراب فلم أسألها ، وهب إنني سألتها فإنهما لا
تخبراني بشيء بعد ان كنت في عرفهما سجانة أئيمة .

... ألم تقولوا كلمة تشير إلى شيء .
... كلا ، وأسفاه .

وساد السمكوت هنيهة ، ثم عاد بارداليان إلى الحديث فقال :
... بقيت لي مسألة خاصة يا سيدتي ، وهي انك اجتمعت بهاتين السيدتين

الليس كذلك .
... مرتين أو ثلاثاً .

... ألم تسمعيهما ذكراً إسمي .
... كلا .

فمرت تحامة كشيقة على ناحية بارداليان واضطربت عيناه ، ثم تنهد وقال

وماذا يدعوها إلى التفكير في فانها نصتني بلا ريب من عهد بعيد ، ومع ذلك فهي هي التي استغاثت بي ودعتني إلى تجديتها يوم قبضوا علي .

ورأى بارداليان انه لم يبق له ما يعمل في منزل اليس فاستأذنها بالانصراف على ان يعود لزيارتها كلما سنحت له الفرصة .

ثم ودعها وانصرف .

ولما خرج من منزلها ذهب قرأ إلى لقاء أبيه في تلك الحجرة التي اتفقنا على اللقاء فيها .

وكان يسير مفكراً ، وهو مرتاح النفس لافلات حبيبة وامها من هنري .

ولبت سائراً حتى انتهى إلى قرب اللوفر . فرأى الجنود مصطفة والناس مزدحمين ..

فسأل أحد الواقفين فأخبره أن الملك رجع من بلوا إلى اللوفر .

وعند ذلك انتشرت إشاعة بين أولئك الجماهير ، ان الملك لا يمر بهذا الشارع ، وانه سيمر بشارع مونمارتر ، فأسرع الناس يتراكمون إلى ذلك الشارع .

وسار بارداليان إلى الحجرة للقاء أبيه .

وحدده افلاضديه
مونتندى الليلاس

العصيان

أما بارداليان الأكبر فانه كان قد ذهب إلى تلك الحجرة الجديدة ولقي فيها كاتي فاستقبلته استقبالا حافلا .

وتفقد بارداليان تلك الحانة الجديدة التي أنشئت بحاله فهنا كاتي بها .

ولما لم يكن له ما يشغله إلى ان يأتي ولده ، رأى ان يقتل الوقت بمعاونة المحر لتعوده الأعمال .

وطلب إلى كاتي ان تأتيه بزجاجة خمر ، وجعل يشرب وقد طار إلى ولده بأجنحة الخيال .

وفيما هو يشرب سمع قرع الطبول تدوي من بعيد ، فأصغى كي يعلم مصدر هذه الأصوات فعلم انها من شارع مونمارتر .

فنادى كاتي وسألها عن هذه الأصوات .

فأجابته : ان الملك عائد من بلوا إلى اللوفر ، ويقولون أن ملكة النفاس وابنها بصحبانه ، مع كثير من أسباده الموكينوت ، ونبله الكاثوليك .

- إذا كان ذلك فهو دليل سلم لا دليل حرب كما كانوا يتوقعون ، وفي كل حال إنني ذاهب لأمتع النظر بلباس الحراس وأسلحتهم وسباتي ولدي فليتنظرنني إلى ان أعود .

ثم تركها وذهب إلى شارع مونغارتر فرأى كثيراً من الناس مزدحمين عند باب منزل .

وهناك غلام بصيح بأعلى صوته قائلاً :

- أجرة الكرمي ريال ... إن من يقف فوقها يرى جلالة الملك والملكة كاترين ومركبتها الذهبية ، وأسباده دي كيز فوق جيسادهم ... أجرة الكرمي ريال .

وكان كلما دنا منه أحد المتفرجين وأعطاه ريالاً أخرج له كرسياً من ذلك المنزل ووقف عليه .

فاستأجر بارداليان كرسياً ، وجعل يسرح طرفه ، فرأى جماهير الناس مزدحمين في الشارع ، والرؤوس مطلة من النوافذ ، والكل يصيحون : ايجبي الملك ...

وكانت الأجراس تقرع في الكنائس ، وقد بدأت الجنود تتقدم أمام الموكب الملكي ، وهم يفرقون الناس قائلين : إفسعوا المجال لمرور الملك .

وكان الناس يتفرقون يميناً وشمالاً فيزيد انضمامهم ، كما تفتح الأمواج بمرور السفينة .

وبعد هؤلاء الجنود مرت فرقة حملة البنادق بإبداع نظام وتلتها فرقة الزماعة ثم ظهر حراس الملك بقودهم كوسيني .

وبعد ما مرت مركبة عظيمة كلها مذهبة وعليها ناج عظيم .

وكان يجرها اثنا عشر جواداً بقود زمام كل جواد منها حارس ضخم الحمة هائل الحلقة .

وكان الملك جالساً في هذه المركبة بشكل براء فيه جميع الناس وهو مرتد الملابس السوداء ، وكان أصفر الوجه ينظر إلى جماهير المهاتفين له نظرات تشفق عن القلق .

وكان على يساره في المركبة ملك النافار ، وهو يسير إلى الرجال بإشارات ودية ويديس للنساء بحيث تمكن من إخفاء مخاوفه .

وفي أثر تلك المركبة العظيمة مركبة مذهبة ، لا تقل رواء عن المركبة الملكية ، وكان فيها الملكة كاترين ويحانها ملكة النافار . وكانت الملكة كاترين طرفة الوجه ، لا تنقطع عن رد تحية الناس ، إلا لتبسم ملكة النافار .

وكان يظهر عليها في بعض الأحيان علائم فرح وحشي ، فتضغط على يد ملكة النافار ، مظهرة لها التودد وهي في الحقيقة فرحة لوقوفها أنها لا تنجو منها هذه المرة ، وتضغط على يدها لتتأكد من جواز حيلتها ، وأنها لا تزال في قبضة يدها .

أما ملكة النافار فكانت تفكر تلك الساعة بإبنها ، وتقول في نفسها : إنه مهما يكن من الأمر ، فقد ضمنت لولدي عرشه بتزويجه أخت ملك فرنسا .

ولكن قلبها كان يحدتها بمصاب عظيم سوف يحل بها ، ولا سيما حين تسمع الناس من حولها يصيحون :

- لتحيي الملكة كاترين حامية الكنيسة !

وكان الموكب الملكي يسير الهويناء بخرقاً صفوف الجماهير .

وقد مر بعد المركبتين اللتين تقدم وصقها الدوق دانجو أخو الملك ، وهو منبط جواداً وعلى يمينه الأميرال كوليني وهو يمشي بلحيته البيضاء وينظر إلى الجماهير نظرات السكينة والوقار .

وعلى اليسار الدوق دي الفسون ثم الدوق دي كيز وهو يتبسم للمعجبين به والمهاتفين له .

وزراءهم مركبات السيدات ثم جمهور من النبلاء والأمراء كالبرنس دي كونديه والدوق دامفيل وغيرهما من عظماء الكاثوليك والهو كينوت يمدق بكل

منهم حراسه .

وكان بارداليان مشرفاً على هذا المشهد من فوق كرسيه وهو ينظر إلى
الموكب من بعيد ويقول: لقد عرفنا كيف دخلوا إلى العاصمة ولكننا لا ندري
كيف يخرجون منها .

وكأنما هذا الكهل المتخلق باخلاق الثعالب قد أدرك غاية كارين ودعاها
ولكن منظر هذا الموكب كان يروق له ويسليه .

فلما مر هنري دي مونغورانسي وهو راكب جواده ، وبارداليان فوق
الكرسي التقى النظران ، فشم بارداليان شتماً قبيحاً ، وأوقف هنري جواده
وهو مرتعب منذ عرف ينظر إلى بارداليان ولا يصدق عينيه ، لاعتقاده انه
جثة أكلها البلي منذ عهد بعيد ، ثم يراه فجأة ينظر إليه متهكماً ، ويسم
إبتسام المازي .

أما بارداليان فقد رأى ان هنري قد عرفه ، وان جميع أعدائه ينظرون
إليه ، فقد كان يحوار هنري ثلاثة رجال أوقفوا جيادهم أيضاً منذ عرفين
كذعره ، وجعلوا ينظرون إلى ذلك الكهل ، وكلهم يعتقدون انه كان
من الأموات .

فقال أحدهم لرفيقه اليس هو الرجل الذي أحرقناه في الحارة .

وأجاب أحدهم : هو بعينه . وقد أحرقناه فيها مع الشفالييه دي
بارداليان .

وقال آخر : إننا تركناه رماداً وها هو الآن بعث حياً .

وكان هؤلاء المتحدثون من حاشية الدوق دانجو ، وهم كاليس ومورفر
ومونتجرون ، وجعلوا ينظرون إليه ، نظرات تختلف بين الرعب
والاندهال .

وأما بارداليان فإنه لم يخف هذه النظرات ولكنه خشي عاقبة اللقاء وهو
فره وحارل النزول عن كرسيه كي يتوارى بين الجماهير .

ولكن الزحام كان شديداً فلم يستطع المرور بحيث اضطر إلى البقاء واقفاً
فوق كرسيه .

وقبلا كان بارداليان يحاول عبثاً ان ينزل عن كرسيه لتفت الدوق دانجو
إلى حراسه فرأى بعضهم متوقفين عن السير فدنا منه كاليس وكله فأشار الدوق
إشارة إلى رئيس حراسه ، فسار الجميع يتبعون الموكب .

ولم يكن بارداليان وحده الواقف على كرسيه فقد كان يحيط به كثير من
الموائد والكراسي والناس وقوف عليها .

فهز كرسيه هزاً عنيفاً حتى سقطت فانسل بين الجمهور .

وقد بقي عليه ان يخرج من هذا الزحام فقد رآه ما أشار به الدوق إلى
رئيس حراسه وعلم انه المعنى بهذه الاشارة .

وعند ذلك جعل يفرق الناس بكوعيه ، فرأى عكس ما كان يتوقعه
وهو ان هؤلاء الناس بدلاً من ان يتفرقوا ويفسحوا له المجال كانوا يتدفقون
إلى جهته .

فلندفع بتياريهم إلى باب منزل يحاور المنزل الذي استأجر منه الكرسي
وأمسك بطريقة الباب .

وكان السبب في اندفاع الناس ان عشرين فارساً انفصلوا عن الموكب الملكي
وهجموا بجيادهم غير مكترئين لصباح الرجال والنساء .

فأيقن بارداليان انه المقصود بهذه الحملة وتحركت المطرقة بيده دون ان يريد
فرن صداها في داخل المنزل .

وقد رأى نفسه أمام عشرين فارساً في طليعتهم هنري دي مونغورانسي وعلى
يساره الفيكونت اسبرمونت وفي الجانب الأيمن مورفر ومونتجرون وكاليس وفي
الوسط فرسان الدوق دانجو .

ورقف بارداليان أمامهم غير هباب ورفع قبعته فقال : السلام على القنتة
السفاكين .

فضج الفرسان ضجيجاً منكراً ، ولكن أحدهم وهو رئيس حراس الدوق
دانجو أشار إليهم إشارة الأمر فسكتوا .

ودعا هذا الرئيس من بارداليان ، وقال له : أطلب اليك ان تسلمي
حسامك .

فضحك بارداليان ضحك الساخر وقال له : إذا كنت تريد حسامي
فتعال اخذه .

ثم جرد حسامه الطويل ، وقد اتقدت عيناه ببارق من نار ، فأمسك
رأس السيف إلى حدائه ، وجعل يصحك ضحك القانطين ، ويقول في
نفسه : لا بد لي من الدفاع حتى تنهب جسمي السيوف ، فذلك خير من
الموت في السجن .

وعند ذلك قال مونتجرون :

- إن جلد السيد بارداليان غليظ لا تنضجه النار ، لقد كنا نحسب اننا
شويناه في تلك الحجارة .

فضحك الجميع كأنهم شاموا تعذبه قبل قتله .

أما بارداليان فإنه أجاب قائلاً :

- ولكن جسمك سريع النضج يا سيدي ، فقد قوت وجهك بالزيت كما
أقلى السمك .

فصاح مونتجرون قائلاً : اقتلوا هذا الوقح .

فاعترضهم هنري مونغوراني قائلاً :

- وأنا لي أيها السادة ما أقوله أيضاً ، لأن هذا الرجل حمار متلبس
بجلد أسد ، ولا شك . إن هذا اللص قد فتح خزائني ، وسرق منها
هذه الملابس .

فأجاب بارداليان قائلاً :

لقد أخطأت التعبير أيها الدوق فأنت الحمار وأنا الأسد ، ودليل ذلك إني

بحثت في منزلك عن قفاز البسة فلم أجده ما يوافق يدي حتى ذلك القفاز الذي
لا يزال موجوداً على باب قصرك الفخم .
- تبا لك من كلب دنس .

- تمن فيما تقول يا حضرة الدوق فهل أنا كلب أو أسد أو حمار ؟

- سأخرف صدرك بهذا الخنجر .

- لقد كنت أحسب ان سلاحك السيف أي سلاح الأشراف فإذا به الخنجر
وهو سلاح الخدم وقطاع الطرق .

فرجم رئيس الحراس إلى مخاطبة بارداليان فقال له :

- هاك حسامك باسم الملك .

- أين تريد يا سيدي ان أضعه أفي قلبك أم في بطنك .

فقال هنري : كفى ولنفرغ من شأن هذا الرجل .

وقد مرت هذه الحادثة بأقصر من رقت قراتها .

وكان الفرسان في خلالها ينضمون ويقربون حتى القوا نصف دائرة حول
بارداليان وهو مستند إلى باب المنزل .

فلما صدر أمر هنري جرد الجميع سيوفهم ، فأمرهم بالهجوم ولكن مورفر
اعترضهم قائلاً :

- إن هذا الرجل غلاماً يدعى الشفالييه بارداليان تجاسر على إهانة جلالة
الملك في نفس قاعة ، فلنأخذه حياً كي نكرمه بالتعذيب على إرشادة إلى
مكان ولده .

فاتقدت عينا هنري واستحسن الرأي لأن الشفالييه بارداليان كان وافقاً
على مؤامره أيضاً ، وقال :

نعم لنأخذه حياً كي نعلم مكان ولده .

وعند ذلك سمع صوت دوي بين تلك الجموع كالرعد القاصف وقال : هوذا
الذي تبشون عنه .

وكانت لحظة هائلة عمت فيها الفوضى بين اولئك الفرسان ، فإن أحدهم سقط على الارض قتيلًا ، وامتنطى جواده رجلاً سواه ، كان يتسم ابتسام المتبهك ، وعيناه تنقدان انقصاد الالهيب ، وقد ظهرت على وجهه الجرأة النادرة .

فلكز بطن الجواد الذي استولى عليه لكزة عنيفة ، مزقت جلده ، وضربه على رأسه ضربة شديدة . . . فصهل الجواد سهيلاً يدل على الألم ، واندفع اندفاع الصواعق بين الفرسان ، فاضطروا إلى التراجع مندعرين .

أما بارداليان الأكبر ، فإنه صاح صيحة فرح متمزج بالحنس والقلق ، وقال : ولدي ! . . .

فأجاب ولده قائلاً : نعم أنا هو ، تجلد .

ولقد تركنا الشفالييه بارداليان وقد برح مسنزل اليس ، وذهب إلى شارع اللوفر ، فعلم بقدم الملك من ازدحام الناس . وسار لمقابلة أبيه في خارة كاتي كما اتفقا .

فوصل إلى شارع مونمارتر ، إذ لم يكن له بد من المرور بهذا الشارع .

فرأى الموكب سافراً والناس مزدحمين فعول على ان يجيد عن طريقهم ويذهب في شارع آخر .

ولكنه رأى مورفر ورفاقه مندفعين إلى باب منزل بقوة مسلحة .

وكان أول ما خطر له ان يجيد عن طريقهم كي لا يروه ، وان يسرع إلى الشارع الآخر .

وبدأ بالانسحاب ، غير انه سمع للقور صوت أبيه ، فاندفع لتجدت

اندفاع السهم .

وكان الناس قد هربوا ووقفوا بعيداً يشفرون فضلت الكراسي والموائد

فصارت شبه حائل بين بارداليان والهاجين عليه .

وكان الشفالييه بارداليان قد انضم إلى أبيه ، ورجع الحراس إلى الانضمام ، فقال رئيسهم مخاطباً الأب وابنه :

- إني أطلب اليك التسليم باسم الملك ألا تسلمون .

فأجاب الشفالييه يهدوء كلاً .

- إذا أنتم من العصاة .

- نعم . . .

فصاح الرئيس عند ذلك بحراسه قائلاً : إذا تقدموا واقبضوا على هذين المتعدين .

فهجم الحراس واتباع الدوق داجو بسيفهم على الأب وابنه وهم عازمون على القبض عليهما ميتين أو حين .

فعلم الشفالييه ان الساعة قد دنت وعزم على ان يقاتل قتال يأس وان يرجع إلى الخطة التي بدأ بها لما رآه من فوزها .

ولكز بطن جواده لكزة شديدة هائلة ، ولكن الجواد لم يندفع كما اندفع في المرة الأولى .

بل صاح صيحة ألم وسقط صريعاً على الأرض .

فوثب بارداليان الأصغر عن ظهره مسرعاً وحسامه مشهور بيده ولكنه كان محصوراً بين كتيب وقد بلغ عدد محاصريه خمسة عشر فارساً .

وكان السبب في موت جواد بارداليان انه حين قدم لتجدد أبيه فقتل الفارس واستولى على جواده كما تقدم رجل مورفر عن جواده حين عرفه واستل خنجره ووقف يراقب بارداليان .

إلى ان أصدر رئيس الحراس أمره بالهجوم ، فكانت مورفر أول الهاجين .

ولكنه لم يهجم على بارداليان بل هجم على جواده وطمعته بخنجره طمعت

كانت القاضية عليه وهذا هو السبب في سقوط الجواد .

فلما وثب عن جواده سمع ابيه يقول له : تعال الي .
فالتفت فراه قد جعل الموائد والكراسي متاريساً ، ووقف وراءها
عند باب المنزل .

وأمرع بارداليان إلى موقف أبيه وقد لمت عيناه ببسارق من الرجاء ،
فأقبل أبوه بعد قدومه ذلك العمر الذي كان قد تركه مفتوحاً لدخول إبنته
فأصبح الاثنان داخل حصن مؤقت يستطيعان الدفاع فيه دقيقتين أو ثلاثاً .
وقد تبادل الأب والابن نظرة وداع أخير إذ لم يتسع لها الوقت للمصافحة
والعناق .

وكان هنري دي مونورانسي قد ابتعد في البدء حين أهانه بارداليان الأكبر
ثم اقترب بعد ذلك وهو خائف أن يفلت هذان الرجلان فيدفعه الحقد الى
رغبة موتها وقدفعه ظواهر بسالتها إلى الإعجاب .

وزحفت الجياد متضامنة ، ولكنها لم تكذب تدنو خطوة حتى تنزع
منذرة ، لأن بارداليان وابنته كانا يخزان صدورهما بسيفيهما من خلال منفرجات
الكراسي والموائد .

ورأى قائدالحرس أن طريقة هجومه لم تفلح فأوقف القتال
وسأل بارداليان ولدة قائلاً : هل أنت جريح .

- كلا ، وأنت .

- لم أرح بعد فلنمت موت الأبطال يا بني .

فأجابه ببرود قائلاً : بل لنجته أن لا نموت .

أما القائد فإنه بعد أن أمر حراسه بإيقاف الهجوم أمرهم بالترجل عن
جيادهم ، وهو يقول في نفسه يمز علي والله أن أقتل هذين البطلين فلاقبض
عليهما عسماً ينجوان .

وبعد أن ترجل الفرسان أحسدقوا بالأب وابنته من كل جانب والسيوف
مشهرة في أيديهم .

وسألها القائد التسليم .

ولكنها أشارا إشارة الإباء ، فهز القائد كتفيه وأمر جنوده بالهجوم .

فهموا جميعهم هجوماً واحداً ، وكانت السيوف تنهد من منفرجات
الكراسي والموائد مثل السنة النار .

فامتد لحظة حتى قتل أربعة من المهاجمين وتكسرت سيوف كثيرين ،
وصبح البطلان بلون أحمر ، فإن كليهما جرحاً في الرأس والصدر والذراعين .
ثم استأنف الهجوم فسقط بارداليان الأكبر جاثياً على ركبتيه وهو يقول
استودعك الله يا بني

واستند بارداليان على الجدار كي لا يسقط ، وهو يقول : الوداع يا أبي .
وقال رئيس الحراس وقد أدمعت عيناه لبسالة البطلين : سلما أخلصكما من
جريمة العصيان .

فأجابه الشفالييه قائلاً : أشكرك يا حضرة الرئيس فإني أموت وأنا أرى
شرفاً إلاك بين هؤلاء الأسافل . جدد الهجوم علينا فإننا لانتسلم .

- يمز علي أيها الباسل أن أجذك في هذا الموقف ، ولكن لا بد لي من
قضاء واجباتي .

ثم أمر الجند أن يزيحوا الكراسي والموائد .

فهموا جميعهم هجوم الوحوش الضارية على الكراسي فأزاحوها جميعها
بحيث لم يبق حائل بينهم وبين البطلين .

وضحك بارداليان الأكبر وقال : لقد بدأت النهاية وطعن بسيفه الطويل
ثلاث طعنات أصابت ثلاث صدور .

وفعل إبنته مثل فعله ثم طبقت السيوف عليه من كل جانب وصويت
رؤوسها إلى صدره فأطبق عينيه قائلاً : الوداع يا لوزا .

ولم تكن إلا لحظة حتى فتح عينيه استقبالا للموت ، ولبت جامداً باهتاً
وقد أصيب باندهال لا تتصوره العقول ، إذ حسب نفسه ميتاً وأن روحه

هائفة ، أو أن الروح تخرج في صدره ، وقد آراه الحبال حلماً يعذبه في الحداره
إلى هوة الأبد وهذا الذي رآه .

انه رأى السيوف التي كانت على قيد قبضة من صدره قد انخفضت ورأى
أولئك المهاجرين قد ارتدوا مندهلين وفتحوا مراً إلى هنري دي مونورانسى .
ورأى في هذا المرء امرأة متشعبة بلباس السواد تسير إلى هنري ببطء
وجلال .

فصاح قائلاً : ذات الثقب الأسود .

وقد فتح باب ذلك المنزل الذي كان يدافع عنده البطلان وخرجت حنة
منه فقدمت إلى هنري ووقفت ابتها لوزا في الباب ، وقد أدهش جمالها
الأبصار فنظرت إلى بارداليان الفتى نظرة رعب وإعجاب .

فلما رآها ركع على تلك الأرض المصبوغة بدمه فسالت من عيني الفتاة
دمعتان ونظرت إليه بخجل لا يوصف .

وقال بارداليان : لأمت الآن بسلام وعزائي أنها تحبني .

ثم سقط مغيباً عليه .

وأما حنة أمها فقد تقدمت إلى هنري ، وهي تحترق السيوف ، وتسير
بين الجرحى ، وهتت الجند لما رأوه من جلالها وتوقفوا عن طعن بارداليان
لظهورها الفجائي .

ثم انقلب هذا الدهول إلى احترام شديد ، وقد أيقن الجميع من حدوث
شيء غريب ، ولم يحسر أحد على طعن بارداليان الذي كانت تحميه تلك
الحورية بنظراتها .

ومشت حنة حتى وقفت على قيد خطوتين من هنري .

وكان هنري يراهسا ماشية إليه كما يرى خيالاً في الحلم ، وقد هتت
لرؤياها وجعل ينتظرها وهو لا يعلم ما يصنع

أما حنة فلإنها نظرت إلى هنري نظرة سحقته وقالت له :

- إني أتولى هذين البطلين بجهايتي ، فإن أحدهما أرجع لي أبنيتي التي
سرقته مني ، والثاني ولده .

وإن امتناني لهما يا سيدي الدوق لا يقف عند حد ، وقد قلت إني أريد
حمايتهم وأسألك أن تأذن لي بهما وتتنازل عن حق أسرها ، فهل تأذن بذلك
أم تريد أن أوضح لجميع الناس سبب امتناني هذين البطلين ..

قل أريد أن أتكلم ..

ثم مدت يدها مشيرة إلى بارداليان وأبيه كأنها تنتظر إشارته لتتكلم ..
فتارت العواصف في صدر هنري ونظر إلى الحراس وتدعاهم الدوق داجو
فراهم ينظرون إليه وهم مندهلون .

ثم نظر إلى حنة فنكس بصره ولم يستطع لقاء نظراتها وشعر انه مغلوب
على أمره وقال لها :

- ان الأسيرين لك يا سيدي فخذهما .

فنظرت عندها إلى رئيس الحراس وقالت له : إنك جئت إلى هنا مهمة .

- نعم يا سيدي ، ومهمتي أن أقبض على هذين الرجلين باسم الملك .

- إني أدعى ، يا سيدي حنة كونتس دي بيانس ودوقة دي مونورانسى .

فانحى رئيس الحراس بجل الاحترام .

ولابعت : وأنا أضمن هذين الأسيرين وهما عندي على عهدتي .

- إذا كان ذلك يا سيدي فقد تخليت عنها ومعاذ الله ان أشك بكلام

فبيلة مثلك ، ولكني أشترط أن لا يبرح الأسيران هذا المنزل .

- انها لا يبرحاه .

- وأنا أمثل يا سيدي ، وأضيف إلى ذلك اني أعد نفسي سعيداً بهذا

الاتفاق ، فإن هذين البطلين من أبسل الرجال .

فانحنت حنة أمامه ورجعت إلى الجرحى الذين كانوا ينظرون إلى ما حدث

وبيدلان جهداً عنيفاً كي ينهضوا فلا يستطيعان .

وحده قاصديه

- ١٥ -

الماسة

ولنيسط الآن إلى القراء كيف ان لويزا وامها تقبان في هذا المنزل في شارع مونغارتر وكيف انها خرجتا منه لوقاية بارداليان وأبيه فنقول : كانت الأم وبناتها حزيفتين خلال اقامتها في منزل اليس دي ليكس . وكانت اليس راقبها وهي خجلة خزيانة قانطة حتى انتهى الأمر بحنة وبناتها على الاشفاق عليها . وتعاقت الأيام والليالي على الأسيرتين وهما لا تبرحان الغرفة ، حتى انتهكت صحة حنة ، وظهر عليها الضعف والهزل ، فلم تكن تعيش إلا لحماة بنتها . وكان أقصى امانها ان تضع بنتها في ملجأ امين ثم عوت بسلام .

وقد كان لها رجاء وحيد ، وهو ان كتاتها سيصل الى المارشال فرنسوا فينقذ بنته .

ولم يكن لديها شك في أن الكتاب قد وصل اليه ، لاسيا وانها قد سألت اليس دي ليكس ، إذا كان المارشال فرنسوا دي مونمورانس في باريس فأجابتها بالايجاب .

فسايفت أن الكتاب وصل اليه ، وانه لم يسرع الى مجدها لأنه تغلى عنها ولأنه لم يعتقد انها بريئة مما اتهمها به أخوه .

(١٥) بارداليان (٢٤)

قدنت من بارداليان الأكبر وقالت له بصوت حنون : - أريد يا سيدي ان تدخل إلى منزلي فلتسريح .

فاضطرب بارداليان الأكبر اضطراباً شديداً واستعان بها فدخلا إلى المنزل وفعلت لويزا فعل أمها ، فمدت يدها إلى بارداليان الأصغر وقالت له وهي تبسم : تشجع يا سيدي واسمح لي أن أعينك على الدخول .

فأحهد بارداليان نفسه ووقف والدماه تسيل من جراحه فاستند إلى ذراعيها ودخل ..

وعند ذلك أقفل الباب وقوارى الجميع عن الأنظار .

والثفت هنري إلى رئيس الحرس وقال له : يجب ان تعين عشرين جندياً لحراسة هذا المنزل واعلم إنك المسؤول بنفسك عن الأسيرين والأسيرتين . فأجابه الرئيس بلهجة المستكبر : سأفعل ما يجب فعله يا حضرة الدوق .

- إفعل إذاً ولا تتخددع بألقاب هذه السيدة فهي القاب زور .

فأمر الرئيس عند ذلك بنقل الجرحى والغتلى ، وأوقف عشرين جندياً لحراسة المنزل في الليل والنهار .. وتفرق الجميع .

منتتلى
البيلايس

وقد كان خطر لها أن فرنسوا يبحث عنها ولم يجدها ، ولكنها كانت
تتهم أخاه تهما ظاهرة جليلة ، فلو كان فرنسوا واثقا من براتها ويريد انقاذها
لشكا أخاه الى الملك فأرغمه على رد الأسيرتين .

وأما لوزا فانها حين علمت أن والد الشغالييه بارداليان قد اختطفها وهي
صغيرة جعلت تحاول نسيان ذلك الشغالييه الذي أحبته .
ولبثتا على ذلك الى ان جاءتهما اليس يوما فوفقت امام حنة وقالت لها
بلهجة حزن تدعو إلى الاشفاق .

لم يكن لي يد يا سيدتي في اسركا ، ولا بد ان تعترفا بأنني لم اسمي معاملتكا
مدة اقامتك عندي .
فأجابتها حنة قائلة اني لا انكر ذلك ، وما شكوت من معاملتك
قبل الآن .

- وقد اتفق لي يا سيدتي حادثة سيئة في حياتي اكرهتها على الرض
بأن أكون سجانة ، ولذلك ارجو حين يطلق سراحكما ان لا تحمدا علي
وان لا تلعناني .

فهزت حنة رأسها وقالت بلهجة اليأس : كيف يطلق سراحنا ومن لنا
بالخلاص من هذا الأسر .
- لقد اطلق سراحكما يا سيدتي .

فارتعشت حنة سرورا واصفر وجه لوزا .
ومضت اليس في حديثها فقالت :

نعم لقد اطلق سراحكما يا سيدتي ، فان تلك الحادثة التي كانت تكرهني
على قبول سجنكما عندي قد ذهبت اسبابها ، فاذهبيا يا سيدتي فإن الأبواب
مفتوحة ولا يمرضكما أحد ، واذا خطرت في بالكما فلا تحمدا علي ، بل
اذكراني بالاشفاق .

ثم تركتهما وانصرفت فلبثت حنة وبنتها عنيبه واجتنتين ، ثم تعانقتا وهما
تبهكان سرورا .

وعند ذلك خطر لحنة ان لا مال لديها ، وانها لا تستطيع العودة إلى منزلها
حذرا من ان تقع أيضا في قبضة هنري .

وقد شعرت تلك المنكودة انها لم يقب لها قوتها السابقة على العمل ، فان
الحزن والأسر قد انهكا قواها ، فرأت انها قد التجأت من يأس إلى يأس ،
وخرجت من هوة إلى هوة ، ولم تلتفت من جميع ذلك إلا انها تجت من قبضة
هنري دي مونجورالسي فقالت رباة ماذا نصنع .

وكأنما لوزا كانت تقرأ افكارها فأجابتها قائلة .
انك كنت تشغلين لاعالي واعالتك في أيام حدانتي ، وقد جاء الآن
دوري فلا تقنطي يا اماء ، ولا تخشي النفقات الأولى ، إذ لا تزال لدينا تلك
المائة الجميلة التي اريتني اياها مرارا .

- إذا اسمعي حديث هذه الماسة يا ابنتي ، فان لها قصة وهي انهم
حين خطفوك مني جعلت ابكي واحدو كالمجانين ، وانا أحسب انهم انزعوا
قلبي من صدري .

الى ان جاءني ذلك الرجل وردك الي ، فكان يبكي حزنا ولا انسى
نظرات حنوه .

ثم تركني وتوارى عن الانظار ، ولكن هبته لا تزال راسغة في ذهني ،
وقد باركتك كالعنث بارداليان الذي خطفك .
وعند ذلك حملتك بين ذراعي وسرت بك في الغابات الى باريس .

وفيا أنا سائرة بك وليس لدي درهم كما أنا الآن ، أدركتني فارس في تلك
الغابة وعلم اني مسافرة من غير مال ، فوضع على صدرك هذه الماسة ، وكانت
هذا الفارس يا لوزا نفس الرجل الذي ردك إلي .
- نعم نعم لقد قلت لي بذلك يا اماء .

- وقد مرت بي أيام عسر شديدة ، فلم ابع تلك الماسة ، وكنت احفظها
تذكراً لمروءة هذا الرجل الذي لم أعرف اسمه ، ولذلك لا أجد بداً من
الاحتفاظ بها يا ابنتي فانها أجل تذكاري عندي .
- لقد أصبت يا أماء .

- ثم إنني أحب أن احتفظ بهذا التذكاري الجميل ، إذ قد يكون السبب يوماً
في معرفتك صاحبه ، إذا لم أكن باقية في قيد الحياة .

لا تضطربي يا ابنتي فاني أرجو أن أعيش بقربك عمراً طويلاً ، ولكن
إذا اتفق لي أن أموت قبل الأوان ، فان هذه الماسة تنفعك ، فأما تعرفين
بها هذا الرجل الكريم الأخلاق ، فيكون لك خير عون ، وأما قبيلتها إذا
احتجت الي ثمنها . . إذن لنحفظها وهم بنا يا لوزيا نذهب من هذا البيت .
وعند ذلك عادت اليها اليس دي ليكس فقالت :

اسألك العفو يا سيدتي فقد سمعت كل حديثكما لأنني تعودت لتكلم طالعي ،
ان اسمع الأحاديث من وراء الأبواب .

وقد سألت دمعنة من عين اليس ، ولكن حنة نظرت اليها نظرة رعب
بعد قولها انها تعودت السماع من وراء الأبواب ، فلا يتعود هذه العادة القبيحة
غير الجواسيس .

أما اليس فقد مضت في حديثها فقالت :

ومهما يكن من الأمر يا سيدتي ، فقد سمعت الحديث وعلمت انك لا مال
لك واثا غنية بل اني عظيمة الثروة ، ولي منازل كثيرة في باريس فهل تقبلين
ان تقيمي في احداهما .

فظهرت علائم التردد على حنة ، فاختلفت اليس وقالت : ويسع
لي ما أشد شغائني اتحسين يا سيدتي اني أكيد لك أن اوافئك من سجن
الي سجن .

فأجابتها حنة : كلا يا سيدتي ومماذا الله ان يكون خطر لي هذا

الخطر ، فقد وثقت انك ضحيت تضحيات كثيرة في سبيل انقاذنا
وبانت ثقتي بك قامة .

قالت : إذا كان ذلك واردت ان أكون مدينة لك بجميل ، فأذني لي
ان اصنع صنماً جميلاً ، وقد أبيت أن تقبلي الاقامة في أحد منازلنا فاقبلي مني
هذا على الأقل .

وعند ذلك وضعت على المائدة كيساً يحتوي على نحو مائة دينار .
فاجر وجه حنة وأدارت لوزيا وجهها كي لا ترى .

وركعت اليس فقالت بصوت خافت : أرجو ان تقبلي يا سيدتي هذه
الدرهمات من امرأة مشرفة على الموت .

اني قد أسأت اليكما يا سيدتي اساءة عظيمة بقبولي أن اتولى
سجنتكما ، فإذا لم تقبلي مني هذه المساعدة البسيطة ابغنت انك لم تصفحي
عن ذنبي .

فقبلت حنة مساعدتها وخرجت من ذلك المنزل وهي مشفقة غاية
الاشفاق على اليس .

وجعلتا تبعثان عن منزل حتى وجدتا منزلاً في شارع مونمارتر فاستأجراه
وأقامتا فيه .

وبينا كانتا جالستين ذات يوم تتحدثان سمعتا ضجيجاً في الخارج ، ففتحت
حنة النافذة واطلقت منها ، فعلمت أن الشعب يحتفل بقدم الملك .
فأسرعت الي اقفال النوافذ كلها كي لا يراها أحد .

ومر على ذلك عدة ساعات والأم جالسة بقرب بنتها الي أن سمعتا فرج
باب المنزل ، قارتعت حنة وقالت : من عسى أن يكون هذا الطارق .

فأجابتها بنتها قائلة : ان اليد التي قرعت الباب كانت ترنجف ، ولا ريب
ان الطارق يطلب للتجدة .

ويذكر القراء أن بارديان الأكبر حين كان مستنداً الي الباب وممسكاً

بيده مطرقة ، افلت المطرقة فخرج الباب دون ان يري .

أما حنة فانها فتحت النافذة كي ترى ماذا حدث ، فوقفت جامدة حائرة
اذ سمعت الناس يذكرون اسم بارداليان بالشم والتقييح والوعيد .
فاسرعت لويزا الى النافذة حين سمعت اسم بارداليان ، ووقفت فيها
بشكل ترى الناس ولا يرونها .

أما أمها فانها حين سمعت اسم بارداليان قالت : هوذا الذي خطف
ابنتي ورماني بهذه التكبية ، وهوذا الجنود مطبقون عليه العمل الله يري
عقابه بما اجرتهم .
ثم نظرت من النافذة فسكان أول من رآته هنري دي مونغوراسي فقالت :
هذا هو .

وقالت لويزا هوذا الشغالييه دي بارداليان .

فقالت أمها : أخاف يا ابنتي ان يكون هذا الشقي بارداليان قد
عرف اننا في هذا المنزل ، فأخبر مولاه هنري . ولكن ما بالك يا لويزا
ولماذا تبكين ؟

قالت أمها يجب ان تنقذه .. انهم إذا قتلوه أموت .

— من الذي يريد ان يقتله يا ابنتي . هودي إلى هناك ، أبنعتك
الانسان اعداءه .

... إني واثقة يا أمها انه ليس من اعداءنا ، وانه من خير المخلصين .

... ولكن عن تتكلمين ؟

— تعالي يا أمها وانظري . انظري إلى الجهة اليسرى عند الباب .
فاطلت حنة من النافذة غير خائفة ان يراها هنري ، فرأت الشغالييه
بارداليان وعلت ما يحول في قلب بنتها وسبب بكائها

ولكن نظرهما لم يستقر غير لحظة على بارداليان الأصغر .

ثم نظرت إلى أبيه بجانبه ، فعرفت انه ذلك الرجل الذي رد اليها بنتها

وأعطاهما المساسة ، ذلك الرجل الذي كانت مدينة له بجمعيل ابدي وهي
لا تعرفه .

فارتدت عند ذلك من النافذة ووازت بسرعة النصور بين جميل هذا
الرجل عليها ، وبين ذعرها من هنري ، فعزمت لغورها على انقاذ هذا الرجل
الذي يحاولون قتله وهو المحسن اليها ، فأخذت بيد ابنتها وقالت لها اتبعيني .

والتت معها ففتحت الباب ومشت إلى هنري دي مونغوراسي ، فكلمته
وقد عرف القراء ما حدث .

فما دخلت حنة وبقتها ببارداليان وابنه أحسكت حنة اقفال الباب ، وكان
أول اهتمامها بضمد جراح البطلين .

ولم يكن واحد منها قد اصيب بجرح خطر ، ولكن الأضعف الذي تولاها
لما كان لشدة ما نزل من دماغها .

فكان الأب ينظر إلى لويزا نظرات حنو ويقول في نفسه : والله لقد أصاب
ولدي في هذا القرام ، وإني أود ان اجرح كل يوم على أن تضمد جراحي هذه
الحسناء كما تضمد جراح ولدي .

وكان ولده يتناجي نفسه حين كانت لويزا تضمد جراحه فيقول : لا ريب
إني قد انتقلت إلى الفردوس .

وكانت الأم تضمد جراح الأب واليبت تضمد جراح الولد .

فلما تم ضمد الجراح وقف بارداليان الأكبر فالتحنى أمام حنة وقال :

الشرف يا سيدتي ان اقدم لك ولدي الشغالييه دي بارداليان ، وانت
اقدم لك نفسي وأه هنري دي بارداليان من تلك الأميرة التي عرفت بفقرها
وعظيم اعمالها .

نعم يا سيدتي اننا من الفقراء ، ولكن لنا قلوباً إذا دخلها الامتنان
لا يخرج منها إلا بها ، فنحن نضع في خدمتك هذين القليلين فانك انتقدتنا من
موت عمم

فأجابته حنة قائلة :
بل أنا مديونة لك يا سيدي بالجميل .
- لم أفهم يا سيدي ما تقولين .

- كيف ذلك ألم تعرفني ؟ وإذا كنت لم تعرفني ألم تعرف تلك الماسة التي
وضعتها فوق صدر بنتي في تلك الليلة الهائلة التي لقبيني فيها ثمة في الغابات
قرب مونغورانسى .
- إني عرفتك يا سيدي حق العرفان ، ولكني لم أفهم كيف تكونين
مدينة لي بالجميل ، في حين انه كان يجب ان تكرهيني أشد الكره .

- كيف يكون ذلك يا سيدي ، وأنت الذي رددت إلي ابنتي وقيدتي
بجيبيل لا انساء ما حبيت . . . وقد ذهلت الآن لما تقول بعد ان عرفت اسمك
فانك حين رددت إلي ابنتي وسألتك عن اسم الذي اختطفها قلت لي انه
يدعى بارداليان .
- هو ذلك واني موضح لك الحقيقة يا سيدي ، على ما استشاء من انك
ستعودين إلي اعني كما لعنتي أول مرة .

فاعلم يا سيدي اني انا هو الذي اختطف الطفلة امتثالاً لأمر ميري
دي مونغورانسى ، وان الرجل الذي رد اليك طفلتك والرجل الذي اختطفها
هما واحد أي أنا .
نعم يا سيدي أنا هو الذي ارتكبت ذلك الاثم المنكر ، وهو الذنب
الوحيد الذي ارتكبته في حياتي .
ومما زال ضميري يقرعني حتى رددت اليك بنتك ، بالرغم عن هوى
فارتحمت بعض الارتياح .

ومع ذلك فاني لا أزال أعتقد اني استحق منك كل كره ، فالسبي
يا سيدي كما لعنتيني من قبل ، فان احسانني برد بنتك لا يوازي اسأني
باختطافها .

فالتفت حنة إلى بنتها وقالت لها :
لويزا . . هذا هو الرجل الكوريم الذي لم يكثرث لغضب هنري الهائل في
سبيل ردك إلى أمك واني أبارك تلك الساعة التي تمكنت فيها من شكره .
فأسرعت لويزا إليه وصافحته وشكرته وقدمت له جبينها .
فلثم بارداليان الأكبر ذلك الجبين النقي وتأثر قائلاً لم يشعر بمثله في حياته .
وقال لها
اني أدعو لك الله يا ابنتي ، ولو كانت حياتي تضمن لك السعادة لضحيبتا
لجودي في سبيل سعادتك .

فاخذت حنة عند ذلك خاتم الماس فوضعت في اصبع بنتها وقالت :
لقد أقسمت أن لا يفارقتي هذا الخاتم وستبر ابنتي بهذا البمين .
فقطرت لويزا عند ذلك إلى الشفالييه بارداليان واصفر وجهها كأنما كان
هذا الخاتم خاتم عقد الخطبة بينهما .



وحده
قاضييه
مفتدي
اليلاس

وبعد ان فرغوا من هذه الأحاديث سألت حنة بارداليان الأصغر ، إذا
كان قد أوصل كتابها إلى المارشال فرنسوا دي مونغورانسى .
فأخبرها الشفالييه عند ذلك ، كيف انهم قبضوا عليه وكيف كان خروجه
من الباستيل .

فكانت لويزا مصفية إليه تسمع قصته وهي تخال انها تسمع قصة بطول من
أبطال شارلمان .

ومضى بارداليان في حديثه إلى ان اخبرها كيف انه أعطى رسالتها إلى
المارشال فرنسوا .

فالتت له حنة بلهجة قنوط : إذن هو يعتقد اني اثيمة بدليل انه لم
يعمر لاقادي .

فابتسم بارداليان وقال لها : اني أسألك يا سيدتي مهلة ثلاثة أيام لأروي لك نهاية قصتي .

فسأقضي من هذه المهلة يومين في معالجة الحدوش التي اصابنتني ، ويوما لفضاء مهلة تملين بعدها كيف ان المارشال تلقى كتابك .

فاني أظن انه لا يجب علي ان اخبرك كيف كان استقباله لهذا الكتاب ومهما يكن من ايهام كلام بارداليان فان حنة تلقت كلامه بالرجاء والارتياح فاحمر وجهها وقالت بصوت منخفض لم يسمعه أحد .

« فرسوا » ان دقيقة من فرح لقياك تنسيني ما لقيته في عشرين عاماً من مرارة العيش .

وبعد ذلك أخذت الفتاة وأما تهتان باعداد فراشين للجرمين .

وفي الليل نام الجميع ما عدا بارداليان الأكبر ، فقد كان من عادته انه لا يدخل منزلاً ويبيت فيه الا بعد ان يفحصه ويعلم مداخله ومخارجه .

وقد بدأ يفحصه بفنح نافذة الفرقة المقيم فيها ، وأطل منها فرأى عشرين جندياً بقيادة ضابط محققين بالمنزل .

وقد اشعلوا المشاعل وطام معظمهم متشعنين بأرديتهم ، ما خلا أربعة منهم كانوا واقفين عند الباب متكئين على بنادقهم ، واثنين كذا يسيران جيئة وذهاباً .

فأقبل النافذة وقد أبقن انه مع ولده من الهالكين ، فأنها كذا أسيرين بضايعة حنة دي بيانس ، فلا سبيل الى الحرب ولو فتحت لهم أبواب النجاة .

خلاقاً لولده الشغالييه ، فقد كان نسي انه أسير لا نجاة له وطام مله جفنيه .

فتنظر أبوه اليه نظرة اشفاق وقال :

— حيف على الشباب الغض ان تغنيه السجون ، ويا ليتنا قتلنا في تلك

المرحاض فاسي أخشى ان يكون النجاة الى هذا المنزل بدء شقاننا . اواء يا وادي العزيز كم تصعبت ان تحذر النساء وتحشى الحب ، ولكنك خلقت لا تعرف الحذر والخوف .

ولقد صدق بارداليان فان موقفها الآن بات أشد حرجاً من موقفها السابق فانها سيديان سجينين في المنزل ، الى أن يروق لقائد الحرس فيسوقها الى سجن الباسنيل دون ان يحسرا على الدفاع أو الفرار حذراً من اهانة حنة لأنها تعهدت بها وضممتها .

ثم رجع الى النافذة فرأى الجنود وقال :

— هب ان المنزل غير مطوق بالجنود ، فلا سبيل إلى الفرار بعد تلك الضيعة .

رواه اني لا اشفق على نفسي بل على ولدي وهو زين الشباب فسانهم يشدون السيوف لقتله ، او ينسجون الحبل لشنقه او يحفرون الهاوية لسجنه ، ثم يأتون فيختطفونه من أيدي من يجب ، ولا يستطيع الدفاع ، حرصاً على كرامة من يجب . فيا ليتني مت قبل أن أبرح تلك الحجرة ، واحضر للتفرج على موكب الملك

وحده قاضييه

ذلك الا أن أحضر زواج السيدة مونجورانسى بأحد كبار النبلاء ، ثم نصبح
حرين طليقين فنطوف الأرض كما تريد .

- ولكن طوافنا يبدأ من الباستيل .

- كيف ذلك ؟

- العلك نسيت أننا سجينان .

- صدقت يا أبى ، فلقد نسيت ان السيدة حنة قد غنمتنا ، ولا

استطيع ..

- ليست الضمانه وحدها التي تحول دون خروجنا من هذا السجن ، بل

هؤلاء الجنود الذين يطوقونه .

فاطرق بارداليان مفكراً ، وبعد الامعان خطر له أن يدفع الجند بالحيلة

إلى الاعتناء عليه ، فإذا فعلوا ذهب تأثير الضمانه ولم تعد حنة مسؤولة عن

الأسيرين ..

وعند ذلك اتقدت عيناه ببارق من الرجاء .

وكاننا أباه كان يشاركه في تصوراته فقال له : وفي كل حال انك طلبت

إلى السيدة حنة أن تمهلك ثلاثة أيام .

فهز الشفاليه رأسه ..

ثم قال : انى سألت هذه المهله لأني كنت أعتقد أن جراحي لا تشفى

قبل انقضاءها ، ولكنى أرى نفسى شديداً ، فإن هؤلاء الجبناء لا يعرفون

كيف يجرسون .

- ولكن ... كيف تريد أن تخرج من هذا المنزل ، فساني فكرت في

الطريقة ، فلم أجدها ... وفي كل حال ، فلا بد من الصبر إلى أن يهجم

الظلام ...

- كلا ، فلا بد ان يكون المارشال هنا اليوم ، فقد وجدت الطريقة .

- ما هي ؟

خاتمة الشقاء

ثم نام بارداليان كولدته وقد سلم أمره إلى الله .

وفي صباح اليوم التالي صباحاً من نومه وقد فغذت الشمس إلى غرفته فرأى

ولده جالساً في سريره وقد حمل رأسه بين يديه وهو يحدق في التفكير .

وكانت علامه الكآبة الشديدة ظاهرة على وجهه .

فسأله : ما بالك يا بني فاني أراقبك منذ حين وبماذا تفكر .

- هؤلاء الجنود الذين يجرسون الباب .

- أرايتهم ؟

- نعم ، ولا بد لي من الذهاب إلى المارشال فرنسوا مونجورانسى والاثيان

به إلى هنا .

- ولكن ذلك محال .

- كلا ، بل لا بد لي من الفوز ولو كان الشارع غاصاً بالجند ، لقد وعدت

والدة لويزا وعداً لا بد من تحقيقه ، وأنا واثق من الفوز به .

- كيف ذلك ؟

- إني أحضر المارشال إلى هنا ، وبعد ذلك ...

- ماذا ؟

- تنتهي مهمتي ، فإن المارشال يسير بامرأته وابنته ولا يبهلني لي بعد كل

فأراه بارداً البيان نافذة في سقف الغرفة .

فقال له أبوه : أعزمت على الخروج من السطوح .

- ما حيلتي إذا كنت لا أجد غير هذا الطريق

- لقد نصحتك يا بني مراراً فلم تنتصح ، وما زلت تخالف وصاياي حتى

بلغ بنا تهورك إلى هذا الموقف الحرج .

والآن فإني قد نسيت الماضي ، فحسب على قدر ما تشاء ، ما زال الحنون

يدفعك إليه .

ولكني لا أحب أن تلقي بنفسك من فوق للسطوح .

وبعد لماذا يعنيك أمر هذا المارشال ؟ اني أريد أن تفعل الخير وتوسع

الجميل إذا أمنت العاقبة ، وأما إذا كنت تخاطر بحياتك من أجل نعيم سواك

فأية مرؤة هذه ، وماذا يعنيك أمر هذا المارشال ؟

- إنك مخفي يا أبي فان امره يعنيني .

- أريد مرة أخرى عصيان أبيك الذي حنكته الأيام .

- لا بد لي من إحضار المارشال يا أبي .

- إذا لا تريد ان تشفي عن عزمك ، ولا بطيب لك الا الاخلاص للناس

والانتصار للضعيف ، والدفاع عن المظلوم ، ومحاربة الأقيام الذي يجب علينا

احترامهم .

فإذا كان لا يثنيك شيئاً عن هذا العزم فإني اتبعك يا بني في هذه الطريق

التي سرت فيها كل حياتي ..

ولم يكن يقول هذا القول على سبيل التهكم ، بل اعتقاد صحيح .

فضمه بارداً البيان الى صدره ثم قال له : ساعدني إذا يا أبي على الصعود

الى النافذة .

- اصعد على كتفي وأنا أمسك رجلك بيدي كي لا تقع فتبلغ النافذة .

فوثب بارداً البيان الى ظهر أبيه ووقف على كتفيه وتعلق بالنافذة فصعد إليها

وخرج منها الى سطح المنزل .

وهناك رأى انه يستطيع النزول من السطح الى الحديقة ولكن الحراس

يرونه بلا ريب .

ثم رأى انه يستطيع النزول أيضاً من جهة أخرى ، ولكن النزول

شديد الخطر .

وفوق ذلك فإنه اذا رجع معه المارشال فرنسوا لا يستطيع الصعود من

حيث نزل ولا يمكنه الدخول من الباب العام الذي يحرسه الحراس .

وفيها هو واقف يفكر سمع صوتاً يناديه باسم غير اسمه .

فالتفت فرأى رجلاً أبيض اللحية جليلاً تدل هيأته على سلامة النية

وحسن الطوية .

وذكر بارداً البيان انه رأى هذا الرجل مرة ولكنه لم يذكر ابن رآه ، أما

الشيخ فقد كان واقفاً فوق السطح المجاور لسطح منزل حنة .

ولم يكن يفصل بين السطحين غير زقاق ضيق لا يزيد عرضه عن مترين ،

فابتسم له الشيخ وقال : أظنك تحاول الفرار يا سيدي .

- هو ذلك ..

- ولكن هذه الطريق التي تريد ان تسلكها شديدة الخطر ولا يمكن أن

تبلغ بها الأرض سالماً فاصبر في مكافئك الى ان أعود اليك .

ففرح بارداً البيان فرحاً لا يوصف وحاول ان يشكر هذا الرجل ، ولكنه

توارى عن أنظاره .

ورجع بارداً البيان الى النافذة ونادى أباه وقال له : اصعد يا أبي وشاركني

برأيك ..

- ماذا حدث ..

- اصعد فأخبرك . ثم جلس على حافة النافذة ومد رجله فتعلق بها أبوه

وصعد الى السطح ، فأخبره بما اتفق له مع الشيخ .

وبعد هزيمة رجع الشيخ الى السطح يحمل سلماً فوضعه على حافتي السطحين
ومشى على ذلك السلم الى السطح الواقف عليه بارداليان وأبوه فحياها وقال :
أهلاً بك يا مسيو بريسار وبأ مسيو دي روشيت .
فنظر اليه الاب والابن منذهلين .

وقال لها : كيف ذلك ألم تعرفاني ؟ انسيما الرجل الذي انتقلنا مع تلك
الصبية في شارع سانت انطوان عند تمثال ابيوقراط .
فضرب بارداليان الأكبر جبينه بيده وقال : نعم ، نعم لقد ذكرتلك يا
سيدي ولكنني نسيت اسمك .

- اني ادعى راميس .

- هو ذلك ، ولكن لا بد لي الآن من أن أقول لك اني لا ادعى بريسار
ولا يدعى ولدي روشيت .

فابتسم الشيخ وقال : إذا ماذا تدعيان .

- لقد كنا مضطرين في ذاك الحين الى اخفاء اسمينا ، أما أنا فاني ادعى
هنري دي بارداليان ، ويدعى ولدي جان دي بارداليان .

فانحنى الشيخ وقال :

- لقد حضرت يا سيدي ، معركة أمس الهائلة ، وسأوضح لك كيف
وجدت هنا ، ولكن اتبعاني قبل كل شيء ، فساني أخشى ان يرانا الجنود
فيفتضح امرنا .

فامتثلا له ومشيا على ذلك السلم الى سطح المنزل الآخر ففترلا من باب فيه
الى سلم يؤدي الى المنزل ، وذهبوا جميعهم الى قاعة متسمة .

وهناك قال لها راميس :

- اني اتيت أمس لتفترج على الموكب الملكي ، وحضرت تلك المعركة كما
تقدم فعرفتكما .

ولبثت واقفاً حتى رأيتكما دخلتما الى هذا المنزل .

فعدت ان خطراً عظيماً يتهددنا ، وانك لا بد أن تحاولا الفرار .
وقد انقذنا حياتي ، فأريت انه يجب علي إنقاذ حياتكما ، وقدعرت إلى
ذلك بحيلة بسيطة جداً ، وهي إني أتيت الى هذا المنزل الذي أنتم
فيه الآن . وقد فحصته فأريت سطحه محاذياً لسطح المنزل الذي
لجأتما اليه .

ثم رأيت ان باب هذا المنزل يشرف على زقاق وراء الشارع الكبير نفسه
حيث تستطيعان الخروج منه دون أن يراك أحد .

فذهبت إلى صاحبه واستأجرت منزله إلى أسبوع بما فيه الآلات بحجة إني
قادم إلى ضيوف جاؤوا مع الملك من بلوا .

فوافقني على تأجيريه ، وخرج منه لفوره ، بحيث لا يوجد فيه
الآن سواي .

فأسرعاً يا سيدي بالفرار قبل ان يحدث ما هو فوق الحسبان .

فشكره الشفالييه بارداليان وقال له : يوجد أسباب تقضي على أبي بالبقاء
أسيراً في ذلك المنزل وسيغيرك بها ، أما أنا فأرجوك ان تدلني على الباب إذ
لا مانع من ذهابي .

- تعال معي أيها الشاب .

ثم سار أمامه حتى أوصله إلى باب الزقاق .

فخرج منه بارداليان وسار مسرعاً في شارع غير شارع مونغارو حتى وصل
إلى قصر المارشال فرنسوا .

واستقبله البواب بلهف ، وقال له : إن سيدي المارشال ينتظرك
بفراغ الصبر .

وأسرع بارداليان إلى المارشال .

ولما رآه فرنسوا قال له : أين كنت أيها الصديق ، فاني كنت أنتظرك
للسفر ولم يعثني عنه إلاك .

كيف ذلك يا سيدي أتسافر وتترك باريس .
 - نعم ، فلم يبق فائدة من البحث في باريس ، لا سيما بعد ان أخبرني
 من عيبتهم من الرقباء انهم رأوا مركبة مغلقة تسير في طريق جيان .
 وهذه القرية كائنة في أملاك أخي ، فهو قد أرسلها اليها ، دون
 ريب ، فلنسرع علنا ندرك هذه المركبة في الطريق ، لأنني أعددت عشرين
 فارساً لصحبتنا .
 فأجابته بارداليان بل السكينة : أبحاسر وأرجو مولاي ان يؤجل مبارحة
 باريس إلى المساء .
 - لماذا يا بارداليان ؟ .. لماذا ؟ .. هلم لسافر ، لأن الدقائق تعد
 بالساعات .
 - مولاي إني أعيد التماسي .
 - ماذا ؟ العلك متردد في السفر ؟
 - كلا ولكنك تبقى وأبقى معك ، وإذا شئت السفر نسافر في المساء ، أما
 الآن فإني أرجوك ان تسير معي .
 - إلى أين ؟ .. إلى أين ؟ .. بارداليان إني أرى من هجتك ان الأمر
 خطير ...
 - تعال معي يا مولاي وسرري .
 فتصير المارشال هنيئة ثم قال :
 - إن ثقني بك قد تجاوزت كل حد يا شفالبيه ، وسأسير معك ... ولكن
 لا نفس ان الوقت ثمين وإذا تأخرنا ساعة يفوت الأوان .
 - ماذا كنت تصنع يا سيدي لو لم أحضر إلا بعد ساعة ؟
 - كنت أسافر وحدي .
 ولم يظهر على بارداليان شيء من علائم التأشير ، ولكن قلبه كاد
 يتفجر ...

ويعد هنيئة كان الاثنان في الطريق ، حتى إذا وصلا إلى المنزل قرع بارداليان
 بابه ففتح له راميس وأدخل الاثنان إلى القاعة .
 فقال له بارداليان : أأأذن لنا يا سيدي أن نختلي في هذه القاعة ، لتزيدني
 منة على منة .
 - إن هذا المنزل يا ابني لك ما زال لي .
 ثم تركها في القاعة وانصرف إلى غرفة بعيدة عنها .
 فقال المارشال لبارداليان ، أين نحن الآن أيها الصديق ؟
 فلم يجبه بارداليان على سؤاله وقال : أسأل مولاي ان ينتظرني في هذه
 القاعة بضع دقائق .
 وذهب بارداليان فصعد إلى السطح وانتقل منه إلى السطح الآخر فذهب
 إلى النافذة ونادى أباه منها .
 فقال له أبوه : إنها تنتظرك وقد قلنا عليك .
 - إذا أبلغ يا أبي السيدة حنة دي بيانس والمدموازيل مونمورانسي ، ان
 المارشال فرنسوا ينتظرهما في قاعة المنزل الذي تعرفه ، وضع لها سداً على النافذة
 كي يخرجها منها إلى السطح وأوصلها إلى القاعة .
 ثم تركه وانزوى في زاوية من السطح وناه في مهامه التفكير .

منتلى اللياليس

ولبت المارشال فرنسوا جالساً في تلك القاعة ، ينظر نظرات
 مضطربة إلى ذلك الباب الذي خرج منه بارداليان ، وقلبه يخفق
 خفوقاً شديداً .
 وقد خطر له ، على كرم أخلاقه وطيب عنصره ، خاطر أثار الشك في
 قلبه الكرم ، وحسب انه وقع في كمين ، وانهم جاءوا به إلى هنا

فقد داخل هذا الريب ، بالرغم من ثقته ببارداليان . حتى انه وضع يده على خنجره وهو يقول : من يعلم فاذا كان أشي قد خاني ، فلا عجب إذا خاني الغريب .

وعند ذلك فتح باب تلك القاعة ببطء ، ودخلت منه حنة دي بيانس .

وكانت لا تزال مرتدية ملابسها السوداء التي كانت تلبسها جاملها بها ، فرأت فرنسوا ووقفت واجمة جامدة وقد مدت يديها وحدقت بعينيها كأنها لا تصدق ما ترى .

ومع ان بارداليان الأكبر ، كان قد أخبرها بأن المارشال ينتظرها ، ولكن اندهاها كانت عظيماً ، حين رأته ، حتى انها وقفت وقسوف التائيل .

أما فرنسوا فانه حين رآها اعتر اعزاز الأجسام تطلق عليها الكهرياء وحاول ان يلفظ اسم حنة فعمد لسانه ، وبدت علائم الدهول في عينيها كأنه كان يرى خيالاً .

ثم جمعت الدموع تساقط ببطء وانتظام من عينيها وهو واقف وقسوف الأستام ينظر الى حنة كأنه في حلم نظرات تشف عن معان تختلف بين الرعب والحزن والحب والاشفاق .

ثم مشى إليها ، وقد ضم يديه مثلها مشي المتناقل دون ان يخرج من صدره وقد أنة أو كفة .

حتى إذا وصل إليها ركع أمامها ، وأحن جبهته حتى كادت تلمس قدميها .

وعندها شق بالبكاء ، فلم يسمع في تلك القاعة غير تلك الألحان الشجية المقدسة ..

ألحان البكاء ، بكاء الحب والاخلاص ولم يعترض هذه الألحان القدسية ، غير ثلاث كلمات خرجت من فم منقطة متلجلجة وقد تجسم فيها مثال الحب والحنو وهي :
العفو ... العفو ... العفو ...

وقد كرر هذه الكلمات ، الى ان علا شوقه ، فضاعت بين التهنيد والبكاء .

ثم سكن قائم تبعاً ، وأخذ بين يديه يد حنة ، ونهض فضعها الى صدره .

وقد حاول ان يتكلم فيظهر لها كل ما اقيه من العذاب وما يستحقه من اللعن لربه بلاك الظهر والعنق .

ولكن حنة حالت دون قصده فطوقت عنقه بذراعيها وابلمت له ابتساماً نقياً طاهراً وأسندت رأسها الى كتفه .

فارتعش فرنسوا وذعر ذعراً غريباً ، ذلك انه ذكر هذا الابتسام وهذا التطويق والحناء الرأس على الكتف وانها كما كانت في تلك الليلة التي عقد فيها زواجهما بابتسامها ودلالها وإخلاصها .

فقال لها حنة ... حنة ...

ثم اضطرب اضطراباً شديداً وجعل يرتجف حين سمع صوتها ، ذلك الصوت الحنون الذي سمعه في تلك الليلة الهائلة التي اضطرب فيها الى فراقها أو زواجها ، فخاف وفرح في آن واحد .

أما حنة فلانها لبثت مطوفة عنقه بيديها ورأسها على كتفه وقالت له :

أيتها الحبيب .. إذك ستعرف أخيراً ذلك السر العزيز الذي لم أجسر على الإباحة لك به منذ ثلاثة أشهر ..

نعم يجب ان تعرفه الآن وستقوله معاً لأبي ...

فذعر فرنسوا للهجتها ونال حنة ... حنة ...

- إصغ إلي يا فرنسوا . إلي أصبحت امرأتك أها الحبيب وقد بارك
الله زواجنا .
- حنة .. حنة .

- إصغ يا فرنسوا .. إصغ إلي مرة الجميل الذي تقدمس الآن بعد الزواج
فرنسوا . . . إنك ستغدو أباً .
ثم نظرت إليه تلك النظرات النقية التي كانت تنظرها وهي بفت وقالت :
فرنسوا .. وأنا سأغدو أما .

فصاح فرنسوا صيحة منكورة تجسم فيها اليأس وقال :
- ربهاه .. إنها قد جُننت .
ثم سقط على الأرض مغنياً عليه لا يعي .

- ١٧ -

كيف ان دقيقة فرح أثرت أكثر

من اعوام شقاء

وجد المارشال فرنسوا مونجورانسي بعد سبعة عشر عاماً امرأته حنة دي
بيانس التي فصلتها عنه جريمة أخيه .
فكانت تتمثل له تلك الأحداث الماضية شبه حلم وقد ابتعد عن بلاط الملك
لذهاب أخيه إليه .

ثم تعاقبت الأيام وكثرت السنون ، إلى ان جاءه ذلك البطل بارداليان
بكتاب من تلك المرأة التي كان يشروهم إنها مذنبه وان اسمها قد اختفى
من مخيلته .

فظهرت له الحقيقة الناصعة من ذلك الكتاب ، وأيقن ان امرأته طاهرة
وإنها ذهبت ضحية نذالة أخيه .

وقد دعت به بذلك الكتاب زوجها وسألته النجدة لانقاذ ابنته لوزا ، فوسط
الملك في أمر إنقاذ امرأته وابنته وحاول مبارزة أخيه وقتل كل مكاف في
باريس فذهبت كل مساعيه أدراج الرياح .

وبينا اليأس هم بالرجوع إلى قلبه جاءه ذلك البطل بارداليان وسار به إلى
تلك التي لم يحب سواها في الوجود . . . تلك التي عاشت سبعة عشر عاماً عيش
شقاء ، وأمضت على صك الطلاق كي تحمي من غضب أبيه ، ولقيها ولكن
وجدها مجنونة .

وقد كانت حنة شعرت في الأيام الأخيرة ان ساعاتها باتت معدودة في
الحياة ولكنها كانت تقاوم الموت بشهامة اليأس كي تضمن مستقبل ابنتها ،
ولا تضمن لها هذا المستقبل إلا حين تسلمها لأبيها .

وكان أقصى آمانيها ان تجد فرنسوا ولو كان يعتقد انها مذنبه فتسلمه ابنته
وتموت بسلام .

ولما أخبرها بارداليان الأكبر بقدم المارشال فرنسوا لم يظهر عليها شيء من
علامات الاضطراب ولكنها تمتمت قائلة :
- دنت الساعة التي يجب ان أموت فيها .

ولم تكن تفكر إلا بالموت ، ولكنها لم تكن تريد ونحشاء ، فكانت تشبه
ذلك العامل يشتغل في المزارع منذ الفجر ثم إذا أقبل الليل لا يفكر إلا بالنوم
كي يراح من عناء النهار .

وعندما نادت ابنتها وعانقتها عناقاً طويلاً ، وهمست في أذنها كلمات صعقتها

فإنها حاولت ان تجيب أمها فلم تستطع وأرادت ان تنبها فلم تتمكن وبقيت واقفة في مكانها أمام باردة البيان الأكبر .

وأما حنة فلم يكن يشغلها في تلك الدقيقة غير لقاء زوجها ، فسارت اليه دون ان ترى ابنتها التي أعمر عليها .

وصمدت الى السطح وهي تقول :

— فرنسوا .. لويزا .. إني سأراك أخيراً مجتمعين فأموت بسلام . نعم سأموت لأني أشعر ان كل شيء قد وهى بي حتى عظمي

وفتحت باب القاعة الموجود فيها فرنسوا ورائه فضيل لها أنها وثبت اليه تعاقبه وانها صاحت صبيحة فرح لا يوصف .

ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك لقد كانت شبه ميتة .

وكان أول ما مات بها عقلها فان هذه التعيسة التي لقيت من أصناف العذاب ما لم يلقه إنسان وتوالت عليها الارزاء تبعاً فتلقتها بصدر رحب ولقيت كل الضعاب في سبيل ابنتها .

إن هذه المرأة حين رأت زوجها ووثقت من سعادة ابنتها وأمنت عليها لم تعد تستطيع الدفاع فأسرع اليها ذلك الجنون الذي يترقبها منذ أعوام وانقض عليها مقتنماً فرصة ذلك الضعف .

إن شقاء سبعة عشر عاماً لم يستطع قتل عفاها ، ولكن هناك لحظة قتله ، فأصبحت تلك المنكودة مجنونة لا عقل لها بعد ان لست السعادة يسديها .

غير ان العزاء كان ممكناً في جنونها ، إذا صح ان يكون في الجنون عزاء ، لأنه كان لطيفاً مادناً ، رجع بها الى أيام صباها ، ومثل لها مارجنسي وحقوقها ورياضها الغناء وحبها القديم حين كانت تجني أزهار الحدائق وتناجي من الحب .

أيها الزهرة النقية التي قضت على نضارتها يد الجريمة والظلم ، إن تاريخ

الظلم الانساني لا يخط لك في صفحاته غير جملة واحدة ، وهي : زهرة سقطت .

ولكن المفكرين ، وأصحاب الشعور الدقيق ، والنفوس الطاهرة ، ينظرون إلى تاريخك المجيد ، ويتخذون نفسك النبية مثلاً للشقاء الانساني ، ونحن الذين نكتب تاريخ شقائك نحبيك تحية الوداع ، وتناجيك بله الاحترام فنقول :

أنت يا فتنة العيون ويا أهدع موصوفة على الاطلاق
أنت يا آية الطهارة يا من حكمت لحظها على العشاق
أنت يا من قتلت نفسك بالذل ليحيى مكارم الأخلاق
كل شيء على البسيطة فان قد مضى عهدك القديم ولكن
ذكر أمالك الشريفه باقى

وحدة قاصديه

عندما صحبا المارشال فرنسوا من إغمائه وقف ونظر إلى ما حوله نظرة من يستفيق من رقاده أو حلم .

ورأى حنة جالسة على كرسي ، وهي باشة الوجه باسمه ، ولكن عينيهما والأسفاه قد لان على الجنون .

ورأى صبية راكعة بقربها ، وقد وضعت رأسها على ركبتيها ، وهي تبكي .

فدنا فرنسوا من تلك الصبية ولمس كنفها
فرفعت لويزا رأسها ونظرت اليه .

فأخذ فرنسوا يدها وأنهاضها دون ان تعترضه أمها ، وجعل ينظر اليها كعزف لأول وهن إنها ابنته ، لأنها كانت تشبهه وتشبه أمها شيئاً عجيباً

حين كان لها عمرها .

فضمها إلى صدره وهو يتنادىها بأعذب الألفاظ .

ثم جلس يجانب حنة ، وأجلس ابنته على ركبتيه ، كأنها لا تزال في عهد الحداثة وقال لها : وأسفاه يا ابنتي ، إنك فقدت أمك ولكنك فقدتها حين وجدت أبك .

وجعل الاثنان يبكيان بكاء شديداً وحنة تنظر اليهما دون تأثر .

حتى إذا سكن تأثر اضطرابهما طلب الأب الى ابنته ان تروي له كل ما تعلمه عن أمها .

فروت له حكايتها بالتفصيل .

ثم روى لها أبوها جميع ما اتفق له منذ ذلك الفراق إلى الآن .

ولما أتم كل منها حكايته للأخر حسب فرسوا انه لم يقم غير ساعة في تلك القاعة .

ولكنه جاء إليها في الساعة التاسعة من الصباح ، وحين قبيل مع إبنته جبين إمرأته المصفر ، كانت الساعة قد بلغت الأولى بعد انتصاف الليل .

كيف ان جيل قد وفي بوعد

بارداليان الأكبر

بعد أن حضر هنري دي مونمورانسي حادثة شارع مونمارتر ، وبعد ان استوثق من انه يستحيل على الأسيرتين ان تخرجا من ذلك المنزل الذي تطوقه الجنود ذهب إلى قصر مسج .

وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً انه قبض على بارداليان وابنه ، وانه لا بد من قتلها هذه المرة .

وكان في القبة بكتفي بقتل واحد منها ، ولكنه بات واثقاً الآن ان الاثنين عالمان بسر مؤامرة مع الدوق دي كيز وانها لا بد لها من الاباحة بسر هذه المؤامرة .

وكان عندما وثق ان بارداليان الأكبر تبسح المركبة ، وعرف مكان الأسيرتين عزم جزماً أكيداً على قتله وهو واثق انه سيخسر بقتله عضداً قوياً ولكنه لم يجد بداً من التخلص منه كي يأمن على أسيرته .

ولم يكن انشغال هنري قاصراً على الاهتمام بحنة وابنتها بل كان مهتماً بأمرين مختلفين لا بأس من إرضاءهما للقراء

وذلك انه كان قد اشترك بالمؤامرة مع الدوق دي كيز على خلع

وإنما فعل ذلك لشدة كرهه لأخيه ، وإن الدوق دي كيز قد وعده وتمهد له بقتل أخيه فرنسوا فيصبح هنوي رئيس امرة مونغوراسي فيرث تلك الأموال التي لا تحصى ويعين أمير الجيوش كما كان أبوه بحيث يقدو أعظم عظيم في فرنسا بعد الملك .

ثم انه كان يعمل سراً على إيادة الهو كينوت وجبر المملكة إلى حادثة خطيرة قد يتشكل بعدها بإكليل من الهد

ومن يعلم بعد ذلك ، فإذا كان الدوق دي كيز قد تمكن من خلع الملك فلماذا لا يتمكن هو من خلع الدوق دي كيز

ولم تكن تحظر له هذه الخواطر كلها إلا لما كان يطمع به من الاستيلاء على حنة .

لقد كان يرجو حين يرقى إلى هذه المنزلة الرفيعة ان يتمكن من إرضائها لا سيما حين تعلم ان فرنسوا أصبح من الهالكين .

ولذا كان يباليغ في إخفاء حنة عن الأنظار حذراً من ان تجتمع بأخيه . وكان يخاف بارداليان لوقوفه على سر مؤامرتة ولكنه حين أخبره الفيكونت اسبرمونت وأقنعه أن بارداليان قد تبع المركبة وعرف مكان الأسيرتين عزم على قتله ثم يحتال بعد ذلك على قتل ولده

فلما سافر إلى بلوا كان يعتقد اعتقاداً لا ريب فيه ان بارداليان الأكبر قد مات فأوصى وكيله جيل ان يطرح جسثه في نهر السين وان يراقب المنزل المسجونة فيه الأسيرتان وهو منزل اليس .

ولكنه حين رجع من بلوا ورأى بعينه بارداليان ويحانيه ابنه كان دهشه وبأسه لا يوصفان

ولا سيما حين رأى حنة أيضاً ، وعلم أن جميع مساعيه ذهبت أدراج الرياح

وأيقن أن بارداليان وابنه سييوجان بسر المؤامرة ، وان أخاه فرنسوا سيأخذ حنة وابنتها .

ورجع إلى قصره وهو مصمم على ان يستحصل على أمر من الملك ويعود إلى محاصرة المنزل ويرى بعينه قتل بارداليان وابنه .

ولكنه أراد قبل ذلك ان يعلم كيف ان بارداليان نجح من ذلك القبو وكيف أن وكيله جيل ترك حنة تخرج من منزل اليس .

وقد وصل إلى قصره وهو يزيد من الغيظ وينوي شريرة لوكيله . فطاف في القصر فلم يجد فيه أحداً .

فذكر انه أرسل جميع رجاله إلى قصره الآخر .

وذهب إلى ذلك القبو ، الذي سجن فيه بارداليان ، كي يعلم كيف كان خروجه منه .

فلما وصل إليه وجد بابه مفتوحاً ، فدخل فرأى نوراً ضعيفاً ، فقال في نفسه : انه إذا كان جيل في القبو جعلته قبراً له كما كان يجب ان يكون قبراً لبارداليان .

ثم نزل درجات السلم ، حتى وصل إلى آخرها ، ووقف منذهلاً . إذ رأى منظرأً خريباً ، فانسل إلى زاوية مظلمة في القبو ، ووقف ينظر كي لا يفوته شيء .

ذلك انه رأى جيوت مكتوف اليدين والرجلين ، ومشدود إلى عمود ورأى وكيله جيل جالساً أمامه على برمبل ، وهو مشتغل بشحد سكين رقيق الشفرة

ولندكر الآن كيف ان جيوت وجد في هذا القبو مع خاله ، في حين انه كان يجب عليه ان يهرب منه حذراً من غضبه بعد ان أرشد بارداليان إلى مكان الأسيرتين فنقول :

إن جيوت هذا كان من الذين تجمعت فيهم جميع الصوب ، فهم وخبث

مخادع مذاق كاذب طماع كسول شرير جبان .

وفوق ذلك فقد كان مكملاً بالبخل وقد أخذ هذا العيب عن خاله .

وقد عرف القراء كيف أن جيل رضي ان يموت كي لا يخون سيده ويخبر بارديليان عن مكان الأسيرتين خلافاً لجيلوت فإنه خاف على أذنيه من القطع فلم يتأخر لحظة في إرشاده إلى المكان .

وقد اغتم فرصة اضطراب خاله واشتغاله بمعاداة بارديليان فخرج من القبو لأن بارديليان إذا كان قد عفا عن أذنيه فان خاله لا يعفو عنه ويشكوه للدوق ، ذلك الرجل الهائل الذي لا يشفق على أحد ، ولا يكون حظه منه بعد ذلك غير القتل الذريع .

وقد قال في نفسه ، حين خرج من القبو : لا بد لي من الهرب من باريس نفسها ، فإني إذا سلمت من الموت بالشنق أو الصلب فلا أسلم من الموت خوفاً وهاً وجزعاً ، فغير لي أن أرح باريس إلى أية جهة كانت بشرط أن أكون بعيداً عنها .

ثم هم بالخروج من القصر ولكنه توقف فجأة وقال : إن مثل هذا السفر يقتضي له الكثير من النفقات .

فتبحث في جيبه فلم يجد غير بضع قطع نحاسية ، فخطر له خاطر سربع برقت له عيناه وهو انه إذا كان فقيراً كان خاله من الأغنياء .

وكان يعرف ان خاله يضع ماله في ذلك الصندوق .

فخطر له ان يأخذ فأساً فيكسره بالصندوق ويملا جيوبه ذهباً ثم يفر هارباً إلى الريف .

وعندما أخذ فأساً من الحديقة ، وصعد مسرعاً إلى غرفة خاله ، وجعل يفحص ذلك الصندوق كي يعلم اين يجب ان يضرب ، فرأى انه مفتوح ولا حاجة إلى كسره .

ويذكر القراء ان بارديليان الأكبر كان قد تشرف قبله بزيارة هذا

الصندوق وأخذ منه غرامته الحربية .

ففتح جيلوت الصندوق ورأى اكدياس الذهب فيه فطار فواده سروراً وركع عنده وجعل يأخذ منه ويضع في جيوبه .

وقد نسي الأرض والسماء في تلك الساعة ، ونسي بارديليان وخاله وماتت عواطفها لها فلم يبق فيه حياً غير الطمع .

وبعد أن ملأ جيوبه وقف ينظر إلى الذهب المقدس في الصندوق وبأسف لأن لا يستطيع أن يحمل كل ما فيه .

ولكن لم يقنع بما أخذه فأخذ قبضة من الذهب وادخلها في حذائه ثم أقفل الصندوق مضرباً لأنه لم يستطيع ان ينهب كل ما فيه .

وأقفل راجعاً يريد الفرار فلم يكدر يلتفت إلى الباب حتى جمد الدم في عروقه وجمحت عيناه واندلج لسانه .

ذلك انه رأى خاله واقفاً في البساط وهو ينظر اليه بملأ جيوبه ويبتسم ابتسام الانتقام .

فركع جيلوت امامه وقلمتم لسانه فلم يستطيع ان يفوه بحرف .

فقال له خاله : ماذا تصنع هنا ؟

- كما رأيتهي .. كنت .. ارتب صندوقك .

- إذا عد إلى ترتيبه ، فقد كان فيه ما تبلغ قيمته ثمانين الف ريال وهو كل ما اقتصدته في حياتي .

ففساد جيلوت إلى الصندوق وأخرج كل ما سرقه وأعادته اليه بالترتيب وخاله يراقبه .

وكان كلما اخرج شيئاً وأعادته إلى مكانه ينهد .

وكان خاله يحسب ذلك المال فيقول : لا يزال ينقص خمسة عشر ألفاً ... اثنا عشر ألفاً .. عشرة آلاف .

حتى اذا أخرج جيلوت اخر دينار حسب ماله الموجود في الصندوق وقال

فانتهره خاله قائلاً : كفر حياً أو أقتلك .
 وقال جيلوت في نفسه : إنه لا يريد أن يقتلني كما يظهر .. ولكن ما
 عساه يريد .
 ولما فرغ جيل من شعث السكين نظر إلى ابن اخته وقال :
 - إني سأحكم عليك حكماً عادلاً يروح اليه ضميري ، ولا أنسى في حكمي
 أنك ابن أخي ، أي في سائسائل بقدر ما تسمح ذنوبك فأجبتني عما أسألك
 بصدق وجلال .
 فبدأ جيلوت بطمئن وقال له : سلفي يا خالي ما نشاء أجيبك .
 - إذا أنت تبعت المركبة التي وضع فيها مولاي الدوق أسيرتيه .
 - نعم وقد تبعتها إلى شارع لاهاش .
 - أراك أحد .. إحدرك أن تكذب ، لأن حيسانك موقوفة على
 صدقك ..
 - أظن أن الفيكونت اسبرمونث رأيني ولكنني لا أظن انه عرفني .
 - ما كانت غايتك من اقتفاء أثر المركبة .
 - لم يكن لي غاية ولم يدفعني إلى ذلك غير الفضول .
 - لقد رأيت ما لا يجب أن تراه يا بني .
 - إني ندمت الندم الشديد ، وأقسم لك اني لا أرجع بعد الان إلى هذا
 الفضول ..
 - والان ، أيها اللص الشقي الخائن ، قل لي ما دفعك إلى أن ورشد
 بارداليان وابنه إلى مكان الأسيرتين .
 - ألم تسمع ما أنذرتني به ذلك الشيطان ؟ إني أردت إنقاذ أذني من
 القطع ..
 - أيها الخائن الجبان ، ألم تر أيضاً انه انذرتني بالقتل فكشفت له عن
 صدري لخنجره كي لا أروح بالسرا ، ألم تروني عرضت عليه كل ثويتي وهي أعز

من حياتي . ثم فضلت أن أموت حريصاً على سر مولاي .. أتعلم أيها السافل
 ما فعلت خيانتك بمولاي ؟
 - أسألك المغوي يا خالي ، فقد خفت خوفاً شديداً على أذني .
 - وأذا ، ماذا يحل بي أيها الخائن ، وما يكون جزائي من هذا السيد
 القادر العظيم .
 وكيف أجسر على مقابلته بعد هذه الخيانة ، ليس الأولى بي أن أنتصر
 قبل أن يحضر .
 - كلا يا خالي ، لا تقل ذلك فساني أموت أسفاً عليك ، ومولانا الدوق
 كثير الرحمة .
 وكان جيل صادقاً في قوله فوضع رأسه بين يديه وجعل يهد لنفسه سبيل
 الانتصار خذراً من غضب الدوق .
 ومع ذلك فقد كان لديه شاهدان على براءته ، وحسن دفاعه ، أحدهما
 ابن اخته جيلوت ، والثاني بارداليان نفسه ، فقد وعده أن يكتب لمولاه ما
 يثبت حسن وفائه .
 وعلى ذلك لم يجد بداً من استبقاء جيلوت ، ولكنه لا يد من معاقبته
 عقاباً صارماً يحمله عبرة لنفسه والسواه من الخائنين .
 فنظر إلى ابن اخته وقال :
 - إني لا أحكم عليك بالموت ، فإن سيدي الدوق يحكم عليك بما يشاء ،
 فالأمر اليه ..
 ولكن ... لا بد لي من معصاقتك والانتقام منك عن إساءتك الي
 إساءة تدينس شرني ... ذلك عسداً عن الثلاثة آلاف مبنار التي قوت
 من صندوقي ..
 - ولكنني لسألك الذي سرقها .

- وأما غفرت لك جريمة السرقة ، وربما غفر لك مولاي الدوق جريمة
الحيانة ، بشرط أن تجزه بالأمر كما اتفق دون أن تنقص أو تزيد ، انقسم
على ذلك .

- أقسم بالله اني أخبره بكل شيء .

- إذا كان ذلك فاني اكتبني بمقابلك عما أسأت به إلي فانك عرضتني
لظرد من خدمة مولاي على الأقل .

- كيف هذا ، وكيف تزيد عقابي .

- نعم انك خنت خالك وخنت مولاك كي تصون أذنك وساعاقتك
بقطع أذنك .

فذعر جيلوت ذعراً شديداً وقال : رباه ماذا أسمع .

ثم رأى خاله قد دنا منه ، وأمسك أذنه والسكين في يده فساطب
عليه وقال :

- إكتف بقطع اذن واحدة على الأقل .

ولم يكذب بقول هذا القول وهو بين مصدق ومكذب لما يراه حتى صياح
صبيحة أم منكورة .

فان هذا الشيخ الهائل قبض على أذنه اليمنى وقطعها بسكينه السنوت
وسقطت تلك الأذن على أرض القبر .

وجعل جيلوت يصيح مستنجداً مستغيثاً متوسلاً إلى خساله أن يبقي له
أذنه الثانية .

ولكن خاله أجابه بقطع الثانية كما قطع الأولى والفاغا على الأرض في
جانب أخنها .

ولما أتم مهمته الهائلة وقف ينظر إليه ويبتسم ابتسام رجل مجرّد قلبه من
الرحمة وجيلوت يصيح صياح بقطع القلوب من الاشفاق .

ثم نظر الشيخ إلى الدم يسيل من أذني ذلك المتكود كأفواه الغرب فارتمد

وقال في نفسه انه إذا طال تزف دمه مات ، ولا أحب أن يموت قبيل أن
يحضر الدوق فانه شاهد لديه .

فأسرع الى المطبخ وجاء بأدوات الضمد .

وكان جيلوت قد أغمي عليه .

فأحس ضمّد جراحه ، ثم نضح وجهه بالماء فاستفاق وأن اينناً مؤرراً وهو
يقول : كيف أسمع الان بعد أن قطعت أذني .

فأجابه قائلاً : قم أيها الأبله .

وقد كان هذا القول كل ما نراه في نكبتة .

ثم ساعده على النهوض ، وسار به ، يريد الخروج من ذلك القبر
والمصباح بيده .

حتى وصل الى السلم فوقف الاثنان منزعجين ، إذ رأيا هنري مونجورانسي
واقفاً عند السلم .

فركع جيل وهو يقول مولاي .

وقال جيلوت في نفسه : لقد قضى علي الان القضاء المبرم . وسقط
مغنياً عليه .

فقال هنري لجيل : ماذا حدث .

- مصاب عظيم يا سيدي ، وأنا بريء ، بل أقسم لك اني بريء . فقد كنت
مراقباً كل المراقبة ، ولكن القضاء وهذا الأبله قد أفسدا الأمر .

فأجابه يحفاه قائلاً : أوضح ما تقول يا جيل .

- ان بارديان يعلم مكان الأسيرتين وهما الان في قبضته بلاريب .

وانت أم يكن لك يد في هذه الحيانة .

- معاذ الله أن أخون مولاي وليتفضل سيدي بسؤال هذا الشقي الذي
قطعت أذنيه تثبت له برائي .

- لا فائدة من سؤاله فاني أتق بكلامك فانفض .

- مولاي ان نعتكم بي خير جزاء لي عن إخلاصي .
- اذا لا تزال مخلصاً .

- الى أن أموت .. فمر يا سيدي بما تشاء ، فان حياتي وقف على
ارادتك .

- اعزمت على صنع كل شيء ، في سبيل اصلاح ذلك الشقاء الذي
نكبتني به .

- اني مستعد لسفك دمي .

- إذا تعال معي فاني لا أريد سفك دمك ، واجهد قريحتك فان ما
سأطلبه اليك أصعب من الموت لأجلي .

- واة مناهب يا سيدي ولكن هذا الأبله ماذا أصنع به .

- أي ابله تعني ؟

- ان اخي هذا أجهز عليه فانه يستحق الموت .

- كلا ، فانه يستطيع خدمتك في المهمة التي سأنتدبك لها .. تعال .

الفلكي

لندع الآن هنري دي مونجورانسي يحرق الأرم من الفيظ ..

ويعن الفكرة في سبيل ايجاه الطريقة المضمونة للقبض على باردهالين
وابنه ، واسترجاع حنة وحجزها في مكان خفي الى ان يجين ذلك اليوم
الذي ينتظره بله الرجاء .

وهو اليوم الذي تنتصر فيه أسرة لورين ..

أي أسرة الدوق دي كيز وتبني مملكتها الجديدة على أنقراض مملكة
أسرة فالوا .

ذاك اليوم الذي يصاب فيه ، الملك شارل التاسع ، وأخوه الدوق
دالنجو برصاصتين تحطمان روحيهما ، فيضع الدوق دي كيز على رأسه
تاج فرنسا .

ولندع أيضاً فرنسوا دي مونجورانسي وتلك المجنونة المنكودة وابنتها
لوريزا في منزل العالم راميس .

ولننص على قرائنا ما يقضي به سياق الحديث فنقول :

بعد هذه الحوادث التي تقدم ذكرها بثلاثة أيام .

وبعد دخول الملك إلى باريس دخول المنتصر . كانت اثنان يسيران في
الساعة العاشرة من الليل سيراً بطيئاً في الظلام الحالك الذي يكتنف حدائق

قصر الملكة الجديد ، الذي بنته الملكة كلارين لرئيسه الفلكي ، أي ولدها ديودات .

وقد كانت هذان الخيالان رئيسيه الفلكي والملكة كلارين ، وهما قادمان من اللوفر الى ذلك القصر الجديد الذي كان يشتغل فيه الفلكي والملكة برصد الكواكب واستقبال تقارير الجواسيس .

ولما وصلا اليه فتح رئيسيه باب المرصد بفتح كان يجيبه ودخل مع الملكة الى تلك الغرفة التي كانت اليس دي ليكس ترمي تقاريرها الى الملكة من نافذتها .

وقد كانت اليس جاسوسة الملكة . . .

ولكن لورا المعجوز التي كانت تقم اليس في منزلها كانت أيضاً جاسوسة الملكة على اليس . . .

وقد كانت أرسلت اليها في ذلك اليوم هذا التقرير :

« ستزار اليس في الساعة العاشرة من هذه الليلة زيارة خطيرة ، سأفصل نتائجها . . . »

ولما دخلت الملكة مع الفلكي الى تلك الغرفة ، افتربت من نافذتها وهي تطل على الشارع .

وسمعت خطوات أقدام فأسرعت الى النافذة وأطلت منها . . .

فلم ترى شيئاً ، لشدة الظلام . . . ولكنها سمعت تلك الخطوات كانت تدنو منها ، رجعت تصغي ، وقد ضغطت على يد الفلكي وقالت له : اسكت . . .

وقد كانت هذه الملكة من أصدق الناس في صناعة التجسس ، فهي التي وضعت نظام البوليس السري واستخدمت جيشاً من الجواسيس بين حذائق الرجال والنساء . فبلغت بهم ما تشاء من أبحاثها .

أما الفلكي فإنه هرز كنفه وقال لها بصوت مرتفع : لا فائدة من الاصفاء

يا سيدي فانهم عابروا سبيل بلا ريب .

فقلت له الملكة : اسكت .

وقد قالت له هذه الكلمة بلهجة ظهر فيها الوجدان فاصفر وجه الفلكي وسكت طائفاً مكرهاً .

ولا يمكن ان يختر لأولئك المارين انه يوجد من يسمع حديثهم .

لأن تلك الغرفة التي كانت الملكة تتجسس منها ، كانت مظلمة لا نور فيها .

وبعد هنيهة سمعت الملكة صوت رجل تسمين الكتابة من نبراته يقول :

— اني انتظر جلاتك هنا فأراقب في هذا الموقف شاعري تفرسدين ولاهائش ، ولا يستطيع احد ان يدخل من ذلك الباب الأخضر الى المنزل دون أن اراه وانعه عن الدخول اليه بحيث تكون جلاتك آمنة فيه .

فأجابه صوت امرأة قائلاً :

— لا أخاف شيئاً يا كونت فاطمئن .

وكان الفلكي قد سمع صوت الرجل فازتمش وقال ديودات

وقالت الملكة انها ملكة الانفار فاسكت يا رئيسيه ولتسمع .

فقال ديودات : هوذا الباب الأخضر يا سيدي . انظري إلى النافذة فان النور يبعث منها ولا شك أن رسولاك قد وصل اليها فهي تنتظرك .

فقلت له الملكة - ما بالك مضطرباً يا بني

— لأنني لم اتأثر في حياتي مثل هذا التأثير ، وإذا علمت يا سيدي ان حياتي موقوفة على هذه المقابلة ، هان عليك أن تعرفي سبب اضطرابي .

ومهما يكن من الأمر فاني أباركك يا سيدي واعترف اني مسيد لك بهذه الحياة .

— ديودات . أنت تعلم اني أحبك كما أحب ولدي .

— نعم يا ملكتي ، وقد كان يجب والأسف على سواك أن يجني هذا

وحده قاصديه

الحب ومن يصدق يا سيدتي ان أُمِّي بعد أن عرفتني في تلك المقابلة ،
ورأت اضطرابي وسمعت شكواي وسبرت غور آلامي لم تقبل لي كلمة تدل
على ذرة من التأثر والاشفاق

- صبراً يا بني وتشجيع فاني أرجو بعد ساعة أن أعود اليك بخبر مفرح
يفرج همك .

وعند ذلك ركت الملكة ديودات وذهبت إلى ذلك الباب الأخضر ، باب
منزل اليس فطرقته

أما ديودات فإنه ضم ذراعيه فوق صدره ووقف بفتنظر تحت تلك النافذة
التي كانت أمه تسمع حديثه منها .

ووقف أولئك الثلاثة الذين لم يكن يفصل بينهم غير الجدار بفكر كل منهم
بأمر ، وهم الأب والأم والإبن .

وقد وقف الفلكي عند النافذة بشكل لا تستطيع معه كارين أن تمدها
منها ، فان رأس ولدها كان محاذياً للنافذة .

وذلك أن كارين كانت تتسلح دائماً بخنجر طويل غمس رأسه بسم
هائل ، بحيث إذا خدش الجسم أقبل خدش نفذ السم إلى ذلك الجسم وأمانت
صاحبه ثم موت .

وهو الذي أعد لها ذلك السم في ذلك الخنجر ، فكان يخاف أن تزد ذلك
الخنجر من النافذة وتخرج به ديودات .

ولكن الملكة لم تفعل ، وبقي الثلاثة ساعة صامتين واجبين .

وعند انتصاف الليل خرجت ملكة النافار من منزل اليس ، فجاءت إلى
ديودات وقالت له :

تعال يا بني إذ يجب أن نتحدث دون تأخير
ثم تأبطت ذراعه وسارت وإياه .

فقال الملكة كارين عند ذلك للفلكي ، أن المصباح الآن ، فلم يبق خوف

من النور
فأمثل الفلكي ورأت الملكة وجهه مصفراً على نور المصباح ، فهزت
كتفها وقالت له :

أظننت يا ربيته إنني أريد قتله
- نعم -

- أهذا الذي أحافك ؟
- لا أستطيع انكار خوفي .

- ولكني أتم أفل لك إنني لا أريد له الموت ، بسلكه قد يفيدني .
وأنت ترى أن قتله لم يخطر في بالي ، فإنه لا يزال حياً بعد ما سمعته
من حديثه ...

أحمت أنت ما قال ؟ أن كفاك يا ربيته لا تزال ترن في اذني ، فهو يعلم
إنني أمه .

وقد كنت من قبل مشككة ، أما الآن فلم يبق سبيل للشك يا ربيته بمسد
ان سمعت قوله بالذني .

ولو قبل هذا القول تغير ربيته لما تأثر ، ولكن ربيته كان يعرف الملكة
حق العرفان ، فارتعش ارتعاشاً لم يخف على الملكة

فقال له :

ولكن اطمن يا ربيته ، فاني لا أمس عواطفك الأبوية ، ألم تطمنن ؟
- كلا يا سيدتي ، فاني والحق ان ولدي سي موت ، ولا يوجد قوة في
الوجود تنقذه .

فعلست الملكة في كرسبها وقالت له : أوضح ما تقول يا ربيته .

فسد ربيته من كرسبها وقد اصفر وجهه ، واختلج قلبه وتهدج
سوته وقال :

الملك ربيدين ان تعرفي يا سيدتي كيف ان ولدي سي موت ، وكيف انه

لا يوجد قوة في الوجود تنفذه حتى ولو التمسست هذه القوة من قلبك الشفوق ،
إذن فاعلمي .

انك حين ارسلتني إلى باردالبيان بتلك المهمة ، ورأيت ديودات في ذلك
الفندق عرفت انه ولدي .

ولكنني نظرت اليه كما انظر لرجل غريب ، فقد كنت انت كل ما يشغلني
في هذه الحياة .

ثم جعل الحنو يتصل بقلبي تباعاً ، وتولدت من هذا الحنو عاطفة اشفاق
جعلتني شديد العذاب حتى اني جئتك وقلت لك انه ولدنا فلا نقضي عليه .

ولما علمت انك قضيت عليه القضاء المبرم ، اكتفيت بالبلاء لانك تسلطت
علي سلطة تجيبية لا حد لها .

فما أنت بعشيقتي ، وما أنت بملكوتي ، بل أنت فوق كل ذلك ، بل أنت
قوة جاذبة تجذب قلبي وضميري إلى حيث تشاء .

ولا انكر عليك اني قاومت هذه القوة الجاذبة : وحاولت خلع سلطانك
علي ، وقد استشرت النجوم أخيراً ، فلم أجد منها غير جوابات مبهمه ،

فعملت على ان اقف سائلاً بينك وبينه ، وأن أمنعك عن قتل ولدنا ، ولكنني
أعلم انه لا بد له ان يموت .

وقد كانت هذه الملكة على ذكائها وشدة سلطانها على الفلكي تخضع له
صاغرة حين يحدثها بالكواكب ، فانها كانت تعتقد اعتقاداً غريباً بالتجميع

ورصد الأفلاك .

وعاد الفلكي إلى الحديث فقال بيظه .

انه حين تجيبني النجوم جواباً مبهماً ، وحينما لا أجد حلاً للمشكلة التي
اعرضها عليها أجد حلاً لها من طريق آخر ، واسمعي ما جرى يا كاترين .

انك كنت واقفة عند النافذة ، وانا كنت يجانبك وعيناي ممددتان

بيديك ، فان هذا الحاتم الذي تلبسينه كان يتوهج في الظلام فاراقب من توهجا
حركاً يدك .

وكنت عازماً على ان اوقف تلك اليد لو خطر لك ان تمديها إلى الخنجر .
وقبها أنا كذلك اضطرب نظري فجأة ، فلم أعد أرى الحاتم واليد ، وفي

الوقت نفسه شعرت بهزة في دماغي واتجه رأسي بالرضم عني إلى النافذة .
فايقنت من هذه الدلائل اني اتصلت بالقوة غير المنظورة ، وهي تلك

القوة التي ترشدني إلى حل المعميات حين تأبى النجوم حلها .
وقد نفذت نظراتي من خلال النافذة .

ومما يجب ملاحظته اني لم أكن استطيع في موقعي ان أرى ديودات
من النافذة ، ومع ذلك فقد رأيت على قيسد عشرين خطوة من النافذة في حين
انه كان ملتصقاً بها .

ورأيت بين الأرض والسماء يملو عن الأرض عشرة أقدام ويكتنفه الشعاع
من كل جهة فيقشع عنه الظلمات حتى انه هو نفسه كان يضيء ويتألق كأنه

تحول إلى كتلة من نور .

وكان واضعاً احدى يديه على ثديه الأيمن ، ثم سقطت يده بيظه ،
فرايت مكانها جرحاً عريضاً يندفق منه الدم ، ولكنه لم يكن دماً أحمر كالدم

المعروف ، بل انه كان يشبه الزجاج المذوب .

وليت ولدي مائلاً أمامي في الهواء نحو دقيقتين على ما وصفت .
وقد التفت نظراتنا ، فكانت نظراتي تدل على الرعب ، ونظراته تدل
على الكآبة .

ثم جعل يضمحل تباعاً حتى استحال إلى دخان رقيق وانطفأ نوره ، ثم لم
أعد أرى شيئاً ، وغاب عن عيني كأنه لم يكن .

وقد قال ربنيه كلماته الأخيرة بصوت خافت ، فلما انتهى عاد ينظر إلى
القضاء نظرات حائرة .

فرعبت كالوين رعباً شديداً ، ووقفت كأنها تحاول الفرار تخلصاً من هذا الرعب الذي استولى عليها .

ولكنها تغلبت على هذا الضعف بمنف شديد وقالت :

ان زوجي كان يقول بأنى شؤم على أسرته . . .

نعم انه كان يقول هذا القول ، ويسرني أن أوصف بهذا الشؤم ، وان لا أرى من حولي غير الأموات والمحتضرين ومن شاء ان يسود فلا يد له من القتل .

فيا أيتها الأرواح والأشباح والملائكة والشياطين ، انى لا أخافكم فانى منكم ، ويا أيتها القوات الخفية التي أرحمت إلى هذا القول ، انى اشكركم شكر المعترف بفضلك .

نعم ان ديودات يجب ان يموت ، فليمت وولدي شارل يجب ان يموت ، فليمت ويا أيتها الملائكة والشياطين انك ستساعدننى على ترقية ولدي دايجر إلى عرش فرنسا .

ثم نظرت إلى الفلسكي وقالت له :

أرأيت يا رينيه كيف ان السماء نفسها قضت على هذا الرجل **قاضيته** - ولداً ؟

- نعم فلا نعترض القدر ولننذعه بنفذ فيه احكامه . انه عرف انى أمه ولذلك قضى عليه .

نعم يا رينيه انه قضى عليه القضاء المبرم ، كما رأيت في حين انى كنت أعد له أسباب السعادة وامهد له سبيل العرش .

وهذه المرأة يا رينيه وهي ملكة النافار ، قد عرفت سرى ايضاً ، فغلبت عليها بالموت ولا يد ان تموت .

وقد قبضت عليها الآن ولم يبق لها مناص منى .

تعال يا رينيه فإني موضحة لك كل أفكارى .

إني أريد أن أظهر مرة واحدة هذه المملكة التي أعددتها لولدي ، وأريد أن أؤيد السلطة في روما لاعزاز سلطة ولدي .

وقد امتعنت هنري دي نافسار وسبرت غور الأميرال كوليني ودرست أخلاق جميع أرائك الأسياد الذين غص بهم البلاط والمدينة ، فإذا بأمرهم فوضى وكلهم طامعون جائحون إلى الاستقلال ، فإذا اصلحت البلاد فافسنا انقذها من القوضى .

وسأبدأ برأس أولئك الطامعين ، أي ملكة النافسار التي تتولى زعامة البروتستانت .

وهي فوق ذلك تعرف سرى ، فإذا قتلتها دفنت معها سرى وانقذت الكنيسة والمملكة منها .

تعال معي يا رينيه ، فإنك ستجد تسليية عن قتل ولدك باعداد المعدات لقتل هذه المرأة . وما زالت تنادي ديودات ، فمن العدل أن يجمع بينهما الموت .

ثم جذبت الفلسكي كي تخرج به من الغرفة فقال لها : ألا يجب ان تستشير لكواكب

- لا فائدة اليوم من ذلك ، فقد عرفت ما أريد ان أعرفه .

ثم ذهبت واباه إلى غرفته الخاصة بالسموم ، فعملت تخصص مسافيتها حتى انتهت إلى آنية من الزجاج الشفاف فيها كثير من الأدوات المختلفة ، فوقفت عندها وأخذت تنظر إلى إبرة من الذهب كانت في ذلك الاناء فقالت له : مساه هذه الإبرة يا رينيه .

فلبس الفلسكي ابتسام حزن وقال : إنك إذا قطفت ثمرة يا سيدتي وشككتها بهذه الإبرة امنصت ما فيها من السم الزعاف دون أن تعلم أحسد ان الثمرة مشقوبة لدقة الإبرة كما تنظرون ، فمن يأكل هذه الثمرة يشعر بعد

ساعتين بدوار خفيف

ثم يشند الدوار فيموت آكلها بعد ساعات .

حسناً وما هذا السائل في تلك الزجاجاة الصفراء وهو يشبه الزيت

انه زيت حقيقه يا سيدتي ، ولكنه إذا وضع منه بضع نقط في
المصباح الزيتي ووضع المصباح في غرفة النائم بنام حسب عادتكم ، ولكنه لا
يستفيق إلى الأبد

انه خير منوم ، وما هذه الزجاجات الصغيرة المختلفة الألوان

إنها خلاصة روائح أزهار مختلفة كالورد والزنبق والبنفسج ، فإذا
كنت تتزهين مع صديق في حديقة من حدائقك ، وفي هذه الحديقة شجرة
ورد فيستحسن الصديق رائحة ذلك الورد وتقطفين له وردة ، فإذا شمها كان
من الهالكين .

وذلك انك تشقين في الصباح ساق تلك الشجرة ، وتقطرين في الساق
بضع نقط من هذه الزجاجاة المتضمنة عصير الورد ، فينفذ سبها إلى الوردة حتى
انك تستطيعين الاكتفاء بصب نقطة من هذه الزجاجاة على الوردة نفسها ،
ولكن الطريقة الأولى أسلم عاقبة وابعده للشبهات .
كل ذلك سريع القتل ، وما هذا الماء الذي أراه .

هو ماء قراح لا لون له ولا رائحة ، وطريقة استعماله ان تضع منه
ثلاثون نقطة في كل زجاجاة خمر ، وهو أفضل ما اخترعته ليكريس بوجيا .
وقد قلت انه افضل ما اخترعته ، لانه لا يبدع أقل أو في جسم شاربة ،
فإذا تشرف أحد بالجلوس على مائدتك وشرب منه يعود إلى منزله
سليماً معافى .

ولا يبدأ تأثير هذا الشراب فيه إلا بعد شهر ، فيشعر بضعف ثم
يفقد شهية الطعام وتلاشي قواه قباها حتى يموت بعد ثلاثة أشهر ولا يعلم
أحد كيف مات .

انه صالح كما تقولين ، ولكن مدة تأثيره طويلة

يوجد عندي من كل الاصناف ، فلم تريد ان تكون المدة؟

أريد أن تموت ملكة النافار من عشرين إلى ثلاثين يوماً .

ذلك ممكن ، ثم جعل يعرض عليها كل ما كان لديه من طرق الموت حتى
أراها صندوقاً من أبداع ما صنع الصانعون ، وهو صندوق معد لوضع الحلي
والقفازات وغير ذلك من بهارج النساء .

فإذا وضع القفاز أو العقد فيه ساعة سرى السم القاتل إلى ذلك القفاز
والعقد ، فإذا لبستهما ملكة النافار سرى السم إلى جسمها وقتلها قتلاً بطيئاً
في مدة شهر .

فأخذت الملكة ذلك الصندوق ، وقصد فرحت به فرحاً لا يوصف ، ثم
رفعت عيها إلى السماء وقالت :
هكذا يريد الله ، فليكن ما يريد .

ولا تعلم أبلغت منها المرأة في ذلك الساعة أن تعبت بالله أم ان التعصب
قد بلغ منها أشد مبلغ ، بحيث بانث تعتقد ان قتل الأوف من الأبرياء في سبيل
حماية الكنيسة مما يرضي الله . . .
وبعد ذلك أقفل الفلسفي معمله الكيماوي وبانت الملكة ليلتها في ذلك القصر
وهي تبسم المستقبل وتحسب نفسها من أسعد النساء .

مقتدى
الدياليس

كانت تراقبه إلى غابات مرجسي .
وكذلك ابنته لويزا فاتها كانت حزينة لجنون أمها ، وكانت تعتقد أيضاً
نفس اعتقاد أبيها بقرب شفائها .

ولكنها كانت قريبة النفس ، فان تلك الاسرار التي كانت تحيط بولادتها
قد انكشفت واصبحت ولها أب أم كسائر الناس ، لا سيما وقد عرفت أن
إيها من أعظم رجال فرنسا فورة وجاهاً ونفوذاً .

وعلى الجهة فقد كان ذلك اليوم يوماً سعيداً لدى الأب والبيت ، لا سيما وان
جنون حنة كان لطيفاً هادئاً ، وان ظواهرها كانت تدل على الهدوء ، فإنها
كانت تضعك بسرور وارتياح ، كما كانت تضعك حين كانوا يلصقونها
حورية مرجسي .

وفي ذلك اليوم عرف فرنسوا بارداليان الأكبر ، وتصافحا وزالت من
قلبيها آثار تلك الحفرة القديمة وهي حفرة اختطافه لويزا .
وأما ابنه الشغالييه ، فقد لبث على حاله يتظاهر بالسرور والارتياح وهو
متنفس - زين .

وعندما قبل الليل حدث ما لم يتوقعه بارداليان ، وهو ان هنري دي
موغوراني جاء يصحبه اربعون حارساً من حراس الملك فأرجع - راس الدوق
دالمجو واقام مكانهم حراس الملك لحراسة المنزل .

وقد بقي هنري طول تلك الليلة يحول في ذلك الشارع حتى إذا أشرق
النجر أمر أوائك الحراس أن يفتقوا في موقف الهجوم .
وكان أول من رأى هذه التأهبات ، بارداليان الأكبر فنسأدى ولده
والمرشال فرنسوا وقال لهما :

- إن هؤلاء الجنود يتأهبون لاغتصاب المنزل وأخذنا بالقوة ، فإذا فعلوا
دمجوا بطلت ضمانة حنة دي بيانس ، وحق لنا الفرار فالتنازل نسجن أنفسنا
في هذا المنزل إلا لأنها الضامنة لنا

امر الملك

كان اليوم التالي لذلك اليوم الذي وجد فيه فرنسوا موغوراني بنته
وتلك النبية التي كانت امرأته يوماً سادت فيه السكينة في المنزل الذي اجتمعوا
به في شارع موغورو .

وكان المرشال ينظر إلى ابنته فيدهش لجمالها وجلالها ، ويحمن عليها
حنواً غريباً .

ثم ينظر إلى أمها فيزيد اعتقاده رسوخاً ان جنونها عارض وقتي بسبب
مسا أصابها من الفرح الفجائي ، وان الراحة والعناية ستعيدان اليها عقلها
وصحتها معاً .

وذلك انه كان يرى أحياناً من عينيها بعض نظرات تدل على الصواب ،
ولكنه لو علم أن الشقاء قد حفر قلبها ، كما تحفر الصخر نقط الماء لحكم ،
غير حكمه الأول .

غير انه كان لا يريد إلا أن يعتقد بإمكان شفائها .

وكان ينظر اليها أحياناً نظرات الأسف الندم ، ويقول : كيف اعتذر لها
بعد رجوع الصواب اليها عن زواجي بسواها . أما كان يجب ان أبقى وفياً
لمعدها أميناً في حبها ، وان كنت معتقداً بخيانتها .

فيضطرب ولا سيما حين يرى إنها لا تزال جميلة كما كانت في عهد الصبا أيام

فأجابته المارشال قائلاً : اني أرثني رأيتك بشرط ان يهاجموا .

- لا بد لهم من مهاجمتنا فماذا ترفني يا شغالييه .

فأجابته ولده قائلاً : أرى انه يجب على المارشال أن يخرج في الحال من هذا المنزل مع السيدة حنة وابنتها ، وأما نحن فيجب أن نبقى وان ندافع .
فعلم بارداليان الأكبر ما يحول في نفس ولده فعلا به وقال له : ماذا تريد بذلك ، العلك تريد ان تموت .

- نعم يا أبي .

- إذا كنت معاً ، ولكن ألا تسمع ملاحظة من أبيك الشيخ .

- أسمع .

- إنك تريد الموت لأنك لا تستطيع أن تعيش بعيداً عن لوبزا ، وأنا أريد الموت لأني لا أستطيع أن أحيى بعيداً عنك ، ولكن هل أنت واثق من أن لوبزا اقلت منك .

فبرقت عينتا بارداليان ببارق رجاء وقال : ماذا تعني يا أبي .

- أعني انك لم تخطب بنت المارشال بعد .

- ما هذا الجنون يا أبي .

- ربما ، ولكن هل خطبتنا .

- أنت تعلم يقيناً اني لم أفعل .

- إذا يجب ان تفعل .

- معاذ الله فاني أؤثر الف موت على أن أعرض نفسي للفشل والخيبة .

- إذا سأوتب عنك ، وإذا كان هناك خيبة فانا أتحمّل عارها .

- أنت ؟

- نعم أنا ، ليس ذلك من حقي ؟ وفي كل حال فسيحدث أمر من امرين وهما اما أن يرضى بك زوجاً لابنته ويكون قد تشرف بمصاهرتك ، فانت

سيفك أمضى من سيفه ، واسمك شريف نقي من كل وصمة ، واما ان يرفض وعندها تتأهب لذلك السفر الطويل الذي لا نعود منه . . فقل الان أترضى ان تعيش إلى ان يخبيني المارشال بالرفض .

- ليكن ما تريد يا أبي .

فرجع بارداليان الأكبر عند ذلك إلى المارشال وقال له : اني تباحثت مع ولدي ياسيدي المارشال فاتفقنا على أن تذهب انت في الحال مع السيدة حنة وابنتها ، وان نبقى نحن في المنزل إلى أن يهاجموا فنفسد الضيافة ونخرج منه .

فأجابته فرنسوا بلهجة تبين منها صدق العزيمة :

- اني لا أرح هذا المنزل إلا إذا كنتما معي .

ثم نظر إلى الشغالييه وقال : وانت يا بني فاعلم انك إذا لم توافق على الذهاب معنا ، أكرهتني على البقاء وعرضت هاتين البريتشين عند أول هجوم موت هائل .

فارتعش بارداليان .

وقال المارشال : إذا تذهب جميعنا .

فقال بارداليان الأكبر : لم يبق علينا إلا أن ننتظر بدء الهجوم .

ورقف بارداليان في النافذة يراقب ما يكون من الجنود ، فرأى هنري دي مونجورانسى أشار إشارة إلى رجل كان لابساً ملابس سوداء .

فدنا الرجل من باب المنزل واخرج ورقة من جيبه وجعل يقرأ بصوت مرتفع ما يأتي :

والثاني إذا قتلوها شفقهما فيتفرجون على الشسق . ولا جرم لقد فطر
الانسان على الشر .

فلما مضت تلك الساعة اقترب ضابط من الباب فطرقه وقال : إفتحوا
باسم الملك .

وعندها فتحت نافذة وظهر منها وجه بارداليان الأكبر .

فصاح الناس قائلين : هوذا أحدهما إنها سيسلطان .

أما بارداليان فإنه حبي الضابط وقال له :

- الملك تريدون مهاجنتنا ؟

- إلا إذا سلمنا .

- ألا تعلم أننا مضمونان بأذنكم وأنكم تعيشون بهذه الضيافة .

- نعم فيجب أن تسلموا بأمر الملك .

- إن أمر التسليم أمر آخر . إنما أردت أن أخبركم أنكم تعيشون بالضيافة فإذا
شتم مهاجنتنا الآن فافعلوا .

ثم أقبل النافذة بسكينه ويطء بينما كان الضابط بعيد طرقت الباب ويقول :
إفتحوا باسم الملك .

وقد كرر هذا القول ثلاث مرات ، فلما لم يجبه أحد أمر الجنود بكسر
الباب فكسروه بلحظة .

وأمر الضابط الجنود ان يدخلوا إلى ذلك المنزل .

وقد أقاموا نحو ساعتين ، يزبلون العقبان التي وضعها المحصورون
في السلام .

حق إذا أزالوها ودخلوا إلى المنزل وجدوا جميع أبوابه مفتوحة ، فقال
لهم هنري : احذروا لأن ذلك يدل على مكيدة .

فدخل الجنود وجعلوا يفحصون الغرف بملء الحذر ، فلم يجدوا أحداً في
الدور الأول .

باسم الملك

و ان بارداليان وابنه المتهمين بالخيانة والعصيان قد كفلتهما السيدة النبيلة
حنة دي بيانس فأقاما في منزلها .

وقد فسدت ضيافتها لأن هذه السيدة لم تكن عسالة الذنوب السابقة التي
ارتكبها هذان الاثيان .

ولم تكن تأمر بارداليان وابنه ان يسلموا نفسيهما فيسير بها الجنود إلى سجن
التامبل وهناك يحا كان على إمانتها جلالة الملك وإحراقها أحد المنازل ،
ومقاومتها رجال الملك بالقوة المسلحة .

وتأمر جنودها بالقبض على هذين المتمردين وجرحهما إلى السجن مكتوفي
الأيدي والأرجل .

وإذا لم يتمكنوا من اخذها حين فليأخذوها ميتين وليشققا عند باب
السجن كي يكونا عبرة لسواهما من المتمردين .

وتأمر أن يتلى هذا الأمر بصوت مرتفع قرب المنزل الملتجئين إليه وأن
يتم ساعة فإذا لم يسلموا بنقل هذا الأمر .

وبعد ان تلا الرجل هذا الأمر اعاده إلى الضابط وذهب فوقف قرب
هنري دي مونفرانسي الذي كان ملتقاً برده له كي لا يرى .

وقد مضى الأجل المضروب للتسليم وغص الشارع بالمتفرجين ليروا إذا كان
الجنود يأخذون الأسيرين حيين أو ميتين ، وقد كان معظمهم يثمنون ان
يأخذوا ميطان لغرضين ، أحدهما انه لا بد عن ذلك من حدوث معركة
فيتفرجون عليها .

ثم صعدوا إلى الدور الثاني ومعهم هنري .
ولم يجدوا أحداً أيضاً ولكن هنري رأى ذلك المنفذ إلى السطح فصاح بصيعة
غضب ارتج لها المكان وقال : لقد أفلتوا مني .

فدنا منه الضابط وقال : بماذا يأمر مولاي .
- أريد ان تبحثوا البحت الدقيق في هذا المنزل .
فبحثوا ولم يجدوا أحداً .

فخرج هنري مضطرباً فامتطى جواده وسار لواء إلى اللوفر فالتمس الأذن
بقيادة الملك .



وفي خلال ذلك كان فرنسوا وزوجته والنت وبارداليان وابنه قد ذهبوا
جميعهم إلى قصر فرنسوا .

وهناك عقدوا جلسة فقال المارشال لبارداليان وابنه : إنكما ستكوفان هنا
بأمن إذ لا يخطر لأحد أنكما جاثماً إلي .

فهز بارداليان الأصغر رأسه وقال :

- إذا أذن لي مولاي نصحتي أن يبرح باريس هارباً ولو كان وحده لما
نصحتي هذه النصيحة .

فأجاب المارشال قائلاً : لقد أصبت يا شفيالبييه ، لأنني لا أحب أن
أعرض حياة ابنتي وأمها للخطر ، وسأسافر بها الية إلى مونورانسني ،
وأعتمد عليكما بجراسنتا . وحين نصل إلى مونورانسني لا يحسر أحد على
البحث عنكما فيها ، حتى الملك نفسه . لأن جيشاً برمته لا يستطيع التغلب
على الحصن .

وعلى ذلك اتفقوا أن يسافروا حين هجوم الليل .

وفي النهار تداول بارداليان الأكبر مع المارشال في خلوة ، فذهب ابنه إلى
غرفته الخاصة في القصر ، وذهبت لوزا إلى أمها بحيث بقي والد بارداليان
مع المارشال .

ولما رأى لوزا خرجت من الغرفة ، إغتمت بارداليان الأكبر هذه الفرصة
للخول في الحديث فقال :

ما أجل هذه الفتاة وما أسعدك بلقائها .

فأجاب المارشال قائلاً : الحسنى إنني لا أستطيع أن أصف سعادتي ،
بهذا اللقاء .

- أيكمن لمثل هذا الملك الطاهر أن تجد زوجاً خليقاً بها .

فأجاب المارشال بلى ، البساطة قائلاً : إن هذا الزوج موجود .

فارتعش بارداليان وقال في نفسه . وبلاء ، أيكمن أن يكون ولدي مصيباً
في ظني ؟

ومضى المارشال في حديثه فقال :

- نعم ... أعرف رجلاً أعده مثال الشجاعة والذكاء ، وقد روي
لي عنه ، ورأيت بنفسه منه ما دلني أنه من أرائك الأبطال القدماء ،
الذين كانوا في عهد شارلمان . وهذا الرجل سيكون زوجاً لابنتي ، فلا أجد
أخلق منه بها .

- أرجو مولاي ان يعتدني لجرأتي ... لقد وصفت لي هذا الرجل
وصفاً شوقني إلى معرفته ... فهل يكمن ، يا سيدي ، أن أعرف اسم
هذا البطل ؟

- دون شك ، إنني لا أكنم عنك وعن ولدك شيئاً من أمري وسنرى هذا
الزوج ، لأنك ستحضر الزواج دون ريب .

- وما يدعي ؟

- الكونت دي مرجنسي .

وقد ذكر هذا الاسم وحدق به .

أما باردالبيان فإنه ارتعش ارتعاشاً بيناً وقد صعق لهذا التبا فتتمت بكلمات
لا تفهم وذهب إلى ولده فقال له :

- لقد حدثت المارشال

- وماذا قلت له ؟

- سألته إذا كان وجد زوجاً لابنته .. صبراً يا بني . لقد أجبني انه

سيزوجها لرجل يدعى الكونت دي مرجنسي

- أتعرف هذا الرجل يا أبي ؟ ولكن أية فائدة من معرفته ؟

- إني أعرف كونتية مرجنسي فهي مجاورة لمونورانسي وقد كانت تجهزات

فلم يبق منها غير بقعة صغيرة كانت لوالد حنة دي بيانس إلى أن اغتصبها والد
المارشال فرنسوا .

وربما اشترى هذه البقعة واحد من الذين يجهبون الجاه والألقاب كي ينال
بها لقب الكونتية ولكني لا أعرفه .

وساد السكوت هنيهة كان الأب يسير في خلالها ذهاباً وإياباً وهو مضطرب
إلى أن استوففته سكينته ولده فنظر إليه وقال : أبتل هذه السكينته تستقبل
هذا الخبر وأنا أكاد أحسن خوفاً عليك ؟

- وماذا تريد أن أصنع يا أبي ؟ وأي حق لي على المارشال ؟ إني خدمته
في بعض الشؤون ، فكافأني مكافأة لا تخطر في بالك . أتعلم أين أأم في
هذا القصر ؟

إني أأم في هذه الغرفة ، وهي الغرفة التي نام فيها الملك . فلم يتم فيها
بعده سواي . رأنا إلى الآن لا أكاد أجسر على المبيت في هذا الفراش
الملسكي .

فماذا تريد فوق ذلك من المارشال ؟

- حسناً يا بني إذا فللسافر الآن .

- كلا

- كيف ذلك وما يدعوك إلى البقاء هنا بعد ؟

- إن المارشال معتمد علينا في حراسته إلى مونورانسي وسنخفروه إلى أن

يصل إلى حصنه المتبوع ثم نعود فنسافر إلى حيث نشاء .

ولماذا لا يعتمد على الكونت مارجنسي في حراسته .

- إننا سنلاقي هذا الكونت في الطريق دون شك . حتى ولو كان هنا فإني

لا أأذن لأحد أن يصل لوبرا إلى محل أمين سواي ، فهي التي استمالتني في قبل
أن تستغيبت بأحد .

وهي التي ناديتني من نافذة غرفتها كما تنادي الأخت أخاها وأنا لا أكاد أعرف
اسمها فوجب علي حمايتها إلى أن تبلغ الأمان . ولو كره المارشال فلإن يدي
وقلي لها ، فمسي أمنيت عليها سقط السيف من تلك اليد وانقطع الخوف من ذلك
القلب ففضي الأمر .

- أواه كيف لك لم تصغ لنصائحي يا ابني ولو عمات بنصحي لما لقيت
شيئاً من هذا العناء .

- لقد أصبت يا أبي ونحن الآن في غير هذا الموقف ، ولا بد لي من
حراسة المارشال .

غير أنني موافق بأن أخاه هنري سيكيد لنا كيداً عظيماً ، ويضع في
سبيلنا العنبات ، بحيث نحتاج إلى القوة والحيلة ، وهو قد يرسل في
أول مرة .

ذلك أكيد ، ولكني أعرف كثيراً من الأصحاب الأشداء يكونون لنا
خير عون في هذه الشدة . وأرى انه يجب أن أذهب إليهم وأنفق معهم على
مراقبتنا في هذه الرحلة الخطرة .

- أسرع يا أبي لأننا سنسافر في أول الليل .

فلنصرف أوه بعد أن نطرح إليه وحر رأسه ، وجلس باردالبيان على كرسي

في تلك الغرفة التي كانوا يدعونها كرسي الملك ، إذ لم يجلس عليه سواه وناه في مهامه التفكير .

وقد كان بارداليان صادقاً في كل ما قاله لأبيه ، فقد بلغ منه الحب كل مبلغ . ولم يكن يبكي ولا يتنهد ، بل كان غرامه منحصراً في قلبه لا يخرج منه .

وكان هذا البطل يحب الحياة ويرى كل ما فيها جميلاً ويلتمس العذر لكل من يهدد من أهل الشر ، وليس ذلك من قبيل التساهل الفلسفي ، فلم يكن من أهل الفلسفة .

ولكنه كان طيب الفطرة كريم العنصر يعتقد ان المرء مفطور على الخير فاذا أتى شراً فإنا يأتيه مكرهاً مضطراً فلا يمامه بالحقد والكراهة بل بالرحمة والاشفاق ولا يخطر له إلا الخير .

وكان بسيط القلب على شيء من التعجب الشريف .

وهو يحب الثروة ، ولكنه لا يريد ان تكون له إلا لانفاقها في سبيل الخير ونصرة الضعيف ، ولما لم يستطع نصرته بماله أراد ان ينصره بحسامه وإقدامه .

والغريب انه على عرفانه قدر نفسه ، واعتباره أنه مساو للعالم ، لم يكن من أهل الصامع ، بل كانت كل رجائه أن يعيش سعيداً لاسعاد الناس .

ولكنه لقي من هذا الغرام ما أحبب أمانيته ، ومكن من نفسه كره الحياة ، ولما رأى انه لا يستطيع مقاومة هذا الغرام ، عول بسكينة على الموت .

هذا هو الرجل الذي أعجبت به كارين دي مديس ، وهي لا تعجب بأحد ، وتراحم الأمراء على استخدامه ، وأندرت الدوق دالمجو ، وهزأ بملك فرنسا ، وغلب الدوق دالمفيل في جميع المعارك ، واستقبله المارشال فرانسوا كما

يستقبل الملوك .

وعلى الجهة لقد كان مخلصاً وفيماً سموحاً بسيطاً حنوناً قوياً يفتح بحسامه وصفاته سبل المجد وهو لا يعلم .

وقد أخبره أبوه ان المارشال أعد الكونت مارجنسي زوجاً لابنته ، لم يهقد عليه وقال في نفسه : لقد أصاب المارشال لان فقيراً مثلي لا يحق له ان يطمع بزواج وريثة بيت مونغورانسي العظيم .

حتى أنه كان يشفق على لويزا ويقول : أي زوج يستطيع ان يجيها كما أحبها .

وبعد أن تمن ملياً في حاله قال : لقد كفاني ما أنا فيه ، ولم يبق لي صبر على هذا الشقاء ، فاذا طال هذا الأمر أسبوعاً ، أصبحت من غير عقل .

ولكن الأزمة مستفرج لأننا سنكون الليلة في حصن مونغورانسي ، وغداً أعود إلى باريس لمحاكمة أعدائي . ومن ثم ؟
ثم الدوق دالمفيل والفيكونت اسبرمونت عدو أبي وندماء الدوق دالمجو الثلاثة ، ومورفر .

فهم ستة كما أرى وسأدعوم جميعاً للعبارة عند عودتي الى باريس ، ولا بد لواحد منهم أن يقتلني فاستريح .

وحده قاصديه

وأما بارداليان الأكبر فقد ترك ولده ، وذهب تواً إلى فندق دفينير ، كي يدفع ما عليه لصاحب الفندق قبيل السفر ، لأن منطقته كانت لا تزال محسوسة بدنانير جيل ، وهو يعتقد انها دنانير هنري دي مونغورانسي .

فاستقبله صاحب الفندق وامرأته استقبالاً حافلاً ، فقال له بارداليان :
إني قادم بالاندري ، لادفع ديني ودين ولدي ، لانتسا سنبرج باريس
ونديب عنها زمناً طويلاً ، فأهد لي بيان الحساب ، بينما يعد لي الحشم
طعام الغذاء .

فايقسم لاندري وقال : إن البيان مكتوب يا سيدي ، لقد حكنت
أمرتي بكتابته ، ولم يكن يمنعك عن دفعه غير تلك الحوادث
المزعجة .

فضعك بارداليان وقال : إن هذه الحوادث كانت تزعجك بالاندري لأنها
كانت تؤخر دفع حسابك .

— كلا يا سيدي ، فانها لم تكن تزعجني إلا لاني كنت أخاف عليك
هواقيها . لقد تبارزت أول مرة تلك المباراة الهائلة مع أورقيس ، وفي
المرة الثانية مدت يدك الى منطقتك ، ثم اندفعت فجأة اندفاع السهم
إلى الطريق .

— ذلك إني رأيت صديقاً قديماً أحببت ان أحمسه بين ذراعي ، فأمرع
بالاندري بتقديم الحساب قبل ان يمر صديق آخر .

فدخل لاندري مهرولاً إلى غرفة حساباته ، وبقي بارداليان مع امرأته
فقال لها : أنت أيضاً يا سيدي لك حساب على ولدي الشفالييه أتيت لتسديده
لانه لا يستطيع الحضور بنفسه .

فاحمر وجهها وقالت : ليس لي حساب لدى الشفالييه ، وما هو مدين
لي بشيء .

— بل انه مدين لك أيتها الحسنة بالامتنان ، وأنا أتفضل اليك كلامه
بالحرف الواحد .

لقد قال لي عنك أنه غير مدين لك بمال ، بل بقيلتين تدلان على
خالص امتنانه ، وقد عهد إلي أن أقول لك إنه لن ينساك ما بقي لي

قيد الحياة .

فزاد احمرار وجهها وقالت : أهو قال هذا القول ؟

— نعم ، نعم . . . بل فسأل أكثر من ذلك ، فهو ممن لحسن عنابتك به
كل الامتنان .

— اذا كان هو قال هذا القول ، فأنا مدينة له أيضاً ، وسأبرهن عن
امتثالي باقرار .

— قولي لاني سأنقل اليه كلامك .

فتنهدت وقالت قل له إذا إنها تحبه .

فذهل بارداليان وقال : من هي ؟

— لوزا التي يحبها

فوقف بارداليان وقال : هي تحبه ؟

— نعم ، واني واثقة من حبها إياه ، فقل له ذلك ففرح همه ، لقد رأيت
شديد الشقاء . . .

قل له ذلك يا سيدي ، وحين يصبح زوجاً لها ، فليذكر لي أنا أول من
بشره بهذه السعادة .

— تعالي أعانك لقد فرجت هي قبل تفريج هم .

ثم جعل يقبل وجنتيها جل السرور ويقول هذه القبلة مني ، وهذه
من ولدي . . .

إلى ان انتهت هذه القبلات بدخول الزوج ، وقد جاء بقائمة حساب تقع
في عدة صفحات .

فأخذها بارداليان ونظر الى مجموعها فاذا به يبلغ كل ما كان يملكه .

فأسفر وجهه ، ولكنه لم يفه بكلمة ، بل مد يده الى منطقتة ليدفع
الحساب .

وعندها سمع صوت يقول : هذا هو ، لقد ظفرنا به أخيراً .

ثم دخل ثلاثة الى القاعة مشهرين السيوف وانقضوا على بارداليان .
فكان أول ما فعله انه رفس المائدة فقلبها وجرد - سامه فجعل يثقل
صدقات أولئك المهاجمين بثقل قد من الصخر .
وكان هؤلاء الثلاثة كاليس ومونتجرون ومورفر .

فكان كاليس يقول : ليس من بضمك هذه المرة لان امرأة صاحب الفندق
ليست من النبلاء .

وكان مونتجرون يقول : لا زيت عمي يحميك من سيفونا الآن .
وأما مورفر فلم يكن يقول شيئاً ولكنه كان يطعمه الطمعة في أف الطمعة
وهو ساكت لا يتكلم .

وكان بارداليان قد أضعفته تلك الجراح التي أصيب بها في معركة مورفر
فاقتصر على الدفاع دون الهجوم وهو يفتكر بطريقة يتمكن بها من الخلاص .
وقد أصيب بثلاث طمعات بصدرة .

وكان كلما أصيب بطمعة يرمم خطوة الى الوراء ، فيدلو من باب قاعة
كان مفتوحاً .

حتى إذا وصل إلى ذلك الباب رفس مائدة برجله فبانت حائل بينه وبين
مهاجميه وأسرع بالدخول الى القاعة وأحكم إقفال بابها .

وعند ذلك ، خرجت امرأة صاحب الفندق راكضة ، ووارث من
الأنظار .

وصاح الثلاثة صياح الاستبشار قائلين : لقد ظفرتا به فلم يبق له مفر .
وكان لهذه القاعة التي دخل اليها بارداليان بإذن أحدهما المشرف على قاعة
الطعام وهو الذي دخل منه .

والثاني باب يشرف على الطريق .
وكان بارداليان عارفاً بذلك المنفذ فشغل مهاجميه بثقل المائدة كي يتمكن

من الخروج من ذلك الباب .

ولكنه حين أقفل الباب الذي دخل منه وأسرع الى الباب الخارجي ،
وجدته محكم الإقفال وهو شيء لا يمكن كسره خلافاً للباب الذي دخل منه فان
كسره سهل ميسور .

وكان الثلاثة ، بعد أن أراحوا المائدة المنقلبة ، يضربون الباب بأيديهم
وأرجلهم .

فأسرع بارداليان ووضع وراءه كل ما كان في تلك الغرفة من الموائد ، وهو
يعلم ان كل ذلك لا يفيد ولكنه بطيل زمن دخولهم اليه .

وقبها هو على ذلك يتأهب الموت سمع صرير مفتاح في قفل الباب الخارجي
فهرقت عيناه بأشعة الرجاء .

ثم فتح الباب وظهرت منه امرأة صاحب الفندق فتأدق بالإشارة وقالت
له : أسرع بالفرار قبل ان يدركوك .

فأسرع بالفرار وهو يشكرها .
وأقفلت هي الباب وعادت مسرعة إلى قاعة الطعام . فوجدت الثلاثة

قد كسروا الباب الذي دخل منه بارداليان ، وجعلوا يحاولون كسر الباب
الذي خرج منه .

فقال لهم لا حاجة إلى كسره ، فاصبروا هنيئة إلى أن أجيشكم
بالمفتاح .

ولما أنتهم بالمفتاح ورأوا ان الباب يظل على الشارع أيقنوا انه قد نجح ولا
سبيل إلى إداكه .

وأما بارداليان فإنه أسرع إلى خيارة كافي فاجتمع فيها بيمض رجال السيف
من أصحابه واتفق معهم على السفر الهية .



كان بارداليان الأكبر قبل خروجه من قصر مونفورانسي وقبل ان جرى بينه

وبين ابنه ذلك الحديث الذي تقدم ذكره التقى في ذلك القصر بلوزا وأخبرها
أنه مسافر مع ابنه .

ثم تركها وذهب إلى غرفة ولده فتبعته لوزا وقد ضعفت هذا الخبر حواسها
فسمعت من وراء الباب بعض الحديث .

وبعد أن خرج أبوه من الغرفة وأيقنت أنه بات وحده فيها دخلت اليه وهي
ترتمش ارتعاش العصفور كهويته نظرات البازي ، فنظرت إليه نظرة تدل على
السلامة والاضطراب وقالت :

- أحمق إنك مسافر ، ولماذا ؟

فارتعش بارداليان وقال : كيف علمت يا سيدتي إنني مسافر .

- لقد أخبرني أبوك .. ثم إنني سمعت شيئاً من حديثك ، فعلت
أنك مسافر سراً لا عودة منه ... فما هي تلك المدينة التي لا يعود منها
المسافرون ؟

- سيدتي !

- ولماذا تريد السفر ؟ العلك ضجرت من عشرتنا وملاث الإقامة في هذا
القصر مع أبي وأمي ... ومعني ؟

فأطبق بارداليان عينيه وضم يديه وقال :

- كيف أمل الإقامة في هذا القصر ... وهو الفردوس الذي يطعم
به المؤمنون .

- إنك لا تريد أن تسافر ... بل تريد أن تموت .

- هي الحقيقة أيها الملك .

- ولماذا تريد الموت ؟

- لأنني أحبك .

- إذا تريد أن أموت أنا أيضاً .

وقد تكلمت هذه الكلمات الوجيزة ، ولكن روحها كانت تنجم

في عيونها . فتناطى بأفصح لسان ، معربة عما يحسول في قلبها من
الغرام الصادق ، الذي تعجز الكلمات عن بيانه ، فننوب عنها في قبانه
النظرات .

ولم يجد بارداليان أعظم بياناً لحبها من قولها : (إذا تريد أن
أموت) ، فحسب نفسه سالماً ولم يصدق ما سمع ، حتى أعادت لوزا تلك
العبارة قائلة :

- إذا أردت أن تموت أنا أيضاً لاني أحبك .

فرجع بارداليان أمامها وقال :

- لوزا ، إنني سأحبى لقد بت أحب الحياة ولا أدري إذا كنت سعيداً أو
شقيماً بهذا الحب ، وإذا كانت قد فتحت لي فيه أبواب النعم أو أبواب العذاب ،
وإذا كنت في بقعة أم في حلم .
- أحبك .

- نعم تحبيني ، وكل ما في هذا الكون يسداني اني ما خلقت إلا من
أهلك .

نعم إنك تحبيني ولا يسعك إلا مبادلتني هذا الحب لاني أشعر ان قلبي منجذب
إليك يجاذب لا تروه قوة ولا يدفعه سلطان .

ثم حاول ان يتكلم فارتج عليه القول ، وحاولت هي ان تتكلم ، فنلتم
لسانها وأطرق كل منها ببصره ، فلم يحسر ان ينظر إلى الآخر . فتراجعت
لوزا مضطربة وجة وقد هالها هذا الموقف فالتجأت إلى الفرار .

حتى إذا خرجت من الغرفة ، وتجاهرت على أن ترفع بصرها ،
وقفت تضطرب ، وقد نكس الغرام إلى قلبها ، وقفة الهامة أدركها
سهم السباد .

وأما بارداليان فإنه وقف في تلك الغرفة وقفة المهانين ، فجرد حسامه
وداً من الشافذة المشرقة على اللوفر وقصور باريس ، فنظر إليها وجعل يهز

حسامه ويقول :

- يا ملك فرنسا ، ويا سيد مونغورانسي ، ويا دوق دامفيل ، ويا كل قوة في الوجود ، إني أصبحت أعظم منكم ، فأنا الآن سيد الوجود . لندن من الجيوش ، ولتهجم علي الأبطال ، فإني أمزقهم شر ممزق ، لأن سلاحني الحب .

لويزا ... لويزا ... إنك ملكتي قلبي ، فبنت بهذا الاستعداد سيد الملوك

...

وفي الساعة السادسة عاد بارداليان الأكبر فوجد ابنه بلباس الحرب مع المارشال ووجد في ردهة القصر مركبة عظيمة مغلقة .

فنظر الي ابنه نظرة الفاحص ، فوجده مثلبساً بمكينته العادية ، فخلابه وقال له انه جاء بعشرين رجلاً من أصحابه لحراسة المارشال دون أن يعلم .

وبعد هنيئة دخلت لويزا وأمها الي المركبة ، فأحكوا إقفالها وصعد الأمر بالرحيل .

وقد قرروا أن يخرجوا من باب سانت أنطوان كي لا يستلفتوا الأنظار ، ثم يعطفون في طريق مونغورانسي .

فسار المارشال وهو يمتط جواده بجانب باب المركبة الأيمن وسار بارداليان الأصغر بجانب الباب الأيسر وسار أبوه في مقدمة المركبة وفي المؤخرة اتعاشر فارساً من حرس المارشال .

فاجتاز هذا الموكب باريس الي باب سانت أنطوان ، فوصل في الساعة السابعة ، دون أن يستلفت الأنظار ، لتعود الناس مشاهدة مثل

مولاه الفرسان في حراسة النبلاء ، فقال بارداليان في نفسه : لقد سلطنا بحمد الله .

ولكنه حين بلغ الي الباب وأراد الخروج منه في طبيعة الموكب خرج ضابط فأوقفه عن التقدم قائلاً : المرور ممنوع !
فأصفر وجه المارشال وقال : ما هذا ؟

فدنا الضابط منه وقد عرفه فقال له بجل الاحترام : يسومني يا مولاي أن أكون مضطراً الي منعه عن المرور .

- ولكن الباب لا يزال مفتوحاً في هذه الساعة .
- كلا ، يا مولاي ، لقد أقفلناه منذ ساعة . أنظر الي الجسر لقد رفعناه .

فنظر المارشال فرأى ان الجسر مرفوع حقيقة بحيث يتمذر المرور الا اذا أزاله الضابط فقال له : اذا كان هذا الباب قد أقفل قبل الأوان لا بد ان تكون الأبواب الأخرى مفتوحة .

كلا يا مولاي لقد أقفلت كلها في أية ساعة تفتح غداً ؟
لا تفتح غداً ولا بعده .

فقال المارشال وقد تهيج صوته من الغضب : ما هذا الظلم ؟
- انه أمر الملك يا مولاي .

- ما هذا الأمر ؟ .. ألا يمكن الخروج من باريس بعد الآن ، ولا الدخول اليها ؟

- إن الدخول مباح لمن يشاء .. وأما الخروج ، فلا يمكن إلا بإذن خاص

- لا حاجة الي ذلك .

ثم أصدر أمره بالرجوع وهو يقول : ترى من يقصدون بهذا الأمر ؟ العلمهم

يريدون به هنري دي فاغار وأمه وأتباعها .

ورجع وهو يعتقد هذا الاعتقاد .

وعندما صدر الأمر إلى المركبة بالرجوع رأى بارداليان الأكبر جندياً خرج من موقف الجند وفي جيبه رسالة ظاهر طرفها

فقال في نفسه : لاتبعن هذا الجندي عساي أقف على مضمون هذه الرسالة ، لقد رايتي أمرها .

وعندها تراجل عن جواده فدفع زمامه إلى أحد الفرسان وسار في أثر الجندي حتى أدركه في شارع سائت أنطوان .

فسار بجانبه وقال له : ان الحر شديد يتعذر فيه العمل .

فأجاب الجندي : لقد أصبت بل يتعذر السير .

- ما تقول في قتيبة خير باردة .

- ان شربها خير ما يعمل في هذا الحر فهي خير ما يقتل الظمأ .

- هلم نشربها على صحة الملك .

- هذا أفصى ما أتناه .

- إذا لدخل إلى الحارة .

- ليس الآن يا سيدي .

- كيف ذلك أتشرب غداً اذا ظمنت الآن ؟

فتلجلج لسان الجندي لهذا الجواب المفعم ثم قال : ولكني ذاهب في مهمة لا بد من قضائها الآن .

- إلى أين ؟

فنظر الجندي إلى بارداليان نظرة ارقباب وقال : أهلك يا سيدي أن تعلم إلى أين ذاهب ؟

- كلا غير اني كنت جندياً مثلك فأشفت عليك وخشيت ان تكون ذاهباً إلى محل بعيد .

- لقد أصبت يا سيدي فلاني ذاهب إلى التامبل .

- إلى السجن ؟

- كلا بل إلى ضواحيه .

فارتعش بارداليان وواصل السير معه وهو يفكر ثم قال له فجأة : أتريد ان أقول لك إلى أين أنت ذاهب ؟

- قل ..

- إنك ذاهب إلى قصر مسيم .

فذهل الجندي وقال له : كيف عرفت هذا ..

- من الكتاب البارز من جيبك فأحذر عليه لأنه سيقع .

وعندها أسرع بارداليان وأخذ الكتاب من جيبه ونظر إليه نظرة سريعة فرأى مكتوب على غلافه هذا العنوان :

« إلى النبوق دامقيل في قصره »

وفد نظر بارداليان إلى ما حوالبه فرأى الشارع غاصاً بالناس ..

ثم رأى شردمة من الجند ، فأيقن أنه يستحيل عليه الفرار بالكتاب فردد إلى الجندي ، ولكنه لاحظ أن ختمه غير محكم كأنه قد صكتب بسرعة .

وعاد إلى مواصلة السير مع الجندي ، وهو عاجز على أن لا يدعه حتى يفوز منه بجواده .

غير ان الجندي اوجس خيفة منه كما يظهر فقال له :

- أرجوك المعذرة يا سيدي ، فإن هذا الكتاب يجب أن يصل بأقرب حين ولا بد لي من أن أركض .

ثم تركه وجعل يركض في الشارع والكتاب بيده .

غير ان هذا الجندي إذا كان عنيداً فقد لقي من هو أشد منه عناداً ، لأن بارداليان جعل يركض في أثره أيضاً ويناديه قائلاً :

- أياها الصديق أريد أن تكسب مائة دينار .

فأعمن الجندي في الركض وقال :

- كلا ..

- مائتين ..

- كلا ..

- خمسين ..

- دعني أياها الرجل أو استغيب .

- ألف دينار .

فوقف الجندي وهو يلهث من التعب وقال له بصوت مضطرب : ماذا

تريد مني ؟

- أريد أن أعطيك ألف دينار ... بشرط أن تدعني أقرأ هذا

الكتاب ..

- ولكني لا أبيع حياتي بألف دينار فاتهم بشقوني بعد هذه الحياة

بلا ريب .

- إذا كان الأمر خطيراً كما يظهر فإني أعطيك ألفين .

فهانت الخيانة على الجندي وغره الطمع .

وأسرع بارداليان وقال له إننا ندخل إلى أول حجارة فثوب زجاجية

خر واقراً الرسالة .. ثم أعيد ختمها إلى ما كان عليه فلا يعلم أحد أنها

فتحت وتقبض أنت المال .

فأجاب بصوت مضطرب كلا فإن ضابطي أُنذرتي بالشتى إذا فتحت

مفي الرسالة

- من أنبأك أياها الأبله أنها تفقد منك .

- كلا ، كلا .

- إذا ، أعطيك ثلاثة آلاف دينار وهي روية .

ثم أخذ بيده ودخل به إلى الحجارة فأصفر وجه الجندي ، ثم احمر وجعل

العرق ينصب من جبينه وقال له :

أحق ما تقول ؟

فتتح بارداليان منطقتة وجعل يخرج منها الذهب فيضعه على المائدة ويقول

للجندي عد الدنانير .

ولم يكن الجندي قد رأى في حياته مثل هذه الأكداس من الذهب فدفع

الرسالة إلى بارداليان وجعل يأخذ ويضع في جيوبه دون عد ولا حساب وهو

متشغل بحسب نفسه من الحاملين .

ثم نهض كأنه قد أصيب يحنون فخرج من الحجارة وتوارى عن الأنظار .

أما بارداليان فإنه هن كنفه وفتح الرسالة بسكينه فقرأ ما يأتي :

« مولاي

جاءت مركبة سفر مغلقة إلى باب سانت انطوان وكان يخفها اثنا عشر

فارساً معهم المارشال دي مونغورانسي .

وقد ظهر لي انه اساء اسبياً شديداً إذ لم يتمكن من المرور وكان يصعبه

أيضاً الرجلان اللذان وصفتها لي .

« فأرسلت من يقضي أمر المركبة واطنفا عادت إلى قصر مونغورانسي .

ورجائي يا مولاي ان تحرقوا هذه الرسالة حين وصولها إليكم ، وان لا

تسوا من إرسالها ،

فقال بارداليان في نفسه لقد عرفت الآن ذلك المعنى بأمر الملك وقد ذهبت

دنانير لاندري كما اتت ولكن لا بأس فهو غني يستطيع الانتظار .

وعند ذلك خرج من الحجارة وسار عائداً إلى قصر مونغورانسي .

أما هنري دي مونغورانسي فقد وردته تلك اللبية الرسائل من جميع حراس

ابواب باريس كلها تتضمن الإشارة إلى ان المارشال فرانسوا مونغورانسي وبارداليان

وابنه لم يحضروا .

وحده قاضييه

فلم يبق غير حارس باب سانت انطوان لم تصله رسالته ، لأنها وقعت في يد بارداليان .

وعلى ذلك فقد بات المارشال فرنسوا وحنة ولويزا وبارداليان وابنة امري في باريس فان هنري دي مونمورانسي الذي كان يأتمر على قتل الملك كان من أقرب المقربين اليه .

وكان له عنده حظوة فان الملك كان يعده من اركان الدولة والكنيسة وقد تمكن بدعائه من ان يدعه يعهد اليه بتفتيش ابواب المدينة مدة ثلاثة اشهر وان تكون له الكلمة التافذة على حراسها ، فقد كان من السهل اقتناع الملك في ذلك العهد المضطرب على وجوب المراقبة فعهد اليه بهذه المهمة التي غداها الحاكم العسكري في المدينة .

ولا تنتضي هذه المهمة الا يوم زواج هنري دي نافار بأخت الملك وحين يسافر الجيش إلى هولندا ويسير معه جميع الهوكنوت بحيث بات هنري الحاكم المطلق على ابواب باريس لا يخرج منها أحد دون امره .

وقد مرت الأيام في قصر المارشال فرنسوا دون حادث فقد قرروا البقاء في القصر ، لأن اغتصاب ابواب باريس من المحال ولا يد لهذه الأبواب ان تفتح فيقتنمون الفرصة ويسافرون .

ومر على ذلك خمسة عشر يوماً كان بارداليان وابنه بطرفان في خلاها باريس مع الحذر الشديد كي لا يراهما الأعداء .

وقد خرج يوماً بارداليان الأكبر وحده فلما عاد في المساء إلى القصر وجد في غرفة البواب جيلوت ابن أخت جيل وكييل الدوق دامفيل .

فدخل إلى غرفة البواب مضطرباً وقال له ماذا تعمل هنا ايها الشقي .

- إني قادم يا سيدي .

- انك قادم لتجسس ايها التمس ومسا زال الامر هكذا فسانفسد فيك عقابي الذي انذرتك به .

- اصغ إلي يا سيدي . . .

- كلالا أريد أن اسمعك وسأقطع أذنيك .

فدنا جيلوت منه وقال له :

- اني لا أخافك .

ثم نزع قبعة كبيرة كانت تسفر أذنيه فدهش بارداليان إذ رأى انه بدون أذنين . . .

ثم ضحك ضحكاً عالياً . . .

فقال له جيلوت : أرأيت يا سيدي كيف اني لا أخاف فطخ اذني وهما مقطوعتان .

- ومن الذي قطعهما . . .

- خالي نفسه ، فانه بعد أن عاد الدوق دامفيل أخسبره بجياني . . .
واني بحت بسره لك ، حذراً من أن تقطع اذني فقال له : واذن . . .
أقطع اذنيه .

وعندهما نفذ هذا الأمر الهائل ، وما كنت أظن خالي يقدم على هذه الجريمة .

وبعد ذلك أغمي علي فالتفتي خارج القصر وانا في حالة الاغماء فلتفتني امرأة وأشفت علي فعايجتني حتى شفيت .

والآن ماذا أتيت تعمل هنا .

- أتيت للدخول في خدمتك كي انتقم من خالي ، ومن الدوق دامفيل ، وأوسعد لك ، يا سيدي ، انك لا تسدم باستخدامي ، لأنني سأفيدك فوق

ما تظن .

- لا شك عندي في هذا .

- واني لا أطلب مقابل هذه الخدمة غير أمر واحد .

- ما هو ؟

- هو أن تساعدني على الانتقام من الدوق دامفيل الذي أمر بقطع أذني ،

ومن خالي الذي نفذ بيده الأثيمة هذا الأمر .

فقال بارداليان في نفسه : لا شك ان هذا الرجل سيدفعه حسب الانتقام

الى الاخلاص في خدمتي ثم قال له :

- حسناً لقد رضيت بخدمتك وبشرطك ؟

فاتقدت عيننا جيولوت ببارق من السرور لو رآه بارداليان لعاوده

الريب ، ولكنه لم ينتبه له ، وأشار الى جيولوت ان يتبعه ، ودخل الى

القصر وجيولوت يتبعه ، وهو يجرق الازم من القبط ويقول : سوف يرى خالي

كيف يكون الانتقام .

- ٢١ -

بدء العاصفة

بعد ان عاد الملك الى عاصمة بلاده بمشرين يوماً احتفل بخطبة هنري دي
نقار واخته مرغريت .

وكان الاحتفال في اللوفر فخيماً ، لم يسبق حدوث مثله منذ عهد
فرنسوا الأول .

فرقصت نساء الهوكينوت مع رجال الكاثوليك وتغنوا في الاحتفال ،
فجروا به الى أبعد غاياته الممكنة في ذاك العصر .

وكان هنري دي نقار يظهر افتتاحه بخطيبته مرغريت ، وهو مرتد
باجل الملابس .

والآن فلنبسط حوادث تلك الليلة الهائلة بالتفصيل ، لأنها تستحق
العناية ..

كان اللوفر مزيناً إبداع زينة وقد تلالأت فيه الأنوار حتى بات يظهر
للرائي انه كتلة من نور .

وكانت اصوات الضحك والفناء تخرج من جميع القاعات فيحمل الهواء
صداعها الى جماهير الناس المحتشدة عند أبواب اللوفر كالتمل

وفي وسط هذا الشعب فرق من حملة البنادق كالت مدقة باللوافر كما تحرق
الأمواج بالصخور .

ولم يكن ازدحام الشعب لمجرد التفوج على الحفلة ، فقد كان أكثرهم مسلحين مدرعين ، كأنهم سائقون الى حرب ، مع ان الملك كان قد اصدر كثيراً من الاوامر القاضية بمنع حمل السلاح .

ولكن لم يحفلوا بأوامر الملك تلك اللينة كما يظهر ، فانهم كلوا يتساقون جماعات جماعات ويصيحون بملء اصواتهم قائلين :
لتحيى الكنيسة ، وليمت الهوكينوت !

وقد كان الملك في بدء هذه الليلة مختلياً في قاعة من قاعات اللوفر مع امه ولهذا القاعة مطل يشرف على نهر السين وضفته اليسرى .
وقد وقف الملك وهو يلبسه السوداء في هذا المثل ، وجعل ينظر الى نور كان يتألق من جهة بعيدة .

وأمه واقفة بجانبه تبسم ابتساماً هائلاً ، وتتنظر مثله الى هذا النور ، بل الى هذه النار .

فقال لها الملك ، لماذا جئت بي الى هنا يا أماء ؟

— لأريك هذه النار يا بني .

— العمل الباريسيين اشعلوها قصد الزينة ؟

— كلا ، بل إنهم يحرقون منزلاً يحسبون الهوكينوت مقيمين فيه .

انظر أيضاً إلى الجهة اليسرى من هذه النار تجد نارا تشبهها ، فإذا استعدوا على ذلك أحرقوا باريس .

فاحمر وجه شارل التاسع ، وظهرت عليه علامات الغضب .

فقال له أمه : إني أخاف أن يدفع بهم التعمس إلى إحراق اللوفر ، فهم يعلمون أن أعظم الهوكينوت فيه .

— قسماً بدم المسيح إني سأصدر الأمر بإطلاق الرصاص على هؤلاء الأجلال الذين يحرقون بيوت الناس وهم آمنون .
ثم التفت ونادى رئيس حراسه .

وحده قاضيه

فأمسكت كلارين يده وقالت له : ماذا تفعل يا شارل الملك جنت ؟

أريد أن تضرم نار العصيان في باريس ، احميت فلا ترى أن عرشك يتقلقل تحت قدميك ، وأن تاجك يهتز فوق رأسك ، وانك إذا لم تحذر لنفسك كالت الملكة كلها عليك .

فارتعد الملك وقال : ماذا تقولين يا أماء ؟

— أقول الحقيقة يا بني ، فان الشعب فائر هائج علينا لعقده الصلح مع الهوكينوت .

ثم تر مسا كان منهم حين اعطيت الهوكينوت روشيل ، ثم الا ترى كيف بانت الوجوه كالخسة والتنظر شذراً بعد ان جساء هنري دي نافار وأمه وأعرانه .

انظر يا بني . انظر إلى السنة النار كيف تندلع ، وإلى دخانها كيف يطبق شان السماء ويمقد غمامة سوداء فوق باريس .

هذا هو يا بني جواب الباريسيين على خطبة اخنك لملك النافار .

انك تنظر إلى السماء فلا ترى نجماً لكثافة الدخان ، وقد تحولت باريس إلى جهنم .

فاصطكت اسنان شارل من الخوف ، ورأت كلارين إنها تضغط عليه كما تشاء فقالت :

أصغ إلي يا شارل فانك تعلم ما كان من رغبتني واندفاعي في سبيل السلم حتى إني طأطأت الرأس أمام ملكة النافار المتكبرة ، بل انت تعلم إني أنا التي اقترحت مصاهرة ملك النافار تأييداً لأركان ذلك السلم .

ذلك انت حب السلم اعمى بصيرتي في ذلك الحين ، وحسبت ان عقده بين الكاثوليك والهوكينوت من الممكنات .

ولكني كنت غطشة وأرى الآن ان هاتين القوتين لا تولا تنازعا سيادة حتى تقضي احدهما الأخرى .

ولكن الكنيسة لا تغلب يا بني ورومة لا تذل ولا تنزع للفرنج ،
فلا يسد إذن من سحق مبدأ الهوكينوت ، والويل لمن يساعده فان
يسحق معه .

- لقد ارجعتني يا اماء ، ولكن يستحيل ان يتم ما تقولين فاني لا اطيق
سفك الدماء .

- كيف تقول مستحيل يا بني ، ألم تقرأ رسائل جميع الممالك التي وردتنا
برأسطة السفراء ؟

ألم تقرأ ما كتبه الينا ملك اسبانيا حيث قال : انه يعد جيشاً عرمرماً
لتأييد مملكة الله التي اضعفها ضعفنا .
- في احارب الاسبان .

- وإذا حاربت الاسبان فبماذا تحجب ممالك فينيسيا وبارم وماتو وسائر
ممالك اوربا من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب فانها يجمعتها
تتوعدنا

- في احارب اوربا بأسرها إذا اقتضت الحال .

- وإذا حاربت اوربا المحارب الحبر الأعظم وتحتمل حرمة ؟

- ان البابا هو البابا .. واما انا فاني ملك فرنسا .. كفى يا اماء ، فقد
اردت السلم في مملكتي ولا يسد ان يكون ما اردت ، فاني احارب في سبيل
اوربا والحبر الأعظم وكل ممالك الأرض .

- وبماذا تحاربهم ؟

- مجبوشي ونبلاتي وشعبي .

- شعبك .. تعال واسمع ما يريدك شعبك ، فقد بالغنا في الاميال السلية
حتى بات الشعب ارده .

ثم اخذت بيده وسارت به إلى قاعة متسعة تشرف على الجهة المقابلة للدين
وقالت له : وهما في الطريق .

على من تعتمد من النبلاء ، على الدوق دي كيز ولا ادري ماذا يكيد لنا
بالسر ، أم على فرنسوا مونجورانسي وهو حاسب نفسه في قصره ليصغي
العصاة التمردين .
- من هم اولئك العصاة .

- ريجلان حاربا حراسك في قارعة الطريق امام الناس واهانك واهاناتي
في قلب اللوفر وهما باردالبيان وابنه اللذان تمردا على الملك وعجز الملك عن
القبض عليهما .

- تقولين ان مونجورانسي يحميها .

- نعم يا بني وان كل من تعتمد عليهم من نبلائك على شاكفة هذا التيبيل ،
واما شعبك فتعال واسمع ما يقولون .

ثم سارت به إلى نافذة مفتوحة فرأى منها الوف الناس امام اللوفر وهم
يسبحون بأشد تحمس قائلين :

انحس الكنيسة .. ليمت الهوكينوت !

ولكن هذه الأصوات كانت يملو عليها اصوات اخرى من حين إلى
حين ، وهي :

ليجسي الدوق دي كيز .. ليجسي قائدا العام !

فالتفت الملك إلى امه متذعراً وقال : من هو هذا القائد العام ؟

- لقد ذكره لك شعبك فهو هنري دي كيز .

- اية قيادة يشوئ ؟

- قيادة جنود الكاثوليك .

- ما هذه الأقوال يا اماء ، وابن الجنود الكاثوليكيون ومن حشدهم ؟

- اراك يا بني كأنك قد فقدت الهدى ، الا تعلم ان هؤلاء الجنود هم

الملكة بأسرها . انهم الاسياد الذين باتقون ان يعامل الهوكينوت كما يعاملون

وانهم العامة الذين يعتبرون مبدأ الهوكينوت بدعة في الدين .

(٢٠) ادهليان (٢٤)

وعلى ذلك ترى ان هذا الجند هو المملكة بأسرها . وهذا الجند يطلب ان يكون قائده العام دي كيز لان الملك ابن ان يتولى هذه القيادة .
فأقبل شارل النافذة ببسء ترجمف ، وجعل يسير في القاعة بأقدام مضطربة ويقول :

وحده

قاصديه

- ماذا تفعل .. لقد اسقط في يدي ، ماذا اصنع .

- تفعل ما يدعوك اليه واجب الملك والدين .

- ماذا اسمع .. تريد ان اخون كولينني ذلك الشيخ الجليل الذي يكنى

سروراً حين دعوته بي . ام تريد ان اخون هنري دي ثافار ، وقد ربطنا

مصاهرتي بصلة الاخاء .

كلا ، اني لا افعل . افعلوا ما تشاؤون فان يدي بريئة من هذه الآثام .

فارتدشت الملكة سروراً ، ولكن هذا الأمر الذي خرج من فم الملك في

مثل تلك الساعة لم يكفها ، فددت من ولدها فأخذت يده بين يديها ونظرت

اليه نظرات المشفق النصوح وقالت :

شارل ، ان طيب قلبك سيؤدي إلى هلاكك . الا ترى انك ادخلت

الداهية إلى باريس دون ان تعلم .

وانت تقول انك تقيدت مع هنري دي ثافار بصلة اخاء ، اتدري أين كان

هذا الداهية حين كنت تحسب قبل سفرك إلى بلوا انه في معسكر روشيل .

- أين كان ؟

- انه كان في باريس مع كونديه وكولينني واندلوت ، اتعلم ما كانت غايته

من الهيمه اليها ؟

- كلا .

- انه اتى اليها ليأثر فيها على قتلك ويستوي على عرشك .

فاصفر وجه الملك اصفراراً شديداً حتى خشيت أمه ان تبدر منه بادرة

غضب نفسد جميع امرها فدنت منه ومسحت في اذنه قائلة :

احذر ان تفوه بكلمة أو تشير بإشارة بفهم منها اولئك الهوكينوت انك

عارف بالحقيقة ، وانكم هذا الأمر بضعة أيام أو نهلك جميعنا .

ثم ركنته وتزلت من سلم سرري الى غرفتها فتادت شادمتها وامرمتها ان

تدعو لها مورفر .

فامرعت الخادمة ولم تكن هنيهة حتى عادت به .

فايقنت له الملكة الطف ابقسام وقسالت له : اني اراك من اصدق

الاقرباء في خدمتنا يا مورفر ، فما طلبتلك حين الشدة الا وجدتك .

- ان جلالة الملكة تقمرني باحسانها .

- كلا ، بل اقول الحقيقة اظهاراً لاعجابي بأصدقائك ولدي الذي بات ناجح

يتفائل لكثرة الطامعين فيه .

- إذا كانت حياتي باسيدي ، كافية لتزويد هذا التاج فساني مستعد

لتضحيته .

وقد كان مورفر هذا من أتباع الدوق دالمجو في البدء ، وهو الذي قدمه

لأمه ، وكان عارفاً بأسرار جميع أهل البلاط ، موالياً للطامعين بالعرش ،

وهو شديد الطمع بالمال .

وكان يخون الدوق دالمجو لخدمة دي كيز ، ويخون دي كيز في خدمة الملك

ويخون الملك في خدمة أمه .

وعلى الجملة فقد كان يخون الجميع بالسر وهو موال للجميع .

ولما صبح الملكة تذكر له خوفها على تاج ولدها ، وهو عارف بؤامرة دي

كيز إذ كان من أعضائها ، خطر له أن الملكة وافقت على سر هذه المؤامرة

فقال في نفسه :

انه إذا كان ذلك وأرادت أن تقبض علي مجبت عليها فغفقتها وأخبرت

الملك ان امه كانت تريد قتله لتولية أخيه مكانه .

ولذلك أجابها قائلاً : اني مستعد لكل شيء يا سيدتي .

قالت : اني أعرف منك هذه المروءة والبسالة ، ولذلك كنت أختاروك
للشائد ، والآن فأعلم ان لي أعداء ، اي ان لولدي أعداء .

- أي ولد تعني جلاتك من اولادها .

فقالت الملكة في نفسها : ما كنت أظن ان هذا الحبيث يدرك حقيقة
أفكاري .

ثم تهتت وقالت له : أي ولد تريد ان أعنيه غير الملك ، ذلك المسكين
المريض .

- لقد كنت يا سيدتي ولا أزال من أصدق خدم الدوق داهجو ، فلما ذكرت
جلاتك ولدها تبادل إلى ذهني الدوق ونسيت الملك .

- إنني أحب يا مورفر جميع اولادي على السواء .. لأن الأم الصالحة لا
تفرق بين أبنائها ، ومضى حشر الله نفس ولدي شارل بين ابراره الصالحين ،
ورفي مكانه أخوه هنري ، يسرني أن أرى من حوله أمثالك من المخلصين
لعرضه ، ولكن الانستطيع ان نخلص لشارل نفس إخلاصك لهنري .

- سيدتي اني لم أرد بما قلته إلا ان أظهر لجلاتك ان حبساني وقف على
إرادة مولاي الدوق .

أما إذا كان جلالة الملك محتاج إلى خدماتي وجب علي أن أخدم جلالتك
فاني من رعاياه .

- إنك يا مورفر من أهل الشجاعة والوفاء ، وإذا كنت تمثلي في التكفل
بأزواجك ، أما وقد أظهرت لي إرادتك بخدمة الملك ، فأنا مظهرة لك
أعداءه .

- تفضلي يا سيدتي بقول ما تشائين فان ما تتنازلين إلى إباحتك من الأمر
لا يبوح به لساني ما حبيت .

- اني واثقة من ثقتكم ولكني أحب ان أمالك قبل ذلك فقل لي ، ألم
يخطر لك اسم احد أولئك الأعداء الذين سادكمم لك .

اتعنين يا سيدتي الدوق دي كيز ؟

فاتفقت عينا الملكة بلهب ولكن البارق انطلقا مسرعا كما اتفقت وقالت :
مماذا ان ان يكون دي كيز من أعداءنا .

- العمل جلالة الملكة تعني المارشال دامفيل .

- ولا ذلك فان هذا المارشال قد عهدنا اليه محافظة المدينة وهو من
أخلص أصدقائنا .

- إذآ من الذي تعنيه جلاتك ، العلهما تريد به ذلك الرجل الذي يتولى
زعامة المستائين ، ويحتجب عن البلاط إشارة إلى عدم الاهتمام بشؤونه ، وهو
يضمز اقبح المطامع .

- نعم ان قرنسوا مونفورانسني هذا من اعدائنا ولكننا سننظر في أمره
في فرصة اخرى .

- إذآ من هم أعداء الملك يا سيدتي فإني لا أعرف غير من ذكرت .

- بل أنا تعلم يا مورفر أن الملك ابن الكنيسة الأكبر .

- يظهر ان جلاتك يا سيدتي تعنين بأعداء الملك اولئك الهوكينوت .
ولكن الملك نفسه اعلن مسالمتهم وانتم يا سيدتي عانقت ملكة النافار .

- هو ذلك ، ولكن الهوكينوت لا يزالون بأنفوسهم علينا بالرغم عن
إخلاصنا بمسالمتهم ، فان الاميرال كوليني افرغ ثكناتنا من الجنود والسلاح
بجدة المرة الحرب على دوق البيا ، والله يعلم ما يضمز من هذا ، فاني مضطربة
يا مورفر خوفاً على ولدي .

- لماذا لا تأمر سيدتي بالقبض على هذا الاميرال فيتفرق شمل جيش
الهوكينوت ويرتاح سرها .

- فأجابته الملكة بلهجة بأس : لقد فات الأوان يا مورفر ، ومن يجسر الآن
ان يقبض على الاميرال ؟

- أنا !

- أنت ؟

- وماذا يعني يا سيدتي عن القبض عليه ؟ فليصدر الملك أمره أقبض على الأميرال في وسط الحفلة .

- ولكنها تكون فضيحة لم يسبق لها مثيل .

- كلا ، ان هذا محال وإني لاشك اشقى الملكات ...

- أو اه لو أجاب الله القاسي لنجا الملك والمملكة والكنيسة .

ولكن الله مغمض عني يريد تجرئتنا ، ولولا هذا لأصاب الأميرال كوليني

بجرحى محرقة فقتله ونجونا من الفضيحة .. أفهمت .

ولكن يظهر وأسفاه ان الفوز سيكون للهوكينوت ، وستكون صلاتنا

باللغة الفرنسية بدلاً من اللاتينية ، فان الأميرال لا يزال ممافى ، فلم يصب

بجرحى ولا بجراحات آخر

فابتسم مورفر وقد فهم قصد الملكة منذ بدء حديثها ، ولكنه كان يبغي

الحصول على أمر صريح فقال لها : ماذا تعنين بالجراحات الآخر يا سيدتي ؟

- ان يسقط مثلاً حجر من السقف على رأسه فيقتله .

- ولكن هذا الحجر لا بد له من يد تسقطه .

- وابن أجد هذه اليد ؟ قل يا مورفر ما تريد قوله دون خوف .

- إني لا أعدم يا سيدتي صديقاً يحسن الرماية فيطلق على الأميرال غدارة

تفعل فعل ذلك الحجر .

- هذا كل ما نبقيه ونمنحمن مكافأة صاحب هذه الغدارة الذي ينقذ

الملك والكنيسة مما يندرها من الأخطار .

- إذا لتطمئن سيدتي فان كلمة واحدة اقولها لهذا الصديق تكفي .

- ولكن كيف يثقل هذا الصديق .

- بإسبغ الطرق وإبدها عن الفضائح ، وهي انه يتربص بخروج الأميرال

من اللوفر ، فانه يخرج كل يوم في ساعة معينة ويعود إلى قصره ، فيمكن له .

- ولكن أين يمكن له .

في منزل في الطريق مقفل النوافذ والأبواب فيطلق الرصاص عليه من

نافذة المنزل فيقتله دون أن يعلم أحد بأمره ، ودون أن يسأل عن مقتله أحد ،

وتكون جلاتك أول الأسفين عليه .

- وسنكافي ، صديقك خير مكافأة ، فقل كم يجب أن نعطيه .

- لا تشغلي بالك يا سيدتي فإني سأكون معه ، ولدي خمسون ألف فرنك

أدفعها له كي لا تضطرب يده فيخطيء الرمي .

- كلا لا أريد أن ندفع شيئاً من مالك ، وهذه حوالة على الخزينة بنصف

القيمة فأقبضها وأدفعها له .

فأخذ مورفر الحوالة فوضعها في جيبه .

فدالت له الملكة : وبعد التنفيذ ندفع الباقي .. أترى كيف إني لا اساوئك

في مكافأة اصدقائك فاخبر هذا الصديق إني محتاجة اليه .

خذ من يا سيدتي ؟

- سأقول لك ، ولكن أعلم ان هذا الأمر لا يتعلق بالملك ولا بالكنيسة ،

بل برجلين ولا سبياً واحد منها فإنتا لولاه لم نبلغ ولم يكن للهوكينوت جيش ،

ولم يحطف ملك النافار ابنتي ، ولم تمت حفلة الليلة في اللوفر .. ان هذا الرجل

انقذ ملكة النافار من موت كان محتملاً فأفسد كل خطتي ، بل انه يتولى حماية

رجل حياته هائلة علي ، بل انه هزأ بي مرتين ، وأنا أكرهه وأكره أباه ،

ولم أبع هذا السم لسواك يا مورفر فأقبلها اكافئك عن قتلها بيملك كونتا ،

بل أزيدك على ذلك مائة ألف فرنك عن كل قتيل منهما .

- يظهر انها من كبار أصحاب النفوذ .

- بل هما شقيان فقيران ، ولكنها قدا من الحديد بل هما أعجب من

رأيت فبيضا نحسب انها قتلا ، نجد انها قد انبعثا في اليوم التالي ، وبينما

نحرقهما في منزل نجدهما عائشين آمنين في منزل آخر ، وقد حضرت يا مورفر

معاركها . وحضرت إحراقها في الحجارة وحصارها في شارع مونغارو ، بل
حضرت ما كان من احدهما هنا في الوفير .

ظهرت علائم القضب بين عيني مورفر وقال لها :
- إنك تعنين يا سيدي بارداليان واذا .
- هو ذاك وهما الآن .

- في قصر مونغورانسني فاني اقفو خطوات هذين الرجلين وسلفهين
يا سيدي لما ستمعيه بشأنها فاني لا اريد مكافأة عن قتلها ، بل اني اضحي
حياتي في سبيل القبض عليها وخنقها بيدي .

- يظهر إنها اسما اليك ايضاً يا مورفر .
فلم يجيبها مورفر ولكنه أشار إلى خده .
فأرت الملكة أو سيف بارداليان وقالت :
- انه اتر خالدا يا مورفر لا يزول .

- نعم يا سيدي ، وقد قتلت ثلاثة رجال لأنهم نظروا نظرة هرة إلى
هذا الأقر .

ثم انحنى أمام الملكة وقال : اتأذنت لي مولاتي بالانصراف .
- اذهب يا مورفر وبعد فورك سل ما تشاء دون خوف فانك ستجيب
إلى كل ما تطلب .

فانصرف مورفر . وقالت الملكة في نفسها : لقد قضيت شأن كوليني
وبارداليان ، فلتنظر الآن في شأن ملكة النافار .

ثم نادى خادماتها وامرتها ان تدخل رجلاً آخر كان ينتظر منذ حين
صدور الامر اليه بالدخول .

واما مورفر فإنه دخل إلى تلك القاعات الفاسدة بجهايم المدعويين ، وهم
يزيدون على عشرة آلاف .

فما زال يسير من قاعة إلى قاعة حتى التقى بالدوق دي كيز والناس من

حواله يجلونه فوق اجلال الملك .
فلما رآه الدوق دي كيز ، ناداه فخلاً به وقال له :
- ماذا تريد منك الملكة .

- اصدرت الي امرها بقتل كوليني .
فارتض الدوق وقال : انها تحاول ان تسبقنا .
ثم صمت هنيهة مفكراً وقال :
- وماذا وعدت ؟
- ان اقتل الاميرال .

وظهرت علائم التردد على الدوق ولكنه هز رأسه وقال :
- لا بأس ، ولكن يجب ان تنتظر الى ان اجسد الفرصة المناسبة .
اولت . لا تقنه قبل ان يصدر اليك امرى .
- سأمتثل .

- ثم اني اذا امرتك ان تطلق الرصاص فيجب ان تحتال بحيث تجرحه
جرحاً بالغاً دون ان تقنه في الحال ، افهمت ؟
- سأفعل يا سيدي الدوق .

وعند ذلك افترقا فذهب مورفر يتجول في القاعات ، ويرجع الدوق الى
حيث كانت مع اعوانه وندمائه .



وأما الملكة كارين فاتها انتظرت هنيهة ، ثم دخل اليها ذلك الرجل الذي
امرت خادماتها بادخاله ، وهو الكونت مارديلاك ، اى ديودات .

فاستقبلته الملكة قائلة : اشكرك يا حضرة الكونت فانك وفي بوعدك .
فالحني ديودات وقال لها : انا اشكر مولاتي لتفضلها بالمطف علي ،
وبذلك الوعد الذي تفضلت ووعدتني به .

كونت ، لا يجب ان تعجب لعطفي عليك .

فارتعش دودات وقال : احلم ما اراه .. اهي جلالة الملكة التي تكلمني بهذا الخنو ؟

وقد اعتقد بعد هذا القول انها ستجيبه ، كلابل هي أمك ، ولكنه لم يسمع شيئاً من ذلك بل ان الملكة قالت له بنفس اللهجة أنت يا كونت من الذين اشتهروا بكرم الأخلاق ، وأنا اقول باسم هذه المسكارم ان لا تسألني عن سبب ميلى اليك .

فاضطرب دودات وقال : إذا كان لهذا سر يا سيدتي فعاذ الله أن احاول كشف هذا السر .
- نعم نعم يا كونت ان هناك سرأ ، ولكنني اقسم لك اني سأظهر لك قريباً .

ثم قالت بصوت يضطرب :
نعم سأبوح لك قريباً بهذا السر وسأظهر لك حقيقة السبب في ميلى اليك وعطفي عليك ، وكيف اني تظاهرت بالبرود في مقابلتنا الأولى ، وكيف مع ذاك عرضت عليك عرشاً تتولاه ، وكيف اني قلقت لما رأته من ظواهر حزنك ، وأخيراً سأظهر لك لماذا أريد أن تكون سعيداً .

ثم قالت : وقد ارادت تغيير الحديث حذراً من أن تبدر منه بادرة .
ماذا صنعت يا كونت بذاك الصندوق الذهبي الذي قبلته مني ؟
- انه هدية من جلالتك يا سيدتي فحفظته كتذكار مقدس .

فمرت غمامة كثيفة على تخية الملكة وقالت : احفظته عندك ؟
ان جلالتك تعلم يا سيدتي اني مقيم في قصر ملكة النافار لانها من حاشيتها ، وهذا الصندوق الجميل يا سيدتي من اجل ما تقع عليه العيون ولكنه صندوق نساء .

فايتمت الملكة وقالت لقد اصبت فاني كنت اضع فيه قفازي وبعض مجوهراتي ، وقد اهداه إلي فرانسوا الأول حين جئت إلى بلاط فرنسا .

- وهو قد استخدم يا سيدتي للقرض نفسه ، فان جلالة ملكة النافار قد استخدمته لوضع قفازها .

فتمتدت الملكة اخفاء لظواهر فرحها وقالت : احق ما تقول ؟
- نعم يا سيدتي فاني أحب ملكة النافار كأنها أمي وقصد رجوتها ان تحفظ لي هذا الصندوق عندها إلى يوم ..
لقد احسنت يا ابني .

فأوشك دودات ان يسقط فقد سمع هذه اللفظة من فمها أول مرة .
فقالت له الملكة : امض في حديثك يا بني ، فقد قلت انك تريد حفظه عندها إلى يوم .

- نعم يا سيدتي إلى ذاك اليوم الذي اقف فيه على هذه الحقيقة التي تعرفينها كالتدائيت ووعدتني يوم شرفنتني بهبة هذا الصندوق .

- وأما موفية بوعدى ايها الكونت العزيز ، ولكن الا يهيك ان تعرف كيف علمت غرامك باليس دي ليكس .
- لقد بلغ اضطرابي يا سيدتي اني لم يعد بذهلني شيء . ولكنني ظننت ان اسيدتي ادارة منظمة لمعرفة الانبياء ، وانها تدانفت إلى السؤال عني ومعرفة امري .

- نعم يا كونت فقد كنت افقواك واعلم كل ما تعمله واهتم بك اهتماماً لا اهتم مثله بك فرنسا .

نعم ، انت لو كنت عدواً من اعداء الملكة لما راقبتك هذه المراقبة ، والله يعلم كم كنت القى من العذاب حين كنت القاذ .

ثم امتنعت فجأة عن انعام حديثها .
فقال لها : بالله يا سيدتي اني الحديث .

كلا ، ان الساعة لم تكن بعد ، وانت وعدت ان لا تحاول اكتشاف ذلك السر .

فضم ديودات يديه ووقف مطرق الرأس أمامها .
وعادت الملكة إلى حديثها فقالت :

- لقد عرفت غرامك باليس دي ليكس بعد مقابلتنا الأولى .

وذلك انك أنبت لينة فوقفت عند قصرى الجديد ، تحت نافذة
غرفة البرج .

وكانت تصحبك ملكة النافار فدخلت هي إلى منزل اليس ووقفت أنت
تنتظر عودتها فأردت ان أعرف السبب في شغائك .

وقد عرفت اليس من قبل ، فقد كنت اضطهدتها لأنها تركت مذهبنا
واعتقت مذهبكم .

وقد كنت مخطئة بلاربيب في هذا الاضطهاد . لقد خلق الانسان حرأبدن
بالدين الذي يختاره .

ولكني كنت أعرف اليس حق العرفان فاقبعتها في صباح اليوم التالي وعرفت
ما جرى بينها وبين ملكة النافار .

فقطع ديودات حديث الملكة قائلاً :

- وفي ذلك اليوم يا سيدتي ، تشرفت بمقابلتك للمرة الثانية . . . وفي
ذلك اليوم نفسه أهديتني ذلك الصندوق إشارة إلى عطفك علي ووعدتني
ذلك الوعد .

- نعم ، وقد وعدتلك ان أخبرك بحقيقة أمر اليس دي ليكس ، وأنا
موفية بوعدتي .

فصفر وجهه ونأهب لسماع أقوال الملكة ، كما يتوقع منهم أن يسمع حكم
القاضي عليه .

ففسالت له ولكن ملكة النافار . . . ألم تقل لك شيئاً ، منذ
ذاك اليوم .

- إنها حين تركت منزل اليس يا سيدتي قالت لي هذه الكلمات التي نثنت

على لوح صدري وهي :

إني باحثت خطيبتك ملياً يا بني ، واني ليهولني ان تكون هذه الفتاة زوجة
رجل أحب كما أحب ولدي . ولكن الحب يولد العجائب فإن هذه الفتاة تحبك
حساً لا تدركه الأوصاف .

ولا أشير عليك في هذا المقام إلا ان تتدفع مع تيار القدر ، وأنت
لا تكثرت تخوفي ، لأنك لن تجرد في الوجود امرأة تحبك ، كما تحبك
اليس . . .

هذا ما قالته لي ملكة النافار يا سيدتي ، وقد أبت أن تزيد كلمة على
هذا القول ، بل أمرتني أن لا أباحها في هذه الأمور إلا حين أعول على
الزواج باليس .

أواه يا سيدتي ، إن كلام ملكتي لم يزد هذا السر إلا غموضاً . . .
فكيف اتفق أن هذه الملكة ، التي لم تعرف الكذب في حياتها ، كان
وجهها يحمر حين حدثتني عن اليس . . . ومسا يجمها على الذعر من
زواجي باليس ؟

وما هذه الحيرة التي كانت تبدو منها ؟ فلقد خيل لي أنها عرفت من اليس
أنها مجرمة وانها رأت من حبها لي ما حملها إلى كتمان الجريمة أو الاغضاء عنها . . .
بل خيل لي أنها تقول :

تزوج هذه المجرمة الأثيمة لان آلامها ترعيني ، ولكن حبكما عجب ، فإذا
فرقت بينكما بعد هذا الحب فإن ذنب التفريق أشد من ذنب التزويج
والاغضاء عن الجريمة .

فقال له الملكة كاترين : أرأيت اليس بعد اجتماعها بالملكة .

كلا يا سيدتي لقد بت معتقداً إني إذا قابلتها أعرف جريمتها لأول وهلة ،
ولكني لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنها .

فهزت الملكة رأسها وقالت : لقد أكثرت ، في حديثك ، من لفظ

الجرينة . فاحذر يا كونت أن تتأدى في ربيبك ، فلا دليل على إثبات ما تظن .

واصغ إلي يا كونت ، لقد سألتك منذ ثمانية عشر يوماً ، مهلة شهر لأقف على حقيقة أمر اليس دي ليكس ، ولكني لم أجد في حاسبة إلى هذه المهلة . فقد عرفت قبل انقضاءها حقيقة أمر هذه الفتاة وسأخبرك به كما وعدت فاسمع .

إن اليس دي ليكس نقية طاهرة ، جديرة بحب واحترام شخص منك ولكن ...

فلم يسمع ديودات اللفظة « ولكن » ، وقد طار فؤاده سروراً لما سمعه من فم الملكة عن براءة اليس وطهارتها ، فركع أمامها وهو يبكي من الفرح .

وأخذ بيد الملكة فقبلها وقد تفجر في صدره ذلك السر الذي لم يعد يستطيع إخفائه فقال :

— أماء .. أماء .. أنت جعلتني من أسعد البشر .

فذهرت كل عين ونظرت إليه نظرة هائلة ثم سحبت يدها من يده ورجعت إلى الوراء وهي تقول :

— ماذا أصابك أيها الرجل ؟ أنت مجنون !

فوقف ديودات في الحال .

ولكن الملكة كانت قد ثبتت إلى رشدها في تلك اللحظة واستجمعت قواها فقالت له :

— لقد أرعبتني يا كونت ، فلو سمعتك أحد لكأنت أم ملك فرنسا قد تلوئت بالعار .

فقال لها بلهجة القانطين : سيدتي الشمس منك المفقو عن رجل قبيلة الحب ، وريشه القدر فيات لا يعلم ما يقول .

— كفى يا كونت ... بربك كفى وحيداً لو استطعت أن أحو من نفسك آثار تلك الطنون بي .

بل حيناً لو تكلمت أن أوحى إلى قلبك تلك الرحمة التي يجب أن تكون في قلب كل رجل بزاء امرأة شقيت دهنراً طويلاً . فإفكم هذه الأمور يا كونت ولا يسأ هذا الأمر .

— أقسم لك يا سيدتي على الكتمان .

— ولا تقل كلمة لأحد .

— سأحفظ سري في صدري إلى الأبد .

— وأريد أن تبالغ في الكتمان حتى عن اليس بل عن الملكة أيضاً ، تلك الملكة التي لو تجسم الكرم لما تنزل إلا في شخصها .

— أقسم على الكتمان .

— أقسم لي أيضاً أن جميع ما يجري بيننا لا يعلم به سوانا .

— أقسم .

فذهب ما كان ظاهراً على الملكة من الاضطراب ، ووقف أمامها واجماً متأزراً مضطرباً وهو يقول في نفسه :

— ترى من أين دخل إلى قلبي هذا السرور ، العلي شككت لحظة بطهارة اليس ؟ ...

مأذ الله فما فتئت أحسبها من الملائكة الأطهار .

أما الملكة فإنها بعد أن سكن جأشها نظرت إليه وقالت :

— إني وعدتك يا كونت أن أخبرك كل الحقيقة عن اليس فيجب أن تعلم لسبب في حيرة ملكة الناغار بشأنها .

نعم انه يوجد سر في حياة تلك الفتاة ، ولا بد أن تكون قد لاحظت أحياناً من أمورهما ما حلك على الاستغراب .

— هو ذلك يا سيدتي ، فقد كانت تبدو عليها علائم الرعب أحياناً لغير

سبب ظاهر .

- ذلك انها كانت تخاف أن تبدو كالحقيقة يوماً وهي هائلة ولكن ليس غير مسؤولة عنها بشيء .
- أرسل إليك يا سيدتي أن توضحي لي هذه الحقيقة .

- إذا ، فأعلم ان ليس لا عائلة لها ، وهي تنسب إلى بيت دي ليكس بطريقة النبي .

هذه هي الحقيقة يا كونت ، وهذا هو السبب في تحير ملكة النافار ، فإنها كرهت أن يتزوج ، من تدهور ولدها ، بغفلة لا يعرف لها أب ولا أم .

وقد كانت هذه التهمة التي اتهمت بها الملكة ليس انها لقبطة أمام ديودات وهو القبط أيضاً من أعظم نوادر جرأتها .

فإن مثل هذه الولادة الحقيقية كان يحسبها الناس في ذلك العهد عيباً لا يغتفر ، كما يحسبونها اليوم ، فيضطهدون ذلك المولود البريء ، ويعاملونه بجله الاستقار . وكل ذنبه أن أباه وأمه قد أخطأ ، وان اسمه لم يقيد في سجل المواليد .

غير ان الملكة لم تقل هذا القول إلا لغاية لها ، فإن ديودات حين علم أن كل ذنب ليس أنها مثله لا تعرف أبها وأمها ، وهما لا يعرفانها قال للملكة : إني سأذهب يا سيدتي فأطرح على قدمي ليس ورجائي أن تغفر لي ما أسأته اليها بسوء ظني .

- إذا لا تزال على سابق عزمك بالرغم مما قلته لك .

- وماذا قلت لي يا سيدتي سوى أن خطيبي مثلي يجمعنا حظ واحد واننا خلقنا فنكنا شريدين وحيدين . إني أشكرك يا سيدتي أجزل شكر فقد بت مديناً لك بالحياة .

- إذا كنت لا تزال مصمماً على هذا الزواج يا كونت فافعه ، ولكن لا

تبالغ بالمفلات إلى ان تدعى باسمك فلا يخطر لأحد بعد ما أن يسأها عن اسم أبيها .

- ليعقد زواجنا يا سيدتي كما اتفق بشرط أن يعقد .

فابتسمت الملكة له اللفظ ابتسام وقالت : إذا ، دعني أتولى بنفسي تدبير هذا الأمر ، فإني أحب أن احضر عقد الزفاف ، دون أن يعلم أحد .

- أنت تعبريني يا سيدتي بلطفك وإحسانك .

- وأنا سأختار الكنيسة التي يعقد فيها الزواج ، وأعين اليوم ، والساعة . . .

ورجائي أن تدعني أختار الكنيسة فليست من المتعصبين لمذهب الهوكينوت خلافاً لي فإني شديدة التعصب للكنيسة .

- سأمثل يا سيدتي لكل ما تريدن ، وليعقد زواجنا أي كاهن تختارينه .

- نعم . . نعم لقد وجدت الكاهن فهو بانيكارولا ووجدت الكنيسة فهي كنيسة سانت جرمين .

- واليوم .

- سيكون اليوم التالي لزواج ابنتي مرغريت .

- والساعة .

- ستكون خير الساعات ، أي حين انتصاف الليل . فإذهب الآن أيها الكونت العزيز ، واجتهد ان تكون سعيداً ، فأنت في حاجة إلى السعادة .

فقبل يدها وقال : لم يعد يعوزني شيء من أسبابها ، فأنا الآن أسعد إنسان .

- كلمة أيضاً يا كونت ، وهي ان تأذن لي أن أكون أول من يبشر ليس

بهذا النبا ، لقد أسأت إليها أيام كنت أسطهدها ، وأحسب ان أنفي من نفسها هذا الاستياء .

- إني ممثل مطيع .

- إذا أتعدني أن لا تقول كلمة مما جرى .

- لقد أقسمت يا سيدتي .

وعند ذلك انصرف ديوات ، وهو يحسب نفسه أسعد البشر ، كي يذهب إلى ملكة النافار ليخبرها بسماعته الجديدة ، ثم إلى اليس ليسألها أن تعفو عنه لريبه بها .

فلم يكده ينصرف من حضرتها حتى برحت هي تلك الغرفة وذهبت إلى غرفة أخرى منزوية كانت تنتظرها امرأة فيها .

وكانت هذه المرأة اليس دي ليكس .

فذهبت الملكة إليها فأمسكت يدها ، وحدقت بها تحديق الفاحص ، فقالت لها :

- أسمع الحديث ؟

فارتعشت اليس وقالت كلا .

- لقد تغيرت تغيراً عظيماً كما يظهر ، لقد كنت أشهر من يتسمع خلال الأبواب والآن إسني إلي .

إنه خرج الآن من غرفتي وهو يحبك حباً لا تصفه الأفلام وسيمقد زواجك قريباً فلا تسأليه عن يوم الزواج ولا عن اسم الكاهن الذي سيمقده فسأخبرك بكل هذه التفاصيل في حينها .

ولكن يجب ان تعلمي أنك لست ابنة الكونت دي ليكس ، بل

أنت ثقيظة تبنك الكونت وانت لا تعرفين أبك وأمك ... وان هذا هو السر الذي بحت به الملكة النافار ، وجعلك تضطربين دائماً أمام خطيبك ،

أفهمت ؟

- نعم يا سيدتي .

- إذا انت سعيدة منذ اليوم فليس من يعلم سرى سواي .

- وملكة النافار ؟

- لا تخافي ، فستزوجينه وتسافرن بسسه إلى حيث شئت ، وتعيشين

مع أسعد عيش ، وكل ذلك بشرط واحد وهو ان تقتسلي لأمرى إلى النهاية . فإذا بدرت منك بأمره تدل على التردد سحقتك ... وقتلتك شرقتل .

- سأمثل يا سيدتي إلى لنهاية بشرط أن ينجو .

فهرت الملكة رأسها وقالت :

- إذهبي يا ابنتي فلاي أريد له الخير كما أريدك لك ولكن احذري أن تنسي ما أوصيتك به .

ووقفت اليس ، وقد ظهرت عليها علامات الاضطراب والتردد ، واصغر وجهها .

فلم يخف ذلك على الملكة وقالت لها :

- ماذا أصابك يا اليس وبماذا تفكرين ؟

فقلتم لسانها وقالت : لا شيء يا سيدتي .

فأخذت الملكة يدها ، وجعلت تنظر إليها نظرات تحترق أعماق نفسها وقالت :

- اليس لك ما تقولينه لي ؟

- كلا يا سيدتي لاني كنت أفكر بهذا الزواج ليس الا

أواقفة انك لم تسمعي شيئاً من حديثي مع خطيبك .

- أقسم يا سيدتي اني لم أسمع شيئاً

- حسناً اذهبي الآن ولا تنسي ما أوصيتك به .

فخرجت اليس وسارت في أروقة اللوفر وهي تحتجب القاعات المهشدة فيها

وحده قاصديه

الناس حتى وصلت الى الباب الأكبر ، فخرجت منه ودخلت الى منزلها الصغير
في شارع لاهاش. وهناك جلست عند مائدة فوضعت رأسها بين يديها وجعلت
تقول في نفسها:

ولكنه مع ذلك ابنها . . أمي عائلة بذاك ؟ . . أيجب ان أخبرها بهذا
السر . . أيجب ان أخبرها هي أيضاً به ؟ . .
اني ارتكبت خطأ عظيماً فقد كان يجب ان اسمع حديثها . . . وماذا عسى
ان يكون بعد هذا الحديث ؟

اني لم أتحذع ولا أنسى ذاك اليوم يوم اختلى ديودات بملكة النافار وسمعت
من وراء الباب يقول لها هذه الكلمات :

(لماذا لم أمت في ذاك اليوم الذي عرفت فيه ان الحفوة المائية كاترين دي
مدسيس هي أمي) .
أيجب ان أقول له اني عارفة بهذا السر ؟ . . وكاترين هل تعلم ان الكونت
دي ماربلياك ولدها .
وبعد ان أمعنت في التفكير قررت ان السكوت أولى لانها خشيت ان تخبر
الملكة بذاك فتقتله دون اشفاق

بدء انقضاء الساعة

ولنعد الآن الى الكونت دي ماربلياك فإنه بعد ان برح غرفة الملكة
ذهب الى القاعات التي كانت غاصة بجاهلير المدعويين .

وكان فرح القلب طلق الهيا لم يعرف قلبه مثل هذا السرور حتى ولا في
ذاك اليوم الذي باحت له فيه ليس بفرامها .

وجعل يبحث في القاعات عن ملكة النافار ليخبرها بهنائه فقد عظم هذا
الهناء في صدره حتى لم يعد يتسع له .

وكانت الحفلة في ابان جلالها في تلك الساعة وقد اجتمع الناس في كل قاعة
ونألفوا عصابات كانت كل منها تتلهم بنوع من الملاهي .

وقد مر ديودات بقاعة كان فيها الدوق دالمجو وكثير من أعوانه
ولما رأى الدوق هش له وقال : افرح وسر يا كونت ، ألا ترى الجميع
ضاحكين لآعين .

- اني لم أجد يوماً في حياتي فرحت به هذا الفرح .

فطوقت المصيبة عند ذاك ديودات وجعل كل منهم يجذب به بمازحاً ،
بشكل التودد .

فاحمر وجه ديودات وأقلت منهم ، وقد رأى ان الحفلة بدأت تظهر
بظهور غريب

ثم اجتاز القاعات الأخرى ، فكان يرى في كل منها جماعة من الكاثوليك
يحدقون بواحد من الهوكينوت وهزأون به بشكل المازحة .

وقد رأى في إحدى تلك القاعات ملك النصارى ، والدوق دي كيز ،
وفريقاً من أعيان الكاثوليك يلعبون بالكرة ، فكانوا كلهم يرمون ملك النصارى
بكراتهم ، فكان ملك النصارى يبائع بالضحك إخفاء لاضطرابه .

ورأى في قاعة أخرى البرنس دي كونديه والكاثوليك بضربونه أيضاً
بكراتهم ، ولكن هذا الأمر لم يكن له صبر الملك ، فكان يجيب على
كل ضربة ولكفة بثلاث ، بحيث كانت كلغة أو نظرة تكفيان لإحالة المازحة
إلى خصام .

وعلى الجملة فقد كانت هذه الحفلة شبه مقدمة لمعركة وقد تبين فيها تحامل
الكاثوليك على الهوكينوت بجميع أنواع الهزء
ولكنهم كانوا يخفون هزءهم بظواهر المازحة ، التي تقتضها هذه
الحفلات .

وأما الهوكينوت فلم يكن بعد قد خطر لهم الشر في بال
وأغرب ما حدث في تلك الليلة انه بينما كان الناس مجتمعين أفواجاً ،
في القاعة الكبرى ، دخل إليها خمسون فتاة من نيبلات الكاثوليكين ،
وأكثرهن من نساء الملكة كاترين ، فبسدأن بالوثوب على ظهور الكاثوليكين ،
والركوب على أكتافهم ، فكان الناس يضحكون وقد سرهم هذا المزاح .

ثم جعلن يغيرن جيادهن الانسانية ، ولم تمر هنيئة حتى أصبحت تلك الجياذ
كلها من الهوكينوت ، والهوكينوت فرحون مسرورون .

وعندها أمسكت كل فارسة بأذني من امتطت ظهره من الهوكينوت
وجعلت تلكره برجلها كما يلكر الفارس بطن الجواد بالمهاز فيسير بها إلى
حيث تشاء .

وقد سار هذا الموكب المؤلف من خمسين رجلاً من الهوكينوت ، وخمسين

فتاة فوق ظهورهم من الكاثوليك يطوف القاعات والناس يضحكون وهزأون
بهذه الجياذ

وفي طلبعة هذا الموكب ، الدوق دي كيز وهو يفرق الناس كي يفسح
له الطريق .

ولقد يحسب القراء ان ما نرويهِ من المبالغات ، ولكنه بعض ما حدث في
تلك الحفلة كما يرويهِ التاريخ تماماً .

وبينا هذا الموكب ينتقل من قاعة إلى قاعة ظهر الملك فانقطع الضحك
واطلاق الفتيات سراح جيادهن وسادت السكينة فوق كل من الحاضرين موقف
الاحترام امامه .

أما الملك فإنه نظر نظرة الباحث إلى الحاضرين فرأى بينهم الأميرال كوايني
فاسرع إليه وصافحه قائلاً :

لرجو يا ابي ان تكون راضياً عن هذه الحفلة .
فأجابهُ الأميرال قائلاً :

وأي سرور أعظم من هذا ، فان لرجال بلاط جلاتكم طريقة بالتلهي لا
انساها مدى الحياة .

- ولكنك قد تفضل على هذه الطريقة طريقة أخرى للتلهي كأن تطارد
الملك مثلاً كما يطاردون الأبل .

فدوى هذا الكلام في الأذان دوي الصواعق ، ولكن شارل التاسع
قال له مبتسماً :

دمع هذا فان الهوكينوت قد ارتعشت اجسامهم وحسبوا هذا الكلام
مترعباً .

وأما الأميرال فأجابهُ ببرود قائلاً
التمس من جلالة مولاي ان يوضح افكاره

فأصفر وجه الملك ، وتبين الغضب بين عينيه وكاد أن يبوح بكل ما

ولكن الملكة كاترين ادركت الموقف المخرج ، ورأت انقاذ عيني ولدما ،
فامرعت إلى اجابة الأميرال فقالت :
انك يا حضرة الأميرال تتأهب لمطاردة دوق البسا ، فلا بد لك أيضاً من
مطاردة ملك اسبانيا .
فتنهذ رجال الهوكينوت تنهد الراحة بينما كانت علائم الاستياء قد ظهرت
على وجوه الكاثوليكين .

وأما الأميرال فانه أجاب الملك فقال :

لا انكر يا سيدي اني اؤثر التلمي في هولندا بمطاردة الدوق وان تكن هذه
الحفة في بلاطكم من أعجب الحفلات .
- هو ذاك يا ابي فانك من أهل الحروب لا من أهل البلاط .

وقد عادت إلى الملك سكينته بعد أن نظرت إليه امه نظرة المؤنب فقال:
ما لي لا أرى ملك النافار ؟

فقالت امه : انه مع مرغريت فلندعها في هناهما يا ابي .
فأشار الملك اشارة بيده فعاد الناس إلى ما كانوا عليه .
وقابض ذراع الأميرال فسار وابتاه وهو يقول :

ماذا جرى يا ابي في هذه الحفة على الدوق دي البسا ؟ أتعلم انه جرت
هناك مذبحه هائلة ، وان دوق البسا قد قتل ما يزيد على عشرين الفاً
من الهوكينوت ؟

- نعم أعرف هذا واسفاه ولكني ارجو بفضل ملك فرنسا أن أقطع هذه
المذابح التي يسود لها وجه الانسانية .

- اسرع ايها الأميرال ما استطعت إذ قد يتفق حدوث مثل هذه المذابح
في غير تلك البلاد أيضاً

وقد قال الملك هذا القول بلهجة المتوعد ، غير ان كولينبي لم يقتبه لهذا

الوعيد ، فقد كان يعتقد ان الملك يحسب نفسه سعيداً بعقد السلم .

وكلوا قد وضعوا عرشاً للملك في القاعة المتوسطة ، فسار شارل التاسع
إلى العرش ، فجلس عليه وأجلس الأميرال كولينبي عن يمينه وهو خطوة عظيمة
لم ينلها سواه فأشرقت أسرة الرجال الهوكينوت بتور البشر .

ولكن لم يكذب يستقر على عرش حتى سمع لفظاً في القاعة الجاورة .
ولم يكن هذا اللفظ ضجيج ضحك وسرور ، بل كان شبه أنين خارج
من صدور الهوكينوت .

وقد سمع خلاله أصواتاً مختلفة تقول :

(الملكة توت) .

والبك بيان ما حدث .

لقد تركنا ديودات يبحث عن ملكة النافار ، وقد وجدها في تلك الساعة
التي جلس فيها الملك على عرشه وعلى يمينه كولينبي .

وكانت الملكة كاترين في الوقت نفسه تسير مع بعض النبلاء إلى حيث
كانت ملكة النافار .

وكانت ملكة النافار جالسة بله الزانة والوقار يحيط بها فريق من نساها
ورجالها ، فلما نظرونها إليها معجبين خائفين فقد رأوا ان وجهها اصفر
لجأة ، ثم احمر إحمراراً شديداً بعد ذلك الاصفرار .

وقد كانت تلك الملكة تشعر حيناً ان جسمها بارد كأن الثلج قد
وضع عليه . فترجف من البرد ثم تشعر ان الحمى أدركتها وأنها تكاد تختنق
من الحر .

ولكنها لم تكن تبالي بهذه العوارض لاعتبارها انها بسيطة زائلة .

وجعلت تبحث بنظرها عن ابنتها حتى رأته مع مرغريت .

ولكنها كانت تنظر إليه نظرات قلق لا تخفى عن خطيئته فدنت منها
وقالت لها بصوت منخفض

— ما تخافين يا سيدي؟ اطمئني فلا يحسر أحد على إساءة خطيبي .
فاطمات ملكة النافار لأنها كانت تعلم يقيناً ان لمغربيت نفوذاً عظيماً
على أخيها شارل التاسع .

وفي تلك اللحظة رأت الملكة يهودات يفرق الناس ويبدل جهداً عنيفاً
للوصول إليها .

حتى إذا دنا منها ابتسمت ومدت له يدها .
فابتعد عنها المقربون ، وحاول يهودات ان يقبل يدها .

غير ان الملكة جذبت يدها من يده بسرعة ووضعتها على جبينها ، ثم
على عنقها .

ثم جعل العرق ينصب من وجهها ، وقد جمحظت عينها وبع صوتها
كأنها تحتنق .

وصاح يهودات قائلاً : افتحوا النوافذ .. جددوا الهواء .. ان
الملكة مريضة .

فأسرعت الملكة كاترين وقالت رباء ماذا أصاب ابنة عمنا العزيزة .
ثم دنت منها وعليها ظواهر الحزن الشديد كأنما يدها الأثيمة لم تغفل
تلك الملكة الطاهرة بذلك السم النقيع .

ثم قالت : أسرعوا وبادوا الطبيب باري ، فقد رأيته الان في إحدى
القاعات .

فمرول نحو عشرون رجلاً يبحثون عن الطبيب في القاعات
وأخذت الملكة كاترين زجاجة صغيرة فشتمتها من رائحتها فعدت ملكة
النافار إلى رشدها ورأت يهودات أمامها فقالت له :

— لا تخف يا ابني فهذا من تأثير الحر .
فأجابها يهودات : نعم هو ذاك يا سيدي ، والله اسأل أن يجعلني فداً
ملكتي .

فقال الملكة كاترين ، ولكن حياة ابنة عمنا العزيزة ليست في شئ
من الخطر .

وفي ذلك الحين جاء الطبيب وأخذ يفحصها فحسباً دقيقاً .

فصاحت ملكة النافار قائلة : إلى الـ .. بادوا ولدي . أريد ان أرى
ولدي ، ان يدي تحترقان وصدري يلتهب .

وجعل الطبيب يفحص يدي الملكة ، بينما كان الناس يتراكمون للبحث
عن هنري دي نافار .

وقد فقدت الملكة رشدها مرة ثانية ، فلم تفد هذه المرة زجاجة الملكة
كاترين .

وأقبل هنري دي نافار مسرعاً ، فرأى أمه منطرحة وعليها علائم الموت .
فاصر وجهه وضغط على كتف الطبيب فقال له بصوت منخفض وبلمهجة
عذالة :

— أريد أن أعرف الحقيقة بقامها عن حالة أمي .

فاضطرب الطبيب وأجاب بصوت يتهديج :

— ان أمك ، يا سيدي مشرفة على الموت .

فجثا الملك على ركبتيه وجعل يبكي بكاء الأطفال ، واستند يهودات إلى
عمود حذار من السقوط .

ووضعت الملكة كاترين يدها على عينيها وهي تقول : رباء ما هذا المصاب
ان ملكة النافار تموت .. رباء انها تموت في اهنساً ساعة من ساعات حياتها ،
أي في حفلة شطبة ولدتها .

وانتشر هذا الخبر في الوفير منتقلاً من قاعة إلى قاعة فساكتدت وجوه
الموكينوت وأظلمت نفوسهم .

وكف الكاثوليك عن ممارسة الموكينوت بعد أن فاجأهم هذا الخبر
وأسرع كوايني وكونديه واندلوت وغيرهم من زعماء الموكينوت إلى الملكة

وهم منذعرون لهذا المصاب الأليم ، وقد أوجس كلهم خيفة على نفسه وحدثتهم
قلوبهم بمصاب عظيم يتبع هذا المصاب .

وأما الملك فإنه لما تلقى هذا الخبر ذعر له فاصفر وجهه وحاول أن يتكلم
ولكنه لقي في الحال أمه تنظر إليه نظرات معنوية وتوصيه بالصمت ،
فلم يسع هذا الملك الضعيف المنضلع القلب غير الامتثال فأطرق برأسه وقال :
- لقد انتهت الحفلة .

فدنت عند ذلك أمه منه وهمست في أذنه قائلة :

- لا تقل يا بني انتهت ، بل قل قد ابتدأت .

وبعد ما بنصف ساعة أطفئت الأنوار في اللوفر ، وتفرق الناس ، فلم يبق
غير الحراس .

ولكنهم ضاعفوا عدهم عند كل باب .

وفي تلك الساعة كانت الملكة كارين محتالسة في غرفتها برئيسه الفلكي
يتحدثان بالجرمية .

فسألها الفلكي قائلاً :

- ماذا كانت تقول ملكة النافار ؟

قالت : إنها كانت تشكو من حرارة شديدة في جميع جسمها ولاسيما يديها
وذراعيها .

فهز الفلكي رأسه وقال :

- إذا لقد سرى إليها السم من القفاز .

- هو ذلك ، ولا شك ان هذا الصندوق من أفخر الصناديق يا رئيسه .

- ولكن كيف أرسلته إليها دون أن تشيرى الظنون .

- ذلك سر من أسراري .

وفي اليوم التالي انتشر الخبر في جميع باريس ان ملكة النافار قد ماتت
موتاً هائلاً بجمي غير معروفة .

وكان اذا عجب أحدهم لهذا الموت الفجائي يجيبه الآخرون : لقد نقص
عدد الهوكينوت واحداً .

ولكن هذا لم يمنع الباريسيين من الاحتفال بخطبة ملك النافار .

- ٢٣ -

جيلوت

يوجد شخص بين اشخاص هذه الرواية سيكون له شأن خطير في سياق
حديثها فلا بد لنا أن نعود إليه حيث تركناه .

وليس هذا الرجل شأن في نفسه ، ولكنه آلة إذا أدارتها يد خبير كانت
آلة مخطرة .

وهذا الرجل هو جيلوت .

فلنعد الآن إليه حيث تركناه مع خاله وقد قطع أذنيه .

فقد بقي ممدداً على أرض القبر في قصر مسج وهو لا حراك به .

ويذكر القراء أن خاله كان قد سأل الدوق دامقيل إذا كان يحب الاجهاز
على ابن أخته بالقتل .

فأجاب هنري : كلا ، فإنه قد يفيدنا .

فسار جيلوت في أثر مولاه دون أن يكثرث لابن أخته .

أما جيلوت فإنه لما استفاق من اغيائه كان أول ما فعله انه مد يديه متفقداً
أذنيه كأنه كان يرجو أن يكون حالماً .

ولكن يديه لم تظفرا إلا بالضماد فأشهى بالبكاء وجعل يقول
رباه ما يقول عني الناس إذا رأوني من غير أذنين ، فقد زال الشبه بيني وبين
الإنسان ، بل إني لا أحماسر أن أتشبه بالحيوان ، فإن الحيوان له أذنان .
وزد على هذا إني سأفقد حاسة السمع . ولكني اسمع كلناتي ، وذلك بدل
على أن حاسة السمع لا تفقد بفقد الأذنين .

فإذا كان هكذا فإني البس قمعة كبيرة تستر أذني فلا يراها أحد
وقد تمرى بذلك بعض العزاة ، ونهض يحاول الخروج من هذا القيو الذي
كان شوماً عليه .
فصعد السلم ووصل إلى الباب فرأى خاله داخله منه ، وقد عاد إليه بعد
أن تداول ملياً مع هنري .

فقال جيلوت في نفسه : انه قادم للاجهاز علي ولا ريب أن المارشال أمره
بإعدامي ، فوالأسفاه إني لا أعيش بعد أذني .
ولكنه ذهل ذهولاً شديداً حين رأى خاله يتكلم ويقول بلهجة حنو :
كيف أنت الآن يا بني ؟

- على أروأ حال يا خالي العزيز ، وما يكون حال من قطعت أذناه ؟
- صبراً يا بني فسنعالجك ونشفيك .
- ماذا اسمع .. أنت تقول لي هذا القول ؟
- ولماذا تعجب القولي
- لأنني كنت أوقع أن تقتلني .
- أنا أقتلك أيها الأبله .
- وما يمنعك عن قتلي إذا أمرتك الدوق .
- ان الدوق عفا عنك ولم يقتصر على العفو بل انه يريد ان يغنيك .
- يغنيني ؟
- نعم يغنيك أيها الأبله بشرط ان تطيعه كي تقبضه خيانتك الفظيمة .

أقسم لك يا خالي إني ندمت الندم الشديد .
- ذلك لخبرك فإذا كنت أميناً في خدمته أفضلك . ألم تر صندوقي ؟
- رأيت ولا يزال ما رأيت فيه يبهر عيني كأنني أراه الآن .
- إذا فأعلم أن كل ما رأيت في هذا الصندوق يغدو لك إذا كنا راضين
عناك ، أي إذا كان مولاي راضياً .

ففتح جيلوت عينيه كأنه يريد أن يسمع بعينه ما فاته بخسارة أذنيه ،
ويعد أن أعمي عليه من الألم واليأس كاد ان يغرق عليه من الفرح والرجاء .
فقد يذكر القراء أن الطمع كان أشد عيوب جيلوت ، ولولا هذا الطمع
الاشمعي لسكان اكتفى بما سرقه من صندوق خاله وهرب قبل أن يدركه .

فقال خاله وهو بضطرب .

قل فإني مستعد لكل ما تريدون ، فبماذا يأمر الدوق .

- أولاً ان بشفيك .

- رضيت ، وبعد ذلك .

- وبعد ذلك .. سوف ترى فتعال معي الآن .

ثم تأبط ذراعه كي يمينه على المسير ، وسار به إلى غرفته ووضع على
سريره وجعل يعتني به عناية خاصة .

وقد أسف جيلوت لأنه لا يستطيع تلبية أمر الدوق بالشفاء العاجل فانه
أصيب بحمى شديدة عجزها هذيان مدة يومين ، أي انه لبث مدة يومين يستعطف
خاله ويتوسل اليه أن لا يقطع أذنيه .

حق انتهى الأمر بخاله أنه فوعده إذا لم يلزم السكوت .

ولا ندري أكان سكوته عن ذكر أذنيه لانتقاع الهذيان أو للخوف .
وفي اليوم السادس زالت الحمى ، وفي اليوم العاشر شفي منها ومن الجراح
وتكمن من مباحرة الفراش .

وقد كان أول اهتمامه انه ذهب فاشترى قبعة عظيمة تغطي آذان

قطع أذنيه .

وفي ذلك اليوم تداول مع خاله مداولة طويبة ، ولبس بعدها خير ملابس
فقال له خاله : اذهب الآن فاني امنحك رضائي عنك .

- بل أؤثر أن تعطيني بضعة ربات على الحساب

فتملل جيل ولكنه لم يسمعه إلا الامتثال فقال له : إني معطيك ما طلبت
بشرط أن تفوز بالدخول .

- سأحتال على ذلك بطريقة مأمونة .

- ما هي ؟

- قطع أذني .

- ثم تركه يفكر بجوابه وانصرف .

وقد عرف القراء كيف جاء جيلوت إلى قصر مونورانسى ، وكيف انه
لقى بارداليان الأكبر في غرفة البواب فذهب به إلى غرفته .

وقد كانت قصور النبلاء في ذلك العهد تشبه الحصون ، فانه كان يوجد
في قصر النبيل الكبير نحو مائتي رجل من الحامية ، وذلك عدا عن الاشراف
والندماء الذين كانوا يقيمون في قصر ذاك النبيل ، فينادونه في جلساته
ويخفرونه في رحلاته .

وهكذا كان قصر مونورانسى وقصر مسع وقصر دي كيز وغيرهم من
كبار النبلاء .

وعلى ذلك وجد بارداليان الأكبر محلاً يرافقه في ذلك القصر الكبير .
وقد قال له المارشال فرنسوا يوماً : هذا إذا رضيت أن تكون محافظ هذا
القصر لا يستطيع أحد الاستيلاء عليه .

فأجابه بارداليان قائلاً :

لقد رضيت يا سيدي وإني أدفن نفسي تحت انتقاضه قبل تسليحه .
ومن ذلك يتضح للقراء ما كانت عليه حالة سكان هذا القصر .

على اننا نشعور إلى هذا الموضوع فلنبعث الآن في شأن جيلوت فنقول :
انه حين وصل به بارداليان إلى غرفته جلس على كرسي ونظر إلى
جيلوت فقال :

أدعي يا جيلوت انك تستطيع خدمتنا .

هذا ما أظنه

- وأنت قادم لعرض هذه الخدمة علينا

- هو ذاك يا سيدي .

- حسناً يا جيلوت وسئري ما نستطيع ان نعلمه منك ، ولكن قبل كل
شيء أريد ان اقول لك شيئاً .

ما هو يا سيدي .

- هو اني إذا رأيتك تسمع من وراء الأبواب أو بدمرت منك بادرة تدل
على خيانة لا أقطع أذنيك فلم يبق لك أذنان ولكني أقطع لسانك .

فارتعش جيلوت وقال : ان خالي قطع أذني وأنت تريد قطع لساني ، فما
الذي يلدك بتقطيع جسمي وتشويه هذا التشويه

- هذه هي طريقة يا بني في العقاب ، ويظهر انها طريقة خالك ايضاً ،
فكن وانقأ إذا فهمت بكلمة مما تسمع هنا لأي رجل كان ، لا اكنفي بقطع
لسانك فقط ، بل أدع الطباخ يقلبه بالزبدة واكله على اكله .

فارتعش جيلوت من الخوف ، حتى لقد خطر له أن يخرن خاله في ذلك
الساعة ، غير انه تذكر ان انتقام خاله شديد ، وانه يشهد القول بالعمى ،
ثم ذكر الصندوق وما رآه فيه من الذهب ، فعزم على ان يخاطر بقطع لسانه
وقال في نفسه :

إن لساني لا يقطع إلا إذا اكتشف خيانتني وهب انه اكتشفها وقطعه
فلا أباي ، فاني لا احب كثرة الكلام ، غير اني اشئ ان تتمرن الأيدي على
بتر أعضائي فبعد قطع لساني يقطعون أنفي .

وكان بارداليان يراقبه باعتناء فقال له : ماذا تفكر يا جيلوت .
- افنكر بما يجب أن أقوله لك كي أوطد ثقتك بي ، وما زال لساني
باقياً لي الآن فاني استعين به لأقسم لك بين الوفاء والطاعة .
فضحك بارداليان .

واعنبر جيلوت هذا الضحك شائناً له وقال :
- لا أرى ما يوجب الضحك في وعيدك فساني الآن من غير اذنين فإذا
قطعت لساني فما الذي يبقى لي
- ولكنني لا أقطع لسانك لها الأبله إلا إذا خنتني فلا خوف علي ، إذا
كنت أميناً .
- لقد أصبت يا سيدي وأنا حقيقة من البلهاء .

- قل الآن ماذا تقدر ان تفيدنا .
- لقد علمت ، إن العلاقة غير حسنة بينك وبين الدوق دامفيل ،
فإنك إذا ظفرت به قتلته ، وإذا ظفر بك لا تمر بضع دقائق ، حتى
تصبح رجلاً ترقصان في الهواء ، وعنتك معلق بالخيل وهو ما يسوءني جداً
يا سيدي الشفالييه .
- امض في حديثك يا جيلوت .

- والذي اظنه يا سيدي ، إنك إذا كنت عارفاً بجميع ما يفعله الدوق
دامفيل وجميع مسا بنويه لك ، تستطيع ان تقي نفسك من كيديه ،
ليس كذلك ؟
- ولكن كيف السبيل الى معرفة ما بنويه المارشال .
- هذا الذي سأفيدك عنه ..

- ولكن كيف نستطيع إفسادني ما زلت لا نستطيع ان نعود إلى
قصر مسج .
هو ذلك ، فقد انذرتني خالي والدوق اني اذا عدت إلى القصر لا يقتصر ان

على قطع اذني بل يكون جزائي القتل .
- إذا كيف تصنع .

- ألم تسمع ، يا سيدي ، ذلك المثل القائل : « ما تريد المرأة
يربده الله » .
- نعم ..

- إذا . فاعلم انه يوجد فتاة في القصر تدعى جانيت ، وهي تحبني
وسأزوجها .
- يستحيل ان تحبك .

- لماذا الأني أبله كالراني .. أشكرك يا سيدي ، فذلك أحسن مسدح
سمعته بخطيبتني .
- أرى يا جيلوت اني كنت غخطناً بشأنك ، فأنت من أهل الحيلة والذكاء
كما أرى .

- مهما يكن من الأمر يا سيدي فان جانيت تحبني وهي تفعل كل مسا
أريده ، وتستطيع ان تقف على كل ما يجري في القصر فتخبرني به وأنا أنفسه
اليك فهل توافق على هذه الخطة
- بلا ريب ، فماذا تريد مني مقابل هذه الخدمة .

- لقد قلت لك ما أريده يا سيدي ، وهو ان تعينني على الانتقام من خالي
لقطعه اذني .
- وأنا اعدك اني سأسلك إياه مغلول اليدين والرجلين فتصنع به ما نشاء
فقل لي كيف يكون انتقامك .

- اني اكتفي بقطع اذنيه .
- ومتى تبدأ هذا التجسس .
- حينما تريد .

- حسناً ، فاعلم الان اني إذا كنت راضياً عنك لا اقتصر على مساعدتك

على الانتقام ، بل أعطيك ما تستطيع عدمه من الريالات
وعلى هذا فقد اتفقا وبات هذا الخائن في قصر مونغورانسى .

ولم يضع وقته عبثاً فقد أقام تلك الليلة واليوم التالي في فحوص قصر
مونغورانسى .

ثم خرج منه بعد ان قال لباردالبيان انه ذاهب لمقابلة جانيت
وخرج هذا المحتال إلى قصر الدوق دامفيل وهو يلتفت من حين إلى حين
كي يستوثق إذا كانوا يتتقون اثره
حتى إذا وصل إلى القصر قال له خاله : ما وراءك من الأخبار

- لقد أصبحت من سكان القصر .
- اوضح لي ما فعلت .

فأخبره جيولوت بجميع ما كان بينه وبين باردالبيان الأكبر ، وكيف انه
فحص القصر فحصاً دقيقاً

فقال له جيل :
- كم تبلغ حامية القصر
- خمسة وعشرون رجلاً فقط وهم مسلحون بالبنادق .
- أين يقبضون .

- في البناية الكائنة وراء الباب الكبير .
- أمذا كل عدد الحامية .

- كلابل يوجد في بناية أخرى عشرة رجال من الأشراف المخلصين
لفرنسوا مونغورانسى .

- إذا يكون عدد الحامية يجعلها خمسة وثلاثين رجلاً
- ليس هذا كل عددها يا خالي .

- ماذا . أوجد أيضاً حامية غيرها .
- يوجد أيضاً الشفالييه باردالبيان وابوه الذي يقطع الألسنة

- ماذا تعني بهذا ايها الأبله .

- لاشيء سوى ان هذين الرجلين قد يعادلان جميع الحامية فتكون
جولتها سبعين رجلاً .

- ربما ، فأخبرني الآن أين يقع هذان الرجلان ، وابن يقع المارشال ؟
فأخبره جيولوت عن كل ما رآه بالتفصيل

قال . حسناً فأجبتك الآن ان تختار على الجيء الي كل يوم أو يومين ،
دون ان تثير الشكوك ، وسأقول لك ما يجب أن تصنعه .

- لقد وجدت الطريقة التي تسهل حضوري كل ساعة إذا شئت .
- ما هي ؟

- هي أن باردالبيان يعتقد الآن اني أحضر إلى قصر مسيح لتجسس
أخباركم .

- يسرني ان اراك على غير ما كنت اعهدك فيك من الذكاء وهو مسأ
يزيدك وثوقاً من نيل أموال الصندوق ، فاذهب الآن في شأنك وعهد إلي من
حين إلى حين .

فانصرف جيولوت وهو يقول في نفسه : ترى ما يجب أن أقوله لباردالبيان
وهو قد علم انني اتيت إلى هنا .

ثم ارتعش فجأة لحاظه غريب خطر له فقال في نفسه :

اني سأناك كنزاً من قصر مسيح لأخبر بما يجري في قصر مونغورانسى ،
فلماذا لا أقل مثل هذا الكنز من قصر مونغورانسى فسأخبره بما يجري في
قصر مسيح .

وقد ظهر لجيلوت ان هذا الحاضر من آيات الحكمة .

فإن سيكسب من الخاذلين بخيانة الجانبين وعول على أن يخون خاله لدى
باردالبيان ويخون باردالبيان لدى خاله .

ولما وصل إلى قصر مونغورانسى لقي باردالبيان وقال له لدي أخبار خطيرة

يا سيدي ، فقد لفيت جانبتي .

فقال بارديليان في نفسه هوذا كنتن ثمين قد عثرنا به دون عنا .

- ٢٤ -

بانيكارولا

هو ذلك الراهب الذي عرف القراء ما عرفوه من علاقته باليس دي
ليكس حين كانت مركيزاً .

وقد عرف القراء عنه انه كان يعظ كل يوم في الكنيسة عظات بليغة
يحث فيها سامعيه على قتل الهوكينوت ، ويظهر من التحمس في التعصب
على اولئك المنكودين ما كان معظم السبب في اغتيالهم في تلك المذبحة
الهائلة الشهيرة .

غير ان هذا الراهب المتحمس المتعصب ، انقطع فجأة عن الخطب
وإيقار الصدور واعتزل في دير جبل سانت جنيفاف اتم العزلة ، فلم يره احد
بعد هذا الاعتزال .

وبعد ان احتفلوا بقشيبع جنازة ملكة النافار بيومين ، وقفت عند
هجوم الليل مركبة امام باب الدير .

وكان في المركبة امرأة من مقتنعتان بيرقعين أسودين فنزلتا منها وطرقتا
باب الدير . فسألها البواب عما يريدان ، فأجابته اصغرها . إننا نريد مقابلة
الراهب بانيكارولا .

ورفع البواب يديه إلى السماء وقال ان النساء لا يدخلن الدير يا سيدي ولا
يحتمنن بالرهبان فيه .

فاخرجت الكبرى رسالة من جيبها فدفعتها اليه وقالت سر بهذه الرسالة
إلى الراهب بانيكارولا وارجم في الحال إذا أردت أن تأمن العقاب .

وكانت هذه المرأة تتكلم بلهجة تدل على السيادة فلم يسمه إلا الامثال
وذهب مسرعاً بالرسالة إلى الراهب وعاد به إلى المرأتين .

وقد كان انذهال البواب عظيماً حين رأى الراهب قد انحنى امام المرأة
حتى كاد يبلغ الأرض .

ثم زاد انذهاله حين رأى ان الراهب قد تكلم بصوت منخفض مع المرأة
ولقدما فتبعته إلى غرفته .

وأما المرأة الصغرى فقد بقيت في قاعة الانتظار .

أما تلك المرأة التي ذهبت مع الراهب إلى غرفته فأتاحتها حين وصلت اليها نزع
برقعها فكانت الملكة كاترين .

فابتسمت له وقالت :

اني اخاف أن يكون الراهب البسواب قد عرفني فلا تقضي هنيئة حتى يعلم
جميع رهبان الدير ان والدة ملك فرنسا عندك .

- أسأل سيدي ان تطمئن فان الراهب لا يقول كلمة عن جلالتك ولكن
كان يوسعك يا سيدي ان تجتنبني هذا القلق فانك لو امرتني بالحضور إلى اللوفر
لأسرعت إلى الامثال .

فعدقت الملكة به وقالت له : أحق ما تقول ؟

- ان رجال الله لا يكذبون .

- هو ذلك ولكنني عرفت المركيز بانيكارولا وعرفت انه لا يعمل إلا
ما يحظر له .

- ان الرجل الذي تذكرين اسمه يا سيدي قد مات ، ومع ذلك فلو

كنت لا ازال ادعى الماركيز بانيلارولا ، لكنك أبعد عن الكذب من
يمدني عنه الآن ، فان الراهب يمنع نفسه عن الكذب ، وأما الماركيز
فانه يمنع نفسه عنه .
- لقد اصبت فقد عرفتك شديد الكبرياء ومن كبرت نفسه لا يكون
من الكاذبين .

على أن الكذب محمود في بعض الأحيان ، فلندع الآن البحث في
هذه المبادئ .

فاصغ إلي الآن واول ما ابدأ بقوله لك اني لست الملكة الآن بل اني صديقة
لك ، بل صديقة غلصة .
ولكن ما هذا التحول الذي اصابك ... قل بجلاء ، فمساوي أجد
دواء لدائك .

فاجابها الراهب بلمحة خطيرة قائلا :

انك تأمريني يا سيدتي ان اتكلم بجلاء وحرية وهذا ما اقوله :

اني حين انبت إلى بلاط فرنسا حسبتي آتياً من قبل الجمهورية
الابطالية ، وظننت اني أوامر مع المارشال فرنسوا مونمورانسي ، بل
حسبت اني قادم بأسرار هائلة مخيفة فسلطت علي إحدى جواسيسك لتسرق
مني هذه الأسرار .

فلم يطل العهد بهذه الجاسوسة حتى وثقت اني لا أوامر فاطمان بالك حق
انك عرضت علي بمض التقدعات فرفضتها لاني كنت في ايام شبابي لا ابالي
بغير اجتناء لذة الحياة .

ولكن جلالتك بالرغم عن رفضي اردت أن تشرفيني بصدافتك وربما
كنت ترجين ان تداهمني مصيبة يوماً من الأيام فتتقذبنني منها بحيث اصبح مدينياً
لك بالجميل فاغدر آلة بيدك لتنفيذ مآربك السياسية .

أقول هذا القول وانا ارجو ان لا اكون قد اسأت إلى سيدتي بهذه الحرية .

فابتسمت الملكة وقالت : كلا ، لم تسؤني اقوالك ، ولكنني عجبت كيف
عرفت اني حسبتك من جواسيس الابطاليين .

بشكل بسيط جداً يا سيدتي وهو أن المرأة التي كانت تتجسس اخباري
قد مرضت يوماً ..

- وكان هذا المرض على أثر الولادة .. نعم فاني أعرف هذا وأعرف انك
أب يا حضرة الماركيز .

هذا أكيد يا سيدتي الملكة ، فان هذه المرأة التعمية غدت أما .

وكانت قد سرقت اوراوفي ذات ليلة كي تدفعها اليك فطعت من ذلك انها من
جواسيسك ولما ولدت ومرضت أثر الولادة اصيبت بهذيان فطعت منها وهي
تهذي كلما كنت تضرينه لي .

وعندها اغتنمت فرصة مرضها واستكتبتها الكتاب الذي تعترف فيه انها
قتلت ولدتها فاعطيتك هذا الكتاب كي انتقم منها .

كيف ذلك يا ماركيز ، أحسبت اني أدفع ليس إلى الجلاء كي
ينتقم لك منها .

- كلا يا سيدتي ، فاني كنت واثقاً انك لا تقدمين على هذه الأمور البسيطة
ولا يفيدك قتل هذه المرأة بضربة واحدة .

ولكنني كنت اريد أن أجعلها بهذا الكتاب عبدة لك . فقد خطر لي انه
سيأتي يوم ينفذ الحب إلى قلبها وانك لا تتكرمين عليها بسر ماضيها ، وانها
ستعذب في هذا اليوم كما تعذبت ، وكفاني بعداها انتقاماً .

- اني لا اريد الاساءة اليك يا ماركيز فاني استعزمك وقد تكبرهني
ولكنك تعلم مني اني اتسو الكره حين ارجو ان استفيد منك .

فاجابها الراهب بلمحة بأس : ابارك الساعة التي تفضين علي فيها ،
فتدفعينني إلى الجلاء لاني اجد عندها من هذه الحياة التي لم أعد أجسر على
مواصلة السير في طريقها .

وأما أنك تستفيد مني يا سيدي ، فانظري الي تجدي اني أصبحت هيكل
من عظام ، فقد سئمت الحياة وأرجو بهذه العزلة أن أتوصل إلى الايمان بالله
فأستريح .

- كيف ذلك ألا تؤمن بالله ؟

- كلا يا سيدي ..

- إني أشفق عليك ..

- حقا أن تشفقي علي ، فقد أفرغت مجهودي وكنت أتكلف التعصب
على الهوكينوت تطلقا ، وأخطب الخطب البليغة حاثا على الجهاد في سبيل
الدين ، حتى كدت أصدق نفسي ، ولكنني عدت وأسفاه فجأة إلى ما أنا
عليه الآن ..

- لماذا ؟

- لأنني لقيت تلك المرأة وكنت أحسب ان ذلك الغرام القديم قد انطفأت
جذوته ، فإذا هي دار مخبئة تحت الرماد .

فانقذت عينا الملكة ببارق سرور وقالت في نفسها : لقد قبضت عليه .
وساد السكوت بين الاثنين ، فإن الملكة لظمت الصمت لوقوفها أن
المركيذ يحول في عالم آخر في هذه الساعة بعد أن تثلت له ليس وملكته
يجملة .

وبعد هنيهة بدأت الحديث فقالت :

- أريد أن تعلم أيها المركيذ لماذا أتيت اليك .

- إن من واجباتي الاصفاء إلى جلالتك ولا يحق لي أن أسألك ..

- إذا .. فاعلم ان الذي دفعني إلى القدم اليك مسألة تتعلق بالضمير
ولا تحسب اني قادمة للاعتراف ، فقد اعترفت لي انك لا تؤمن بالله ، ولكنني
أتيت لأسألك ، إذا كنت تعتبر أن ليس قد لقيت من العذاب ما يكفي لارواء
غلك من الانتقام ، فقد ذكرت لي ذلك الكتاب الذي استكتبتها إياه ودفعت

لي .. أما أنا فأرى انه يجب أن أرد اليها هذا الكتاب فقد كفاها ما
لقيت ، فماذا ترى أنت ؟

فأجابها بصوت مضطرب ، إني أرى ما تراه جلالتك .

فقالت في نفسها : الله يمدعني .. كلا فتأينه صادق فسيما يقول .. ثم
قالت له :

- يسرني أن أسمع منك هذا يا مركيذ ، فاني أرجعت اليها الكتاب .

- إذا فقد باتت حرة وقد نجت منك يا سيدي .

- ومنك أيضا ، أيها الأب المحترم .

- إني لم أنذرها بشيء على الاطلاق .

- كيف هذا يا مركيذ ، أيجب أن أقول لك بأنني سمعت ما دار بينكما

يوم جاءتك معترفة ، أم تريد أن أخبرك بما حدث بينك وبينها حين زرتها
في منزلها .

اني سمعت ورأيت كل ما جرى ، إن لم يكن بعيني وأذني فبعيون وآذان
جواسيس .

وأنا أعلم انك تحب البس .. بل تعيدها ، وانك قد حبست نفسك في
هذا الدبر بسبب هذا الحب .

- العلي قلت لك يا سيدي اني لا أحبها ..

نعم . إني أحبها ، بل أعيدها كما تقولين .

وقد أتتكم قواي في سبيل نزع هذا الحب من قلبي فوجدته لا ينزع إلا
بانزع القلب ..

نعم .. إن ضميري قد قام في عياب اليأس ، وكيف اتجهت لا ترى عينا
غير الظلمات .

بحشت في الانسانية فوجدتها شقاء وآلاما وحدقت بالملك والسلطة
فرايتها مجدا باطلا ، وأمنت في حقائق هذا الوجود فوجدتها يفضلها لعدم

بحيث أصبحت ظل نفسي .

ومع ذلك اني حين الحج إلى أعراق هذه النفس المسودة بظلمات اليأس أجد فيها يربق عاطفة جديدة يخترق هذه الظلمات .

فدهشت الملكة لما سمعته وقالت له : ما هذه العاطفة الجديدة أيها المر كيز .

- هي عاطفة الاشفاق .. عفواً يا سيدي ، فاني أعلم اني أكلتك الآن بإنسان تجهليته ويجهل رجال اليوم . ومع ذلك فقد اتصلت إلى الحكم بأن الشفقة وحدها هي التي ستنقذ العالم .

نعم يا سيدي فإنه حين تسري عاطفة الاشفاق إلى قلوب الناس ، فيشفق كل إنسان على أخيه الانسان ، وحين يعملون جميعهم حقيقة ضميرهم الانساني وحين يشفق الغني والفقير على الفقير والضعيف ، وحين يشفق ذلك الفقير نفسه على غرور ذلك الغني ، يصبح الناس متحدين مؤتلفين ، فلا سيد ولا مسود ، ولا ملك ولا رعية ، ولا غني ولا فقير ، بل يصبح الناس يبدأ واحدة لا يعملون إلا للمواونة بعضهم بعضاً بفضل تلك العاطفة عاطفة الاشفاق .

فقالت الملكة : ما هذا الجنون وما هذه الأفكار التي لا تجول إلا في مخيلات أهل اليأس .

ولكن الراهب لم يسمع كلماتها فضى في حديثه فقال :

- هذا ما يجول في خاطري يا سيدي ، حين أمعن في اختراق ظلمات نفسي وأبصر ذلك النور الضعيف ، فيخف بعض ما عندي ، وأتعمى بعض العزاء ، فأبسى نفسي في هذه الغرفة ، ولا أروء حول منزل التي أحبها ، وما كنت ذلك إلا من تلك العاطفة التي مرت إلى نفسي فأشفت على تلك المنكودة التي تكذبت حياتي ، ولكنها تنكذت مثلي وربما تجاوز شقاؤها شقائي .

فنهضت الملكة قائلة : أرجو لك العزاء كله يا مركيز فانك أولى بالرحمة

من تلك المنكودة .

ثم مشت خطوتين إلى الباب تحاول الانصراف ، وهي تعتقد انه لا سبيل إلى مباحثة هذا الاقنط .

ولكنها توقفت فجأة كأنها خطر لها خاطر سريع والتفتت إلى الراهب فقالت :

- إنني أهنتك بماطقتك الجديدة ، فإن اليس ستغدو سعيدة بعد أن نجت منك بفضل إشتاقتك ، ونجت مني إذ لا فائدة لي بتعذيبها . وهي ستكون سعيدة أيضاً مع الرجل الذي تهواه .

فاهتز الراهب كأن يبدأ كهرويته .

درأت الملكة اهتزازة فقالت في نفسها : لقد سمعته الغيرة .

ثم قالت له إلى اللقاء يا حضرة المركيز ، وسأبحث في المبادئ التي يريد أن تضعها فتدعو الناس إلى المساواة .

فقال لها الراهب دون أن يفهم ما تقول : الرجل الذي تهواه ؟

نعم .. وهو الكونت دي ماريلياك صديق ملك النافار الحميم وسيزوج هذا الهيكونوتي ، اليس بعد زواج مولاه ملك النافار ، ويذهب بها إلى بلاد النافار ، فيعيش معها أسعد عيش ، بعد أن يتوطد السلم بين الكاثوليك والهوكينوت .

ولا يستطيع قلم كاتب أن يصف ما كان يجول تلك الساعة في نفس ذلك المنكود من الشقاء ، فإن كاترين أضمرت بكلمة واحدة نثر الغيرة السكامة في قلبه .

وقد كان يجاول أن ينساها بعد أن أشفق عليها ، وأراد إنقاذها من عذابها وطرد من نفسه أفكار الانتقام منها حتى لقد خطر له أن يرحم لها ابنها .

وفيها الحب والاشفاق يتنازعانه ، وقد أوشك أن ينسى الكونت ماريلياك جاءت كلمة الملكة مشيرة لأشجانته ، فرأى انه قد يستطيع العفو عن العشيقة

المنكودة ولكنه لا يستطيع الاغضاء عن العاشق السعيد ، حتى انسه بات
بكره العاشق أكثر مما كان يحب المشوقة .

ورأت الملكة ذلك الاضطراب البادي بين عينيها ، وعلمت مسامحاً في
نفسه وقالت له :

- كيف رأيت مبادئ الاشفاق يا ماركيز .. إنك أشفتت على ماريلياك ،
فهل أشفق هذا العاشق السعيد عليك .

فاصطكت أسنان الراهب من القهر وقال :

- لتعبي اليس ، وأما ماريلياك فيجب أن يموت .

- وماذا تستطيع أن تصنع معه .

- لا شيء . ولكنتك تقدرين على كل شيء .

- هذا لا ريب فيه ، ولكن أية فائدة لي من قتل هذا الرجل ، فليعبد
اليس واتعبده وليتزوجا ، وليعيشا سعيدين ، فليس هذا من شأنني .

- إذا ماذا أتيت تعملين هنا .. إنك الملكة ، يسأل أنت أعظم ملكة
كاتوليكية ، وقد وردتني رسائل من روما ، تدل على انك زعيمة الكاثوليك
ويبدك زمام الكتلثة .. أيتها الملكة إنني كلفتك دون احترام ، وبأ زعيمة
الكتلثة اني اعترفت لك بكفوري ، فكيف لم تأمرني بالقبض علي والقائي في
ظلمات السجون ، بل لماذا تسمعين كل ما أقول ..

كل ذلك يدل يا سيدتي ، إنك محتاجة اني لتتقمني انتقاماً أجبه ، او لانقاذ
مشروع سري خطير .. فاعلمي اني أرضى بكل ما تريدونه ، وأكون آلة
لتنفيذ أغراضك ، وأخلع هذا الثوب فأمزج بالناس ، إلى أن اقتسل هذا
الرجل الذي تحبه اليس ثم تأمرين بعدها بقتلي .

يسرني انك عدت إلى رشدي ، فانا انسى كل ما قلته لي ، واعترف
انني محتاجة اليك واعتمد على مساعدتك ، لأنني أعلم حقيقة كرهك
لعاشق اليس .

قولي يا سيدتي ومرري بما تشائين ، فان الفيرة من هذا الرجل تقطع
قلبي ، ودعيني أمتع النفس بقتله ثم لتقتلينني بعده .

- كلا ، لن نموت .. وما الذي تريد الان يا ماركيز ؟

إنك تريد أن لا تكون اليس زوجة هذا الرجل الذي تحبه ، وتريد قتل
هذا الرجل ، ثم تريد أيضاً أن لا تعلم اليس انك القاتل ، إذ لا يزال في
قلبك نور رجاء .

- كل هذا سهل يا ماركيز اذا كنت تساعدني في ما أتيت لأجده .

- اني مستعد للامثال .

- إذا فاسمع ، اني أريد منك الان ان تعود إلى ما كنت عليه من الخوض
على قتل الهوكينوت .

- وأية فائدة من هذه الخطب الان ؟

- اتسيت أن ماريلياك من الهوكينوت .

- ولكنتك عقدت الصلح مع هنري دي نافر وسيزوج ابنتك .

- وفي اليوم التالي يتزوج ماريلياك باليس .

فإن الراهب أتين الموضع دون أن يجيب .

وعادت الملكة إلى الحديث فقالت :

- ان الصلح قد عقد بيننا ورجائي أن يكون وطيداً ، ولكن لا يزال
يوجد بين هؤلاء الهوكينوت نحو مائة رجل لا سبيل معهم إلى المسألة ، ولا
يؤمنون قتلهم لتوطيد السلم العام .

ثم انه لا سبيل إلى محبتهم ، فلو حاكنا مائة رجل من الهوكينوت ،
نكون كأننا نشير حرباً جديدة .

غير ان الشعب إذا ناز يوماً على أولئك المشاغبين فقتلهم ، وأنكر الملك
وأنكرت معه هذا الأمر بلغنا غايتنا من توطيد السلم دون أن نسيء إساءة
ظاهرة إلى مجموع الهوكينوت .

وماذا يجب ان نعمل للبوغ إلى هذه الغاية ؟

يجب أن نزرع بذور الأحقاد في نفوس الشعب ، وأن نشيرهم كما تشير الوحوش المفترسة في أبقاصها . ثم نفتح تلك الأبقاص ، ونرشد أولئك الثائرين إلى الذين يجب افتراسهم .

فعد إلى خطبك البليغة الهائلة .. واذكر فيها : كوليني ، وقاليني ، وكوفدي ، وماريلياك .

حتى إذا امتلأت الصدور من الأحقاد انطلق الشعب عليهم فأراح السلم من وجودهم وسادت السكينة في البلاد .

هذا ما أطلب اليك فعند إذا أردت أن أخلصك من مزاحك باليس ، فقل الآن أريد .. أأعتمد عليك ؟

فسكت الراهب هنيهة ثم قال :

غداً .. أعطى في كنيسة سانت جرمين .

.. إذا ، لا تتم بما يكون بعد ذلك فعلي البقية ، ولكنني أحسبك انه ستحدث عجائب ، وسيكون أولى هذه العجائب ان اليس ستحبك .

.. تحبني أنا ..

.. نعم تحبك أنت ، فاني أعرف اليس حق العرفان ، فأر الشعب على الذين ذكرتهم ، وأذا أرد لك اليس ، فاستعد أنت ونحن نستعد أيضاً .

.. كيف هذا .

.. لأننا سنضع في ألية من اللبالي علامة على كل منزل من منازل أولئك المائة الذين ذكرتهم لك . ففي اليوم الثمين تحترق هذه المنازل

بمن فيها .

.. تعرفين أين يقع ماريلياك .

اطمئن فان منزله سيحترق قبل كل المنازل ، وقد تأهبنا لكل شيء حتى أننا عينا اليوم .

.. أي يوم هو ؟

.. في الرابع والعشرين من شهر أغسطس وهو اليوم الذي يتفق فيه عيد القديس برثلماوس .

.. وانت اطمئني يا سيدتي ، فسأقتكر في طريفة إمارة الشعب

وقد قال الراهب هذا القول والزيد يخرج من شقيقه فرأت الملكة انه لا فائدة من امره اكثر من ذلك .

فتركته وانصرفت إلى المرأة التي كانت تنتظرها في القاعة ، فركبتا المركبة ، وأنزلتا سجوفها وسارت بهما .

ولكنها لم تسر بطريق الوقر ، بل بطريق قصر الملكة الجديد .

ولبثت المرأة التي كانت معها ساكنة واجمة إلى أن قالت فسا الملكة : كيف ذلك ، ألا تسأليني بماذا أجاب ؟

فأزاحت المرأة نقابها فظهر من تحت وجه اليس دي ليكس فقالت :

.. كيف أجسر يا سيدتي على سؤال جلاتك .

.. اني أذن لك ولكتك لا تجسرين كما أرى فسأجيب كما لو كنت سألتني فأقول ان يعفو عنك يا اليس .

فارتعشت اليس ارتعاشاً ظاهراً .

فقالت لها الملكة : انه عفا عنك يا اليس ونسي كل ما مضى

سيدتي

.. تريدون أن تسألني عن الكتاب .. اليس كذلك .. إذا فاعلمي اني ارجعته اليه وهو سيعطيك إياه بيده

وليس هذا كل ما يريد ، بل انه يريد ان تكوني سعيدة ولذا سيرد اليك ولدك ، فيكون معك حيث تكونين .

فأسفر وجه اليس

فأظهرت الملكة الاستياء كأنها تريد أن تظهر أنها فهمت سبب اصفرارها
وقالت :

... ربه . . . اني نسيت أمر هذا الغلام . . . نعم ، لا يجب أن يعلم
يودات بأمره وسيدقى عند أبيه ، فإنه ما تخلى لك عنه غير مكره مضطر
بمعامل الاشفاق . . .

رواصلت المركبة سيرها حتى وصلت إلى القصر .

وأما بانتيكارولا فقد لبث في غرفته بعد ذهاب الملكة وأقام فيها هنيهة
هائجاً مضطرباً لا يعلم ما يصنع .

وكانت له الحرية المطلقة في الدير ، بل ان الرهبان كانوا يرهبونهم لاعتقادهم
انه مزود بسلطة عظيمة من رومة .

فترك الغرفة وذهب إلى الحديقة فسار إلى مقعد هناك وجلس عليه ، وقد
وضع رأسه بين يديه وجعل يفكر .

وفي تلك الساعة مر به رئيس الدير ، وكان لهذا الرئيس منزلة سامية
لدى قومه ، إذ كانوا يعتبرونه من خير رجال الله ، وله نفوذ عظيم على جميع
كهنة باريس .

فلما رأى بانتيكارولا جالساً وحده قال له : الملك تشتغل يا اخي . . . ابق
في مكانك وأتم شغلك ، فاني لا أريد إزعاجك .

- هو ذلك أيها المحترم فاني أعد خطبة سألقها في الكنيسة .

- هذا كل ما أردت أن أعلمه أيها الأخ الجليل ، فأعد المواضيع لخطبك
وساعدو جميع الكهنة والأساقفة والرهبان إلى سماعها غداً ، كما اني سأكتب
إلى رومة أن الوقت قد حان ، ولكنني أرجو ان تأذن لي بأن أوصيك
في أمر . . .

- تفضل يا سيدي ، فاني اتلقى وصيتك بالامتنان .

- وصيتي إليك ان تجعل خطبتك واضحة جلية ، فان الكنيسة ستكون

غاصة بالكهنة على اختلاف الطبقات ، وانت تعلم انهم يحتاجون إلى الزيادة
من الايضاح ، فيجب أن تذكر لهم ما ينبغي أن يفعلوه بله الصراحة
والجلاء . . .

وعلى الجملة ، فأعلم يا بني ، ان القنبلة لم بعد يوموها غير خطابك
الحامي لتنفجر .

- اطمن يا سيدي فسيكون ما تريد ان يكون .

فوقف الرئيس وقال : إذا كان ذلك فستحدث أمور غريبة ، لأن
الرهبان يحملتهم يودون إثارة الحرب ، ولكنهم لا يحسرون على قول ما
يفتكرون به ، الا إذا كنت مثالمهم في هذه الجراءة ، فقل كل ما يخطرك
دون تهيب فقد دنت الساعة .

ثم تركه وانصرف . . .

فتركه بانتيكارولا حتى ابتعد ، ثم قام من موضعه ، فدخل إلى الدير ،
وجعل يسير من غرفة إلى غرفة . . . حتى انتهى إلى غرفة فدخل إليها
باقدام مضطربة .

وكان في هذه الغرفة سرير صغير ، كان قائماً فيه ابن ذاك الراهب . . .
من اليس .

فجعل الراهب يتعمن في وجهه وهو قائم نوماً هادئاً ، ثم تهدد وقال
بصوت خنقته المعيرات .

- اواه يا ولدي . . . فلو كانت تحبك على الأقل ، لكنك خير وسياسة
لمودتها الي . . .

* * *

وفي مساء اليوم التاليلقى بانتيكارولا خطبته

وقد حضر هذه الخطبة اسقف الملك وجميع كهنة باريس الذين بلغ عددهم

ما يزيد على ثلاثة آلاف .

وكانت أبواب الكنيسة مغلقة ، فلم يدخل إليها من غير الرهبان سوى
عشرين رجلاً ، كان بينهم الدوق دي كيز ، والدوق دي تافان ، والدوق
دامفيل ، وكيرسي الجوهري ، وكرفيه الكتي ، وبيزوا الجزار . . .

وهم أولئك الثلاثة ، الذين تولوا زعامة العامة من الشعب في مذبحه
الموكينوت المشهورة .

وقد حضر الخطبة أيضاً بعض كبار البوليس ومئات من الناس كانوا
كلوا يسمعون من وراء الأبواب .

وكان الحضور سكوتاً واجمى كل مدة الخطبة كأن على رؤوسهم الطير .
حتى إذا تم الراهب خطبته حدث ضجيج مائل بين الحضور ، ولاسيما
الرهبان ثم جعلوا يخرجون تباعاً حتى لم يبق منهم احد في الكنيسة .

وعندها نهضت امرأة كانت مختبئة في لوج وخرجت أيضاً .
فلما وصلت الى الباب لقيت بضعة رجال من النبلاء حرسوا مركبتها
فسارت بها الى قصر الملكة .

وكانت هذه المرأة الملكة كارين . .

ولما فرغ الراهب من خطبته نظرت الى الدوق دي كيز نظرات ملوها
الحقد والضغينة وقالت :

يا آل لورين افتمكروا بالموكينوت فسيوجد بينهم خلال فتمكتم بهم
من يطلق عليكم مثل ناركم عليهم ، فانتم تفتكرون بالموكينوت وهم يفتكرون
بكم وهذا خير ما كدته في حياتي السياسية .

ثم ابتسمت وقالت : اما الملك فلا فائدة من قتله فان المرض سيتولى قتله
ويخلو العرش بعده لولدي هنري العزيز ويملك سعيداً بمراقبة امه .

وفي اليوم التالي تليت خطبة بانيكارولا في جميع الكنائس فكثرت احتشاد
الناس في الطرقات ، وكثرت الوعيد والتهديد وبات جميع الناس ينظرون الى

الموكينوت النظر الشفر

أما الموكينوت فقد قلقوا في البدء لهذه المظاهرات ، وخافوا بما رأوه من
دلائل الحقد ان يكون وراء الأكمة ما وراءها .

ولكنهم رأوا ان الملك كان يدعوهم كل يوم الى اللوفر ويسدي لهم من
ضروب الجمامة والتلطف ما تطعن له خواطرم ، فلم يكثرثوا هذه المظاهرات
لاسيما وانهم كانوا منهمكين في التأهب لزواج ملكهم هنري ولا تزال نفوسهم
منقبضة لموت ملكتهم المحبوبة .

« تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث »

وحده
قاصديه

مقتدى
البيلاس